

جامعة البحرين
كلية الآداب
قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

التناسب في المهتاق الأول

"الإسراء، الخوف، مريم"

بحث مقدم لإكمال متطلبات الماجستير في اللغة العربية وآدابها

إشراف:
الدكتور: أحمد محمد علي

إعداد الطالبة:
انتصار قائد صالح البناء

الرقم الجامعي : ١٩٩٣٧٤٩٧

السنة الجامعية

٢٠٠٧ - ٢٠٠٨



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي
لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفِكَ كَلِمَاتُ رَبِّي
وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠﴾

إهداء إلى.....

أمي اليتيمة

والدتي العزيز

أساتذتي الأفاضل

كل من أعانني في رحلة البحث

لنجم جميعا كل الشكر والتقدير

مقدمة

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم.
وبعد ، ، ،

لم تعرف البشرية على اختلاف أجناسها ولغاتها ، وعلى مدى عصورها ،
كتابا أحسن بلاغة ، وأحكم نظاما ، وأجود محتوى ، وأقوم تشريعا من القرآن
الكريم. ولم تتعهد البشرية كتابا - على طول عهدها به - كما تعهدت القرآن
الكريم حفظا ودرسا.

وعلى كثرة ما أنتج العلماء المسلمون باختلاف مجالات علمهم من مؤلفات في
كتاب الله ، حاولوا فيها سبر أغوار إعجاز القرآن ، وتحليل عناصره ، واكتشاف
مكوناته ، وعلى الرغم من جلال ما جادت به عقول علمائنا عبر القرون الطويلة ،
ونفاسة ما كتبت أيديهم من دراسات ، ومصنفات ، بقي الإعجاز البياني بحرا لا
ساحل له ، ومحيطا لا حد له ، ولم يقل أحد في تفسيره كلمة الفصل بعد.

وبقي القراءان الكريم يتسع لكل ما استجد من علوم اللغة ، ويستوعب كل ما استحدث من أساليب البحث والتحليل ، وظلت المستجدات والمستحدثات أضيق من أن تتسع لما يمدّها القراءان الكريم من هبات بيانية لها يد الفضل على كل العلوم ، وأساليب البحث والدرس.

وفي حين اتفق العلماء على أن جوهر الإعجاز الذي وقع به التحدي في القراءان هو الإعجاز البياني ، فإنهم اختلفوا في كنه هذا البيان، وفي تحديد منبع الري فيه، وفي تقفي جداول السقيا التي تتفرع منه ، وتوزعت نظرياتهم في تحديد الإعجاز بين دراسة الكلمة والصورة ، واللفظ والمعنى، والتركيب والتفسير، وكلما توسعوا في باب من أبواب الإعجاز البياني، واستفاضوا في دراسته حتى غدا علما متعدد الأبواب في ذاته، وأصلا متعدد الفروع في مجاله، لم يكن ما أنجزوا أمام ما يدخر هذا القراءان إلا كمن وضع لبنة كريمة في قصر عظيم، يتجلى القصر باهرا الأعيان، وتتوارى اللبنة متلاشية في عظيم تشييده.

وليس التناسب إلا أحد علوم البلاغة التي تحاول الكشف عن جانب من جوانب هذا الإعجاز عبر تجميع آيات القراءان وموضوعاته المتعددة، ونسج خيوطها المتشابكة فيه ، وكشف العلاقات الرابطة بينها ، وهي رؤية عبر عنها العلماء كثيرا بتصوير القراءان بالجواهر المتفرقة التي تنظم في سلك كما تنظم القلادة في سلكها. فيكشف هذا النظم عن جمال في التركيب، تتعدد فيه مستويات الجمال ابتداء من جمال المفردات من الجواهر ، مروراً بجمال نظم الجواهر بجوار بعضها ، وانتظامها وفق مقاييس ومعايير دقيقة في الصنعة ، وانتهاء بجمال التكامل الذي تضافرت فيه مقومات التعدد ، والتجانس.

وما دفعني للبحث في علم التناسب هو تطلعي لفهم كتاب الله، والتدبر فيه، حيث إنني كلما قرأت القرآن وجدت في السورة الواحدة آيات متنوعة، وموضوعات متعددة، وكلما توسعت في قراءة المجموعة من السور المتتالية، وجدت موضوعات متشابهة، وآيات مكررة، وهذه النتيجة تدفع من يتتبع البحث في إعجاز القرآن إلى محاولة الكشف عن أسباب هذا التعدد، وفهم أشكال هذا التكرار، والسعي لربط الآيات والموضوعات، التي قد تبدو - في ظاهرها - مختلفة، ولكنها في حقيقتها متناسبة.

وعلم المناسبات هو العلم الذي يدرس القرآن الكريم كبنية واحدة متكاملة، يكون للجزء فيه ما للكل من العناية، فالكلمة المفردة لا تقل أهمية في دراستها عن المجموعة من الآيات، والمجموعة من السور، ودراسة مبنى الآيات والسور من حيث التركيب والترتيب، لا ينفصل عن دراسة المضامين العميقة التي يوجهها التركيب ويؤثر في مدلولها الترتيب. فالأجزاء صغيرة كانت أو كبيرة، هي تفاصيل ملامح الكل، وليست وجوها متعددة له.

كما أن هذا العلم يستجيب لكل أدوات البحث، ويستفيد من كل مناهج التحليل، ويستعين بمختلف العلوم، اللغوية: كالنحو، والبيان والبديع، والقرآنية: كال تفسير، وأسباب النزول، والعام والخاص؛ فهو علم يقوم في ذاته على التوفيق بين المؤلفات التي تتكامل فيما بينها، لغرض واحد.

وعلى الرغم مما وصل إلينا من مصنفات في التناسب، فإنها تعد قليلة، ومن أهمها: الفصل الذي ألفه برهان الدين الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن»، أما أهم كتب التفسير التي عنت بالتناسب فمنها: «التفسير الكبير» للرازي، «ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي.

أما الدراسات الحديثة فقد أفرد محمد الخطابي فصلا خاصا لتحليل منهج علماء البلاغة والقرءان في دراسة التناسب ، وألف صبحى إبراهيم الفقي كتابا من جزئين طبق فيه بعض الوسائل اللغوية لدراسة التناسب في السورة المكية.

لكن الدراسات السابقة جميعها رصدت التناسب من زوايا محددة، وطبقت بعض المناهج والأدوات في التركيز على التناسب بين الآيات المتتالية في السورة الواحدة، وهو منهج على أهميته يعد جانبا واحدا من جوانب دراسة التناسب.

أما هذه الدراسة فإنها أفادت من معظم الدراسات السابقة لها قديمة كانت أو حديثة، وحاولت السعي لدراسة التناسب وفق المنظور العميق له المنبثق من خصائص الأجزاء، نحو تحديد سمات الكل ، والمرتد من مقاصد الكل إلى تمثلاتها في بنيات الأجزاء.

وحيث تخص الدراسة ثلاث سور بالبحث والتحليل من سور العتاق الأول (الإسراء والكهف ومريم)، لكشف أشكال التناسب فيها، فإنها تسلط الضوء على ما اكتنف هذه السور من سياق خارجي تمثل في إشارات الحديث الموقوف على ابن مسعود الوارد في كتاب صحيح البخاري، والذي يذكر فيه السور على النسق الذي جاءت فيه مرتبة في القرءان الكريم، كما يدرس هذا البحث السياق الخارجي لسور العتاق الأول من ظروف بيئة ومقامات اجتماعية وثقافية، ويستكنه هذا السياق في مضامين السور، وتوزع هذه المضامين في أجزاء السور التي تشكل علاقات متكاملة مع البنية السطحية والعميقة للسور.

وكان المنهج الأعون لي في ذلك هو المنهج الاستقرائي، الذي أتاح لي قراءة النص القرآني بالإمكانات المتعددة المتاحة فيه، وتحليله وفق ما ينسجم مع هذا التعدد، فاتحا الآفاق أمامي لموازنة الآيات والسور، واستنتاج أشكال التناسب فيها وفق الأدوات اللغوية والعلاقات المعنوية التي تنطلق من النص القرآني وتقوم على إمكاناته اللغوية الخلاقة.

وتتكون هذه الدراسة من ثلاثة فصول.

الفصل الأول: مفهوم التناسب:

يتناول هذا الفصل المفاهيم المختلفة للتناسب، والمصطلحات المتعددة له، ويقدم تحليلا عاما لتطور مفهومه في كتب البلاغة القديمة، ويركز على تحليل مكونات التعاريف العامة للتناسب، والأسس التي يرتكز عليها.

كما يتناول رؤية علماء القرآن للتناسب، والتي عبروا عنها في كتب علوم القرآن، وفي كتب التفاسير التي اعتمدت التناسب منهجا لها، ويقدم هذا الفصل تحليلا لتعريفاتهم للتناسب بين الآيات والسور، ويركز على العناصر التي منها تشكل مفهوم التناسب عندهم.

ويعرض آراء علماء القرآن والمفسرين في علم المناسبات، ويتعرض لآراء المؤيدين لهذا العلم وبراهينهم، و آراء المعارضين لوجود هذا العلم في القرآن الكريم، ويبسط في الطرح آراءهم وحججهم، ثم يناقش منطلقاتهم ومبرراتهم، ويوازنها بآراء الفريق الأول بما ينسجم مع مبرراتهم.

وأخيرا يعرض الفصل أهم الوسائل التي تتقصى التناسب بين الآيات والسور، التي تنطلق من العلاقات بين الآيات وتنتهي بالعلاقات بين السور المتتالية.

الفصل الثاني: التناسب بين سور العتاق الأول:

يحلل هذا الفصل السور انطلاقا من البنى الجزئية وانتهاء بالبنية الكلية. فيعرض تحليلا للبنى الموضوعية الأساسية في السور ويحدد السمات المشتركة بينها، ويفصل في أجزاء هذه البنى ومكوناتها، وتداخلها عبر آيات السورة، في صورة متتالية أحيانا، ومتشعبة أخرى.

كما يستعرض الوسائل المختلفة لربط هذه الموضوعات، واختلاف أنواع هذه الوسائل، وأثرها في إضفاء بعد دلالي جديد في شد العلائق بين موضوعات السورة الواحدة.

ونسلط الضوء في هذا الفصل على السور الثلاث باعتبارها نصا واحدا، نزل في ظروف متماثلة، ولسياق خارجي واحد، انعكس على البنية المتكاملة للسور، التي توزعت فيها أجزاء الموضوع الواحد في ثايا السور، حيث تكاملت موضوعات السورة فيما بينها.

ونظرا إلى ما للفواتح والخواتيم من أهمية بالغة في المناسبة بين السور، فقد حللنا بنية فاتحة كل سورة وخاتمتها، والعلاقات بينها، وروابط هذه العلاقات بمضمون السورة، استنادا إلى محتوى البنية في كل واحدة منها.

الفصل الثالث: تناسب السرد في سور العتاق الأول.

تعتبر البنية الغالبة على السور هي البنية السردية، لذلك يتناول هذا الفصل المقاصد العامة للسور، وتناسبها مع مقاصد القصص الواردة فيها؛ لتتضح بذلك تشعبات المقاصد وتداخل أجزائها بين مكنونات الخطاب القراءاني في السور. ويحلل الفصل البنية السردية العميقة في كل سورة، وانعكاسات هذه البنى على البنية الدلالية الكلية للسورة.

نظرا إلى تعدد السياقات الموضوعية في السورة الواحدة، فقد اعتنى البحث بمفهوم السياق ودراسة أثره بشكل عام، وتكثفت العناية به بشكل خاص في هذا الفصل.

وقد تم تسليط الضوء على بعض السياقات الموضوعية في كل سورة، وتوضيح تلاقيها في البنية السردية وخارجها، ووسائل التقاء هذه السياقات وتداخلها في السورة.

وأخيرا، أرجو أن أكون قد وفقت في إضافة جديد للدراسات البلاغية في مجال علوم القراءان الكريم، ولو من باب التجميع والتصنيف، وأتمنى أن أكون قد قدمت ما يستحق أن يُخدم به كتاب الله، وما هو أهل أن يكون قريبا إليه تعالى.

ولا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للدكتور أحمد محمد علي المشرف على هذا البحث، والذي كان له - بعد الله تعالى - كبير الفضل في إتمام هذا البحث بما تعهدني به من رعاية وتوجيه، وأشكر كذلك الأستاذ الدكتور

إبراهيم غلوم عميد كلية الآداب ، والدكتور عبدربه عبداللطيف منسق لجنة الدراسات العليا ، وجميع أساتذتي في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية الذين قدموا لي كل عون ودعم ، وأخص بالشكر أسرتي الحبيبة ، وخاصة والدي الغاليين اللذين أعاناني طوال فترة الدراسة ، وقدموا لي كل دعم ومساندة . وأتوجه بالشكر والدعاء لكل من أعانني على إتمام في هذا البحث .

والحمد لله رب العالمين.

انتصار قائد البناء

البحرين

يونيو ٢٠٠٧م

الفصل الأول:

مفهوم التناسب

المبحث الأول: التناسب عند البلاغيين

أولاً: ما قبل تشكل المصطلح.

ثانياً: التناسب والمصطلحات
الرجيفة.

تشكلت الذائقة العربية محبة لتعدد الموضوعات في القول الواحد، ويتجلى ذلك في تعدد أغراض القصيدة القديمة، وجمع العرب موضوعات مختلفة وفنوناً متعددة في كتبهم ومؤلفاتهم "إذ المستحسن في الكلام أن يفتن في ضروب الإبداعات الموقعة فيه" ^١ فحسن الكلام عند العرب بتعدد فنونه، والافتتان في ضروب الإبداعات فيه، وهو أمر مرتبط بنواح نفسية عند المتلقي "وكلما كان الكلام مقتصرًا به على فن واحد من الإبداعات، وإن كان حسنًا في نفسه، لم يحسن؛ لأن ذلك مؤد إلى سامة النفس، فإن شيمتها الضجر مما يتردد والولع بما يتجدد" ^٢ وكي يكون هذا التجديد طارداً للسامة والضجر ينبغي أن يصاحبه "في جميع ذلك تناسب الانتقالات وحسن الاقتران" ^٣ لأن ذلك من علامات سلامة الأسلوب وصحة المعنى، وبذلك يترك الكلام وقعا حسنا في النفس "وينبغي أن تكون النقلة من أحد المعنيين إلى الآخر فيما قصد فيه التفريع متناسبة، وأن يكون المعنى الثاني مما يحسن اقترانه بالأول ويفيد الكلام حسن موقع من النفس." ^٤ فالانتقال من كلام إلى آخر ومن معنى إلى ثان مما كان يدركه الشعراء قديما "وهي حالة كان يدركها الشعراء والنقاد في آن فاستنبطوا لها صورا من المخالص يتم بها الوصل بين مفاصل القصيدة، وذلك حتى لا يكون الانتقال من مقطع إلى آخر انتقالا مفاجئا" ^٥، ومتى كان الانتقال مفاجئا غير مدروس لم يكن للمعنى المتولد من اقترانه بالذي قبله وبعده قيمة ودلالة ف "ما وقع من التفريع غير متناسب الوضع ولا متشاكل الاقتران لم يحسن" ^٦ إن الحشو

(١) حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب الخوجة، دار الكتب

الشرقية، ب ت، ص ٦١

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٣) السابق

(٤) منهاج البلغاء، ص ٦١

(٥) حسين الواد، تدور على غير أسمائها، ص ٦، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٣م.

(٦) منهاج البلغاء ٦١

والتذييل ناتجان عن رص المعاني المتأخرة، وعدم انبثاقها من معنى أصيل تتفرع عنه وتحيل إلى متعلقات ذات صلة به، وهو على خلاف الحشو والتذييل البديعيين اللذين يضيفان للمعاني الأصلية معاني تكميلية أو جمالية، " واعتبار ما تكون عليه المعاني من صحة وكمال ومطابقة للغرض المقصود بها وحسن موقع من النفس يكون بالنظر إلى ما المعنى عليه في نفسه ، وبالنظر إلى ما يقترن به من الكلام وتكون له به علقه وبالنظر إلى الغرض الذي يكون الكلام مقولا فيه وبالنظر إلى حال الشيء الذي تعلق به القول " ^١ فالكلام المختلف المقترن ، والغرض المقصود من الكلام ، والشيء الذي قصد به القول كلها منشؤها معنى مقصود في نفسه ، أصيل في إنتاجه ، حتى وإن تعددت هذه الموضوعات واختلفت أنواعها ونسبة بعضها إلى بعضها .

وقد زخرت كتب البلاغة والنقد بدراسة علاقة الكلام وارتباطه ، ودرس العلماء أشكال هذه العلاقات وأنواع الروابط فيها ، فبدأوا بدراسة الكلمة المفردة ، واعتنوا بدراسة بنيتها ومعناها باعتبارها النواة الأولى لتكوين الكلام ، حيث " إن إدراك المفرد أو التصور أو التحديد لم يكن شيئا غير معروف لدى اللغويين الأصوليين والمناطق المسلمين ، فهم كانوا جميعا يبحثون منذ البداية في الدلالات الإفرادية فيتحدثون عن أقسام الكلمة وخصائص كل قسم ، ولكنهم ركزوا على المفرد فتناولوه من حيث أنواع دلالاته: دلالة المطابقة ، دلالة التضمن ، دلالة الالتزام ، ومن حيث مدلولاته: مشترك ، متواطئ ، مترادف " ^٢ .

ثم انتقلوا إلى دراسة الجملة وانتظام الكلمات فيها ، وفهم وسائل ارتباطها ، " واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك ، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ،

(١) منهاج البلغاء ، ص ١٣٠

(٢) محمد مفتاح ، التلقي والتأويل ، مقارنة نسقية ، ص ٢٤ ، المركز الثقافي العربي ، ط ٢ ، ٢٠٠١ م .

وتجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس"^١، ووضع الجرجاني* في نظرية النظم الشهيرة قوانين النحو أساسا لارتباط الكلمات في الجملة وتعلق بعضها ببعض" واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله"^٢.

ثم عمدوا بعد ذلك إلى الجمل ودرسوا أنواع الروابط بينها" واعلم أن الجمل الكثيرة إذا نظمت نظما واحدا فلا يخلو إما أن يتعلق البعض بالبعض أو لا يتعلق"^٣ ومن أهم الموضوعات التي درست ارتباط الجمل باب الفصل والوصل.

ثم درسوا أنواع المعاني المختلفة ، وبحثوا في العلاقات بينها ف" إن المعاني منها ما يتطالب بحسب الإسناد خاصة، ومنها ما يتطالب بحسب الإسناد وبحسب انتساب بعض المعاني إلى بعض في أنفسها بكونها أمثالا أو أشباها أو أضدادا أو مقاربات من الأمثال أو الأضداد"^٤

وعلى هذا الأساس قسموا النظم من حيث وضوح العلاقات بين أجزائه ودقتها إلى نوعين ، الأول" لم يحتج واضع ذلك النظم إلى فكر وروية في استخراج ذلك النظم"^٥ لأن " سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآئى فخرطها في

(١) عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص ٥٥، قراءة محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني جدة، ط ٣، ١٩٩٢ م.

* هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، توفي عام إحدى وسبعين وأربعمئة للهجرة، واضع أصول البلاغة، من أهل جرجان (بين طبرستان وجزاستان) له شعر رقيق، من كتبه " أسرار البلاغة" " دلائل الإعجاز"، " الجمل". انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ص ٤٨/٤، دار العلم للملايين، ط ١٤، ١٩٩٩ م.

(٢) المصدر السابق ص ٨١

(٣) فخر الدين محمد الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص ١٦٨، تحقيق: نصر حاجي مفتي أوغلي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤ م.

(٤) منهاج البلغاء ٤٤

(٥) منهاج البلغاء، ص ٤٤

سلك لا ينبغي أكثر من أن يمنعها التفرق"^١، والنوع الثاني نظم أشكل معه استتباط العلاقات الجامعة بين أجزائه على الرغم من الوعي بارتباط الكلام فيه وانتظام معانيه والتحامها، وهذا النوع الخفي من العلاقات أطلق عليها حازم القرطاجني* النسب الإسنادية " فالنسب الإسنادية تلاحظ الأفكار فيها أربعة أشياء هي البيان والمبالغة والمناسبة والمشاكلة التي يكون سببها من الخفاء بحيث قد يتعذر عرفان كنهه"^٢.

كل هذه الصور من تقسيم العلماء لدراسة الكلام، والبحث في العلاقات الرابطة بين أجزائه تبين أن العرب اهتموا بدراسة الكلام كوحدة معنوية متكاملة ابتداء من دلالة الكلمة في السياق وانتهاء ببنية الكلام للوصول إلى مقصد المتكلم.

وموضوع التناسب من الموضوعات البلاغية ذات العلاقة بروابط الكلم والمعاني، وتجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من أننا سنقسم دراسة مفهوم التناسب إلى مرحلتين كما سيأتي، غير أننا في دراستنا لمفهوم التناسب عند البلاغيين لم نعتمد المنهج التاريخي، إذ ليس من أهدافنا في هذه الدراسة التأريخ للمصطلح والبحث في تطوره، ولم نقوم بعملية مسح لجميع كتب البلاغة والنقد التي تناولت الموضوع، وإنما قمنا باستقراء التعريفات الكثيرة الواردة في أهم كتب

(١) دلائل الإعجاز، ص ٩٧

* هو حازم بن محمد بن حسن القرطاجني، ولد عام ثمانية وستمئة للهجرة، وتوفي عام أربعة وثمانين وستمئة للهجرة، أديب من العلماء له شعر من أهل قرطاجنة بشرقي الأندلس، ولد فيها وتعلم، ثم هاجر إلى مراكش، ومنها إلى تونس، وتوفي بها، من كتبه: "سراج البلغاء" وطبع طبعة أنيقة محققة باسم "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" وله ديوان شعر صغير. انظر الأعلام، ١٥٩/٢

(٢) منهاج البلغاء، ص ٤٤

البلاغة^١، ووازننا بينها لتحليل مفهوم التناسب . بالتالي نصل إلى تقسيم البلاغيين العرب للمصطلح إلى مرحلتين:

الأولى ما قبل تشكل مصطلح التناسب.
الثانية : التناسب والمصطلحات الرديفة.

(١) أحمد مطلوب، راجع: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص ٣٥٥، مكتبة لبنان ناشرون، ط٢، ١٩٩٦م.

- إنعام فوّال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة، البديع والبيان ، والمعاني، ص ٤٢٩، ط١، ١٩٩٣م.
- محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ص ١٦٤٦، مراجعة رفيق العجم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦م.

أولاً: ما قبل تشكل المصطلح:

د التشاكل:

اهتم العرب كثيراً بقضية اللفظ والمعنى، والعلاقات الرابطة بينهما، وكانوا في كل ما قالوه حول قضية اللفظ والمعنى ينحون إلى أن يصل الكلام إلى درجة تكون فيها "الألفاظ غير متباينة بل متقاربة في الجزالة والرقّة والمتانة والسلاسة، وتكون المعاني مناسبة لألفاظها من غير أن يكسو اللفظ الشريف المعنى السخيف أو على الضد بل يصاغان معاً صياغة تناسب وتلاؤم" وهي نتيجة تحتاج إلى مواصفات خاصة للفظ وأخرى خاصة بالمعنى ومن ثم علاقات خاصة تجمع بين اللفظ والمعنى.

كان المعتزلة هم أول من شغل بقضية اللفظ والمعنى، وفي المرحلة الأولى التي درسوا فيها العلاقة بين اللفظ والمعنى أشاروا إلى ضرورة أن يكون الكلام مبنياً بناءً محكماً تتكافأ فيه الألفاظ مع المعاني، يقول بشر بن المعتمر^٢ فيما رواه الجاحظ^٣ "من أراغ معنى كريماً فليلتبس له لفظاً كريماً فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف"^٤ ويبدو هذا التكافؤ واضحاً من انتخاب الصفات نفسها للمعنى

(١) شهاب الدين محمود الحلبي حسن التوصل إلى صناعة الترسل، ٢١٢-٢١٣، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م.

(٢) هو بشر بن المعتمر الهلالي البغدادي، توفي عام عشرة ومئتين للهجرة، وهو فقيه معتزلي مناظر، من أهل الكوفة، له مصنفات في الاعتزال، منها قصيدة في أربعين ألف بيت رد فيها على جميع المخالفين. انظر معجم الأعلام للزركلي، ٥٥/٢.

(٣) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب، ومولده ووفاته بالبصرة، ولد عام خمسين ومائة، وتوفي عام خمس وخمسين ومائتين للهجرة، فلج في آخر عمره، من مؤلفاته: الحيوان، البيان والتبيين، سحر البيان، التاج ويسمى أخلاق الملوك، البخلاء، انظر: الأعلام للزركلي، ٧٤/٥.

(٤) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ١ / ١٣٦، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، ب.ت.

واللفظ؛ فشرف المعنى مستدع لشرف اللفظ وكذلك الكرم صفة يجب أن يتميز بها اللفظ والمعنى ، ويضاف إلى ضرورة الاعتناء بالعلاقة بين اللفظ والمعنى ضرورة الاهتمام بمقام القول " والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة وإنما مقدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام " ^١ ، وتعد هذه النظرة متقدمة في فهم بناء النصوص من حيث الاهتمام بالسياق الداخلي للنص المتمثل في علاقة اللفظ بالمعنى، والاهتمام بالحال الذي يمثل مقصد المتكلم فـ " الحال عند البلاغيين هو الأمر الذي يدعو المتكلم إلى أن يعتبر في كلامه خصوصية ما " ^٢ ، كما يظهر في كلام بشر الاهتمام بالسياق الخارجي المتمثل في مراعاة المتلقي والمقام الذي يحيط بملابسات إنتاج الكلام، فيكون من أسس التناسب تناسب داخلي للنص وتناسب مع حال المتكلم، وتناسب مع المقام الذي قيل فيه الكلام.

وأول إشارة - وقفنا عليها- تحيل إلى مصطلح التناسب إشارة الجاحظ إلى مصطلح التشاكل في قوله " ومتى شاكل - أبقاك الله - ذلك اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقا ولذلك القدر لفقاً، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف ، كان قمينا بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع " ^٣ ، وعلى الرغم من عدم وضوح المراد من التشاكل في النص السابق للجاحظ غير أنه لم يخرج عن معيار الشرف والكرم السابقين " إلا إنني أزعم أن سخياف الألفاظ مشاكل لسخياف المعاني " ^٤ لكن الجاحظ يستدرك تعميمه هذا محيلاً إلى تناسب السياق خارج النص " وقد يحتاج إلى السخياف في بعض المواضع

(١) المرجع السابق

(٢) محمد أبو موسى ، خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، ص ١١، مكتبة وهبة، طه، ٢٠٠٠م.

(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ج ٢ ص ٧

(٤) السابق، ج ١ ص ١٤٥

وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني^١ فإمتاع السامع وتقبله للكلام له دور في اختيار الألفاظ وإلباسها للمعاني.

ظل مصطلح التشاكل هو الأقدم في التعبير عن التناسب في الكلام. ولم تختلف رؤية البلاغيين العرب القدامى في ضرورة مشاكلة اللفظ للمعنى، فابن طباطبا العلوي* يرى أن " للمعاني ألفاظا تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها"^٢ ، ولكنه حين يحدد مجالات التناسب يصب اهتمامه على البناء الداخلي للقصيدة " فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له والقول عليه"^٣ فالانتظام بين اللفظ والمعنى والوزن والقافية هي معايير التناسب التي بحث فيها النقاد، والتي من خلالها يمكن للشاعر الانطلاق في بناء القصيدة " فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبتته وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وما بين ما قبله، فإذا كملت له المعاني وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها وسلكا جامعا لما تشتت منها"^٤ ، فالتناسب عند ابن طباطبا يتشكل في القصيدة من بعدين:

(١) السابق، ج١ ص٤٥

(*) هو محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن طباطبا: أبو الحسن، شاعر وعالم محقق، (ت ٣٢٢ هـ) ولد بأصبهان وعاش فيها، ويرجع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، توفي سنة اثنين وعشرين وثلثمائة للهجرة، شاعر له مؤلفات، من مؤلفاته: كتاب في العروض، وكتاب في معرفة المعنى من الشعر، وكتاب في تقرير الدفاتر. انظر: مقدمة المحققين.

(٢) محمد بن أحمد بن ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ص٥، تحقيق وتعليق: طه الحاجري، محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٦م.

(٣) عيار الشعر ص٥

(٤) السابق.

الأول: التناسب ضمن البيت الواحد والذي ينطلق من المعنى وما يكتسي به هذا المعنى من ألفاظ ووزن وقافية تتناسب معه.

الثاني : التناسب ضمن القصيدة الواحدة. فالشاعر ينظم كل بيت على حدة وفق المعنى العام الذي يريده، ثم يؤلف بين فنون القول التي تنتجها الأبيات وينظم أبياتاً (تربط) بين فنون القول المختلفة في القصيدة .

وعلى الرغم من أن ابن طباطبا حاول وضع نظام متكامل للتناسب في القصيدة غير أن الطابع التعليمي كان هو الغالب على عمله " فإن محاولة ابن طباطبا جاءت في بداية القرن الرابع الهجري لتحقيق ذلك التطلع إلى التنظير لعلم الشعر وتساهم في معالجة ما يعانيه الشاعر المحدث من محنة في وضعيته الإبداعية " إن هذا التنظير جعل ابن طباطبا يولي الصنعة اهتماماً أكبر من الاهتمام بالمضمون الإبداعي، ويتضح ذلك من خلال ما يأتي:

١. اهتمامه بالقافية كأساس يبنى عليه نظم بيت الشعر (فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه).
٢. عدم اعتناؤه بتوالي المعاني في نفس الشاعر وانسياقها في اللفظ والمعنى ، بل أشار إلى تعليق الأبيات وفيما بعد الجمع بينها (بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وما بين ما قبله ، فإذا كملت له المعاني وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكن نظاماً لها وسلوكاً جامعاً لما تشتت منها) ، فعمل ابن طباطبا ليس إلا عملاً تعليمياً " يحد من طغيان الذوق بشيء من القواعد والأسس"^٢

(١) عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، ص ٤٣٠، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٩م.

(٢) إحسان عباس، تاريخ النقد عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري، ص ١٩٤، دار الشروق، ط٤، ٢٠٠٦م.

٢. الإتيلاف:

لم يتقدم مفهوم مشاكلة المعنى في القصيدة مع الألفاظ والوزن والقافية عند قدامة بن جعفر^١ إلا في إطار التفصيل للعلاقات والتقسيمات (المنطقية) التي تقع في القصيدة، و"يكاد اسم قدامة يكون حجة لمن أراد أن يتثبت مدى تأثير الثقافة اليونانية عموما والأرسطية على وجه الخصوص في البيان العربي عموما، وفي النقد الأدبي على وجه الخصوص"^٢ ويرى كثير من المطلعين على كتاب قدامة نقد الشعر أنه "ومنذ البداية يبدو قدامة متأثرا بالمنطق الأرسططاليسي، متجاوزا المفهوم اليوناني للشعر، في آن معا، فهو في حده للشعر، وفي حرصه على أن يكون ذلك الحد مكونا من جنس وفصل يدل على أنه يترسم ثقافته المنطقية "الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى" فكلمة قول بمنزلة الجنس، وموزن فصل له عما ليس بموزون، ومقفى فصل عما هو موزون ولا قواي في له، ودال على معنى: فصل له عما يكون موزونا مقفى ولا يدل على معنى. غير أن وضعه «المقفى» صفة فاصلة للشعر تدل على أنه يؤثر أن يستقل بحديثه عن الشعر العربي"^٣

لكن العلاقات التي وضعها قدامة ظلت تراوح داخل البيت الشعري الواحد ولم نلمح إشارة في كتابه «نقد الشعر» لربط بين معاني القصيدة الواحدة كالذي وجد عند ابن طباطبا، وقدامة يبدأ بتعيين حدود الشعر "فأقول أنه لما كانت الأسباب المفردات التي يحيط بها حد الشعر على ما قدمناه فيه أربعة وهي: اللفظ

(١) هو قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (أبو الفرج)، توفي عام سبعة وثلاثين وثلثمائة للهجرة، ببغداد، كان نصرانيا وأسلم على يد المكتفي بالله العباسي، وكان من البلقاء الفصحاء المتقدمين، من مؤلفاته "الخراج" "نقد الشعر" "جواهر الألفاظ" "السياسة" "البلدان". انظر الأعلام للزركلي، ١٩١/٥

(٢) الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة ص ٣٩١

(٣) تاريخ النقد عند العرب ١٧٩

والمعنى والوزن والتقفية وجب بحسب هذا العدد أن يكون لها ستة أضرب...^١ ثم يستعرض قدامة الأضرب ويستثني منها اثنين، ويستبقي أربعة علاقات ائتلافية^٢ فصار ما أحدث من ائتلاف هذه الأسباب إلى بعض أربعة وهي ائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع الوزن وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف المعنى مع القافية^٣ ثم يشرع قدامة في التفصيل لهذه العلاقات الائتلافية وضرب الأمثلة والشواهد عليها .

غير أن الجديد عند قدامه هو استخدامه لمصطلح (الائتلاف) عوضاً عن (المشاكلة) وقد حظي مصطلح (الائتلاف) باهتمام ودراسة في كتب البلاغة القديمة، ولقد أوليت العلاقات الائتلافية المختلفة التي عقدها قدامة بالبحث والتفصيل في كتب البلاغة ، ولكننا سنكتفي بإيجاز آراء العلماء في ائتلاف المعاني بعضها مع بعض لتعلق هذا الباب بموضوع بحثنا .

– ائتلاف المعنى مع المعنى:

ينقسم ائتلاف المعاني بعضها مع بعض إلى ضربين:
الأول: " أن يشتمل الكلام على معنى معه أمران ، أحدهما ملائم، والآخر بخلافة، فيقرنه بالملائم "^٢

١ (نقد الشعر ، قدامة بن جعفر، ص ١٨ ، ضبطه وشرحه محمد عيسى منون، المطبعة المليجية، ط ١، ١٩٣٤م.

٢ (نقد الشعر قدامة ص ١٨

٣ (ابن حجة الحموي، خزائن الأدب وغاية الأرب، تحقيق كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ١٥٧/٣

واستشهدوا على ذلك بقول المتنبي^١:

فالعُربُ مِنْهُ مَعَ الْكُدرِيّ طائِرةٌ وَالرُّومُ طائِرةٌ مِنْهُ مَعَ الْحَجَلِ^٢

ففي البيت السابق ذكر الشاعر من الأقوام العرب والروم، وذكر طائري الكدري والحجل، فاختار من الطائرين الكدري للعرب والحجل للروم، باعتبار طائر الكدري يناسب العرب "لأنه يلائم بنزوله في السهل من الأرض، وينفر من العمران ويستأنس بالهامة، ولا يقرب العمران إلا إذا زاد به العطش، وقل الماء، ومناسبة الحجل مع الروم أنها تسكن الجبال، وتنزل في المواضع المعروفة بالشجر"^٣، والأصل في هذا الضرب تعدد المعاني في النص، وتناسب بعضها في شكل مجموعات ثنائية أو أكثر حسب بنية النص، كما في الشكل الآتي (العرب = الكدري)، (الروم = الحجل)، وانتفاء تناسب البعض الآخر، كما في الشكل الآتي (العرب ≠ الحجل)، (الروم ≠ الكدري).

الثاني: "أن يشتمل الكلام على معنى ومتلائمين له فيقرن بما لاقتترانه مزية" والفرق بينه وبين الأول أنه في حين لا تتناسب المعاني المتعددة في النص إلا مع معان محددة لدلالة خاصة يقتضيها صحة المعنى العام، فإن الثاني يمكن ائتلاف المعنى فيه مع كلا المعنيين المذكورين ولكن يفضل اقترانه بأحدهما لمزية خاصة فيه، ومثال ذلك قول المتنبي:

(١) هو أبو الطيب: أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي، الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، ولد سنة ثلاث وثلثمائة بالكوفة، في محلة تسمى كندة وليس من كندة التي هي قبيلة، قيل إنه ادعى النبوة في بادية السماوة، ثم تاب، قدم على سيف الدولة ابن حمدان فمدحه، وحظي عنده، ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدي، وطلب منه أن يوليه، فلم يولهِ كافو، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجو، قتل في النعمانية (في الجانب الغربي من سواد بغداد) لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلثمائة. انظر وفيات الأعيان، ١٢٠/١، الأعلام للزركلي: ١١٥/١

(٢) ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ص ٣٥٢ دار الأرقم للطباعة والنشر، ب ت.

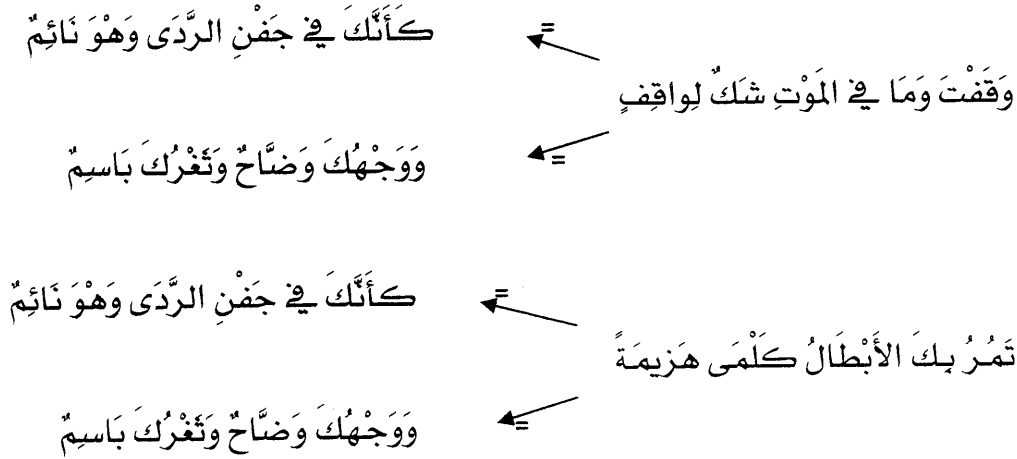
(٣) خزانة الأدب ١٥٧/٣

(٤) المرجع السابق: ١٥٧/٣

وَقَفَّتْ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِيُؤَقِفَ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَا هَزِيمَةً وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكَ بِأَسْمٍ^١

فإن عجز كل واحد من البيتين ملائم لكل واحد من صدريهما ، وصالح لأن يؤلف معه ، ولكن الشاعر اختار الترتيب الذي عليه البيتان لأن قوله " كأنك في جفن الردى وهو نائم " تمثيل السلامة في مقام العطب ، ولهذا قرر له الوقوف والبقاء في موضع يقطع على صاحبه فيه بالهلاك ، أنسب من جعله مقررا لثباته في حال هزيمة الأبطال^٢ ، أما عجز البيت (ووجهك وضاح وتغرك باسم) ففيه موازنة بين حال الممدوح في المعركة وهو باسم الوجه وحال أعدائه من الأبطال الذين يمشون مهزومين مخذولين.

ونستطيع أن نمثل لإمكان تناسب أشطر البيتين بالمخطط الآتي:



إن الائتلاف بالمنظور السابق يعنى بارتباط المعنى واقتترانه مع المعاني المختلفة وفق رؤية الشاعر أو الناثر، فيختار للمعنى ما يلائمه .

(١) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ص ٤٠٤

(٢) خزانة الأدب، الحموي، ج ٣ ص ١٥٧

فوجه التناسب بين شطري البيتين ، أن شطري البيت الأول يتكاملان ليرسما
صورة حسية لغلبة الممدوح في المعركة ، أما الشطران الثانيان فيتكاملان لرسم
صورة نفسية للممدوح المنتصر والخصم المنهزم.

إدراك الأبصار له ، عطف على ذلك قوله " اللطيف " حفظا للسامع بما يفهم ، إذ معترف العادة أن كل لطيف لا تدركه الأبصار ، فورود اسم الجلالة اللطيف إنما جاء تناسبا مع ذاته تعالى التي لا تدركها الأبصار ، ألا ترى أن حاسة البصر إنما تدرك اللون من كل متلون والكون من كل متكون " ^١ وفي الشق الثاني من الآية " لما قال سبحانه { وهو يدرك الأبصار } عطف على ذلك قوله تعالى { الخبير } تخصيصا لذاته سبحانه بصفات الكمال ، لأن كل ما أدرك شيئا كان خبيرا بذلك الشيء " ^٢ فجاء في عجز الآية صفتان من صفات الله تعالى (اللطيف والخبير) اللتان ورد تفصيلهما في صدر الآية ، وبذلك تكون علاقة آخر الآية بأولها علاقة توضيحية .

ونجد فهم المناسبة بين أول الكلام وآخره ذات دلالة وأهمية أكبر في تفسير قوله تعالى { إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [المائدة، ١١٨] ، فذكر المغفرة في صدر الآية " يوهم أن الفاصلة الغفور الرحيم " ^٣ تناسبا مع فعل الشرط تغفر ، وتناسبا مع السياق العام للآية الذي يحمل معنى الاستعطف ، لكن الآية ختمت بصفتي الله تعالى العزيز الحكيم لسببين: الأول: " لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه فهو العزيز ، لأن العزيز في صفات الله هو الغالب " ^٤ .

والثاني : " في الوصف بالحكيم احتراص حسن ، أي وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك ، والحكمة فيما فعلته " ^٥ ، والتناسب في هذه الآية تناسب في مقام وقوعها ، إذ هو مقام عزة لله تعالى ، حيث

(١) تحرير التبيين ص ٣٦٣

(٢) المرجع السابق

(٣) الإيضاح ص ٥٠٨

(٤) المرجع السابق

(٥) المرجع السابق

يقف عيسى عليه السلام بين يدي الله، يحاسب فيما فعل بنو إسرائيل بعده من شرك ومعصية " ولهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصىك. وقيل قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم "١، وفيه إحالة إلى تناسب السياق خارج النص.، فأصبح الكلام فيه " مطابقا للحالة التي يُتحدث عنها، ومناسبا للموقف الذي يُتحدث فيه "٢

الثاني: الجمع بين المعاني المختلفة:

من المعاني التي يدل عليها مصطلح التناسب أن "يجمع الناظم أو الناثر بين أمر وما يناسبه "٣ أو " يضم ذكر الشيء وما يليق به ويجري مجراه "٤ ويربط بين هذه الأمور معنى يجمعها وسياق يضبطها " ومعنى هذا أن الأشياء المتناسبة تنتمي إلى فضاء دلالي مشترك "٥، كقول البحتري^٦ يصف خيلا تحذب ظهرها :

كَالْقَسِيِّ الْمُعْطَفَاتِ بَلْ الْأَسْدِ هُمْ مَبْرِيَّةٌ بَلْ الْأَوْتَارِ^٧

فقد جمع البيت بين الأسهم والأوتار لشبهها في الانحناء بظهور الخيل المحدبة " وكان يمكنه أن يشبهها بالعراجين، أو نون الخط، لأن المعنى واحد في الانحناء والرقعة ولكنه قصد المناسبة بالأسهم والأوتار لما تقدمه ذكر القسي "٨ إذ المعنى

(١) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج٢ ص١٣٥، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء، مصر، ط٢، ١٩٩٧م.

(٢) معجم المصطلحات وتطورها، أحمد مطلوب ٦٤٢

(٣) نهاية الأرب، ج٢، ص٣٣٦، الإيضاح، ٥٠٥

(٤) حسن التوسل إلى صناعة الترسل، ص٢١١

(٥) التلقي والتأويل، ص ٥٠

(٦) هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحتري، شاعر كبير يقال لشعره "سلاسل الذهب"، ولد بمنبج عام ستة ومائتين للهجرة، ثم رحل إلى العراق واتصل بالمتوكل العباسي، ثم عاد إلى الشام، وتوفي بمنبج. انظر الأعلام، الزركلي، ١٢١/٨

(٧) ديوان الوليد بن عبد الله بن يحيى البحتري، ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ٩٨٧ / ٢، دار المعارف ١٩٦٣م.

(٨) خزانة الأدب ج ٣٣٦، الإيضاح ٥٠٥

الجامع لهذه العناصر، والفضاء الدلالي لها هو آلات الحرب المقوسة فجاءت كلها متناسبة على هذا الأساس .

كذلك قول أحدهم في مدح آل بيت النبي^١ :
أَنْتُمْ بَنُو "طه" و"نون" و"الضُّحَى" وَبَنُو تَبَارَكَ وَالْكِتَابِ الْمُحَكَّمِ
وَبَنُو الْأَبَاطِحِ وَالْمَشَاعِرِ وَالصَّفَا وَالرُّكْنِ وَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَزَمْزَمَ

فالمعنى الجامع بين عناصر البيت الأول (طه ونون وتبارك) هو كونها أسماء سور في القرآن الكريم ، والمعنى الجامع بين عناصر البيت الثاني (الأباطح والمشاعر والصفا والركن والبيت العتيق وزمزم) هو كونها أسماء لمواقع مقدسة، والجامع بين عناصر البيتين هو كونها أسماء لمسميات دينية مقدسة، فالجامع في هذا المجال جامع عقلي ينطلق من العلاقات بين الأشياء " كما بين العلة والمعلول، والسبب والمسبب، والسفل والعلو، والأقل والأكثر، فإن العقل يأبى ألا يجمعهما في الذهن"^٢ .

وقد يكون الجامع بين المعاني هو صحة التقسيم فيجمع بين " ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد، وإذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه، ولم يشارك غيره "^٣ كقوله تعالى { وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً، فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } الواقعة: ٧-١٠ حيث ينقسم الناس يوم القيامة ثلاثة أقسام: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقون، وكل قسم له حال ومآل كما تفصله السورة في الآيات التالية.

(١) لم ينسب المصنف البيت لقائل، خزانة الأدب، ٢/٢٣٦

(٢) الإيضاح الخطيب القزويني، ٢٨١

(٣) ضياء الدين بن نصر الله بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج ١ ص ١٨٠، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٩٠

الثالث: ترتيب المعاني المترابطة:

اهتم البلاغيون عند البحث في التناسب بين المعاني المجتمعة بـ "ترتيب المعاني المتأخية التي تتلاءم ولا تتنافر"^١ لأن الترتيب قد يحمل دلالة إضافية لمعنى التناسب، كقول ابن رشيق القيرواني:

أَصَحُّ وَأَقْوَى مَا رَوَيْنَاهُ فِي النَّدَى مِنْ الْخَبَرِ الْمَأْثُورِ مُنْذُ قَدِيمِ
أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنْ الْحَيَا عَنْ الْبَحْرِ عَنْ جُودِ الْأَمِيرِ تَمِيمِ

فجامع المناسبة بين عناصر البيتين على اختلافها هو صحة ترتيبها "فإنه ناسب بين الصحة، والقوة، والسماع، والخبر المأثور، والأحاديث والرواية، ثم بين السيل، والحيا، والبحر، وكف تميم"^٢ وهذا النوع من المناسبة يعطي الكلام طابعا بلاغيا مميزا حيث تسلم المعاني بعضها إلى بعض في تسلسل يبدأ من الفروع إلى الأصول، فالبيت الثاني يتميز بـ "صحة الترتيب في العنفة، إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر، كما يقع في سند الأحاديث، فإن السيول أصلها المطر، والمطر أصله البحر على ما يقال، ولهذا جعل كف الممدوح أصل للبحر مبالغة"^٣، وقال ابن أبي الأصبع "هذا أحسن سعر سمعته في المناسبة المعنوية، فإنه وفى المناسبة حقها، وناسب في البيت الأول بين الصحة والقوة والرواية والخبر المأثور، وناسب في البيت الثاني بين الأحاديث والرواية والعنفة، حيث أتى بها صاغرا عن كابر، وآخرها عن أول، كما يقع سند الأحاديث، لأن السيول فرع، والحيا أصله ولذلك جعلها تروي عن الحيا إذ هي بمنزلة الوالد، وكذلك الحيا فرع، والبحر أصله، لذلك جعل الحيا يروي عن البحر، إذ الحيا بمثابة الولد

(١) حسن التوسل ص ٢١٢

(٢) الإيضاح ٥٠٧

(٣) السابق.

والبحر بمثابة الوالد ، ثم نزل البحر بمنزلة الولد ، ودود الممدوح بمنزلة الوالد له لقصد المبالغة في المدح ، ولذلك جعل البحر راويا عن جود الممدوح.^١

ثانيا: المناسبة اللفظية :

يرى البلاغيون أن "تناسب الألفاظ الذي هو معين على بيان المعاني"^٢ يمكن النظر إليه من حيث التقابل ، يقول التتوخي^٣. "فمنه المقابلة وهو أن يذكر الشيء ثم يقابله بمناسبه أو ضده ، والمقابلة بالضد هي التي يسميها جمهور أئمة البديع المطابقة." ^٤ "ومن أمثلة المقابلة بالمناسبة قوله تعالى { الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير } [الشورى: ٤٢] " قابل في هذه الآية بين - ربنا وربكم - وبين - لنا أعمالنا ولكم أعمالكم - وبين - بيننا وبينكم - وربنا وربكم ومعناها واحد وهو الله تعالى " ^٥ .

يكتسب التناسب بين الألفاظ أثراً إيقاعياً ينتج من العلاقات اللفظية القائمة على الاتزان ، ويمكن تقسيم التناسب اللفظي إلى ثلاثة أقسام:

١. مناسبة لفظية تامة (الترصيع).
٢. مناسبة لفظية غير تامة (التوازن).
٣. تشابه الأطراف (التسبيغ).

^١ (تحرير التحرير ص ٣٦٦)

^٢ زين الدين أبي عبد الله محمد بن محمد التتوخي ، الأقصى القريب في علم البيان ، ص ٩٢ ، مطبعة السعادة ، مصر ب ت

^٣ (محمد بن محمد بن محمد بن عمر ، أبو عبد الله ، زين الدين التتوخي ، أديب دمشق ، استقر في بغداد ، له كتب ، منها " الأقصى القريب في علم البيان " توفي عام ثمانية وأربعين وسبعمائة للهجرة ، انظر : الأعلام ، الزركلي : ٣٥/٧ .

^٤ (الأقصى القريب ، ص ٩٢)

^٥ (السابق ، ص ٩٢)

د. المناسبة التامة (الترصيح) :

تعرف المناسبة التامة بأنها هي التي تكون فيها "الكلمات مع الاتزان مقفأة"^١ كقوله تعالى: {ن، والقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْثُونٍ} [القلم: ١-٣]، حيث جاءت فاصلة الآيات متزنة ومختومة بنفس الحرف، وقد يستدعي الاعتناء بالمناسبة التامة في بعض الأحيان العدول عن التصريف الأصلي للكلمة إلى غيرها مما يستقيم وزنا وتقفية مع ما سبقها من الكلام، كقوله صلى الله عليه وسلم يرقى الحسن والحسين (أُعِيدُكُمْ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ) ففي الحديث عدل عن الوزن الصريح الأصلي في كلمة لامة و" لم يقل ملمة وهي القياس لمكان المناسبة اللفظية"^٢ التي زادت من دلالة المعنى حيث جاءت كلمة لامة " على وزن فاعل لتفيد معنى الفاعلية المطرد"^٣ الذي فيه استدامة الشر والخطر، فجاءت رقية الرسول صلى الله عليه وسلم من كل عين شرها دائم الأذى.

٢. المناسبة اللفظية غير التامة (التوازن) :

وتسمى المناسبة الناقصة، وهي التي تكون الألفاظ فيها "موزونة غير مقفأة"^٤ وهي في نظر العلماء أدنى من التامة، ومن شواهد قولها تعالى {ق، والقُرْءَانِ المجيد، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [ق: ١].

(١) تحرير التعبير ص ٣٦٣، خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٦٤

(٢) المراجع السابقة نفسها

(٣) عبد الحميد أحمد يوسف هندراوي، الإعجاز الصريح في القرآن، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، ص ٢١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠١ م.

(٤) تحرير التعبير ص ٣٦٣، خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٦٤

٢٣] ومن الأمثلة السابقة يبدو اهتمام علماء البلاغة بالتناسب اللفظي في فواصل الكلام.

٣- تشابه الأطراف (التسبيخ):

ورد مصطلح تشابه الأطراف بتعريفين مختلفين، فمنهم من يعرفه بأنه " أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى " ^١ وهذا التعريف يعيدنا إلى تعريف التناسب المعنوي، في حين يعرفه آخرون بأنه " أن يعيد الناظم لفظ القافية في أول البيت الذي يليها " ^٢ وهو الأنسب. في نظرنا - لأنه الأقرب للمقصد الدلالي لكلمة تشابه، ومن أمثله قول أبو نؤاس * :

خزيمة خير بني خازم وخازم خير بني دارم
ودارم خير تميم وما مثل تميم في بني آدم ^٣
إلا البهاليل بني هاشم وهم سيوف لبني هاشم

إضافة إلى الأثر الإيقاعي الناتج عن تشابه الأطراف بتكرار الكلمات في آخر الكلام أو الذي يليه، فإن عامل التكرار أحدث نوعاً من الروابط التي تشد أجزاء الكلام، وبذلك يتكامل في هذا النوع من التناسب الإيقاع وربط المعاني والتدرج في الترتيب.

(١) الإيضاح، ص ٥٠٨

(٢) خزانة الأدب ج ٢ ص ٢١٠

* هو الحسن بن هانيء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء، ولد عام ستة وأربعين ومائة للهجرة، في الأهواز، وتوفي عام ثمانية وتسعين ومائة للهجرة، شاعر العراق في عصره، نشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد، فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، له ديوان شعر. انظر الأعلام، للزركلي، ٢٢٥/٢.

(٣) الأبيات الواردة في خزانة الأدب، ٢١٠/٢

المبحث الثاني:

علم مناسبات القراءة الكريم

أولاً: تعريف علم مناسبات القراءة الكريم.

ثانياً: آراء العلماء الرافضين لوجود المناسبات

في القراءة الكريم

ثالثاً: كيفية الإهتمام إلى مناسبات الآيات

والسور.

يعد علم مناسبات القرآن الكريم من العلوم الدقيقة التي قل الاعتناء بها قديما وحديثا، ويرجع السبب في ذلك إلى أن التناسب " علم دقيق المسالك خفي المدارك" ^١ وباعتباره علما يتوسط مباحث البلاغة - كما سبق عرضه - ومباحث علوم القرآن الكريم، فإن الباحث فيه يحتاج إلى بذل جهد كبير في القراءة والتدبر، ويحتاج إلى الإلمام بعلوم اللغة من بلاغة ونحو، إضافة إلى علوم القرآن كالتفسير وأسباب النزول والقراءات وغيرها.

وعلى الرغم من قلة الاعتناء بعلم المناسبات، فقد ألفت بعض المصنفات التي خدمت هذا العلم سواء على صعيد كتب التفسير مثل تفسير الرازي * " التفسير الكبير " وتفسير الزمخشري ** " الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " وكتاب البقاعي *** " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور "، أم على صعيد التعريف بهذا العلم كالفصل الذي عقده الزركشي في

(١) مصطفى مسلم ، مباحث في التفسير الموضوعي ، ص ١٢ ، دار القلم ، دمشق ، ط ٤ ، ٢٠٠٤ م.

* هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبرستاني الأصل الرازي المولد، ولد في الخامس والعشرين من شهر رمضان، سنة أربع وأربعين وخمسمائة بالري وتوفي سنة ست وستمائة بمدينة هراة، من مؤلفاته "المطالب العالية" و"نهاية العقول" و"الأربعين" و"تهذيب الدلائل وعيون المسائل". انظر وفيات الأعيان، ٢٤٨/٤

** هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، ولد يوم الأربع السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة، بزمخشري، وتوفي ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، في بجر جانية خوارزم. كان معتزليا، من مؤلفاته "الكشاف"، "المحاجة في المسائل النحوية"، "المفرد والمركب"، "أساس البلاغة". انظر وفيات الأعيان، ١٦٨/٥

*** هو إبراهيم بن عمر بن حسن بن علي بن أبي بكر، برهان الدين الخرباوي، البقاعي الشافعي، ولد في دمشق عام تسعة وثمانمائة، ثم قدم إلى مصر فاستوطنها، وطلب العلم بها، من مؤلفاته "جواهر البحار في نظم سيرة المختار"، "الباحة في علمي الحساب والمساحة"، "مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور"، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، انظر: عمر عبد السلام تدمري، برهان الدين البقاعي الإمام الموسوعي، مجلة تاريخ العرب والعالم، ص ٩، السنة ٢٠٠٠م، مجلد ٢٠، العدد ١٧٨

كتابه " البرهان في علوم القرآن " والذي استفاد منه السيوطي^١ فيما نقله عنه في التناسب في كتابه " الإتيقان في علوم القرآن " وكتاب " معترك الأقران في إعجاز القرآن " ، أم على صعيد التركيز على بعض جوانب التناسب مثل كتابي السيوطي "تناسق الدرر في تناسب السور" الذي خصصه لدراسة ترتيب سور القرآن الكريم ، وكتاب " مراصد المطالع " الذي خصصه لدراسة فواتح سور القرآن الكريم.

غير أن علم مناسبات القرآن الكريم ظل أسير ما أُلّف فيه ابتداء ولم يحظ بالتطوير والتجديد إلا لما في بعض كتب التفسير، وكتب علم اللغة الحديث.

وقد تعرض علم المناسبات إلى نقد ورفض من قبل بعض العلماء الذين رأوا فيه شكلا من أشكال التعسف وبابا من أبواب إدخال الريب في كتاب الله.

وعلى الرغم من اختلاف الآراء فإن علم المناسبات من العلوم الشريفة التي يدرك المتأمل في كتاب الله أهمية طرق أبوابه وتلمس أسبابه .

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بين محمد بن سابق الدين الخضري السيوطي، جلال الدين، ولد عام تسع وأربعين وثمانمئة للهجرة، وتوفي عام أحد عشر وتسعمائة للهجرة، إمام حافظ، مؤرخ أديب، نشأ في القاهرة يتيما، ولما بلغ الأربعين اعتزل الناس وألف أهم كتبه منها " الإتيقان في علوم القرآن " ، " معترك الأقران في إعجاز القرآن " ، " الكتاب الكبير " ، " الرسالة الصغيرة " .

أولاً: تعريف علم مناسبات القراء الكريم:

أضفى الزركشي على علم المناسبات صبغة عقلية جعلت منه معياراً يقيّم به الكلام ويقدر فيه المتكلم "واعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول" وبذلك يكتسي علم المناسبات منحى علمياً بانتهاجه يصبح هذا العلم معقولا ومن ثم مقبولا "ولهذا قيل المناسبة أمر معقول إذا عُرِض على العقول تلقته بالقبول"^١.

وأول من تحدث في هذا العلم وبحث عن حكمته - كما ورد عند الزركشي - هو أبوبكر النيسابوري^٢ الذي كان "يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جانب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة جنب هذه؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة"^٣.

ويعد تعريف الزركشي التعريف المرجع لمن بعده، فهو يعرف المناسبة تعريفاً لغوياً وتعريفاً شرعياً، ومن خلالهما يستخلص تعريفه للمناسبة في القراء الكريم، يقول: المناسبة في اللغة هي "المقاربة، وفلان يناسب فلاناً أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب: الذي هو القريب المتصل: كالأخوين، وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما، وهو القرابة"^٤ ثم ينتقل إلى

(١) بدرالدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القراء، ٦١/١، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الفكر بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.

(٢) السابق ص ٦١

(٣) أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، توفى سنة تسع أو عشر وثلثمائة، كان فقيهاً عالماً مطلعاً، من كتبه المشهورة "كتاب الأشراف"، "المبسوط"، "الإجماع" انظر: وفیات الأعيان، ٢٠٧/٤

(٤) السابق ص ٦٢

(٥) المصدر السابق ٦٢، ويقال "فلان ناسب فلاناً، فهو نسيبه أي: قريبه" انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نسب، ٧٥٥ / ١، دار صادر بيروت، ط ٣، ١٩٩٠م، الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية والنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨٤م.

التعريف الشرعي " ومنه المناسبة في العلة في باب القياس ، الوصف المقارب للحكم ، لأنه إذا حصلت مقاربتة له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم " ^١ وفي التعريفين السابقين للتاسب يظهر التركيز على وجود العلاقة أو الرابط سواء في القرابة أم في الوصف المؤدي للحكم.

ويؤكد الزركشي وجود الرابط حين يشرع في بيان صور المناسبات في القرآن الكريم " وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتيمها ، ومرجعها - والله أعلم - إلى معنى رابط بينهما : عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي ^٢ ، وغير ذلك من أنواع العلاقات. أو التلازم الذهني: كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين ، والضدين ، ونحوه. أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب وجود الواقع في باب الخبر ^٣ وهذه علاقات يغلب عليها التقسيم المنطقي وهو أيضا ما ميز تقسيم العلاقات بين الكلام عند البلاغيين ، وبين الزركشي فائدة هذا العلم في " جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم ، المتلائم الأجزاء " ^٤.

والنظر إلى القرآن باعتباره نصا محكم البناء متلائم الأجزاء هو ما يعبر عنه بـ (الكلمة الواحدة) وهو غاية علم التاسب عند أبي بكر بن العربي " ارتباط أي القرآن بعضه ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة

(١) البرهان، ٦٢

(٢) الجامع الخيالي للمعاني هو: " أن يكون بين تصوريهما تقارن في الخيال سابق ، وأسبابه مختلفة ولذلك اختلفت السصور الثابتة في الخيالات ترتبا ووضوحا " ، ويضرب البلاغيون له أمثلة عديدة مثل قائمة على " جمعه على مجرى الإلف والعادة بحسب ما تتعقد الأسباب في ذلك كالجمع بين الإبل ، والسماء ، والجبال ، والأرض ، في قوله تعالى { أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت } انظر: الإيضاح للقرويني ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

(٣) المصدر السابق، ٦٢

(٤) المصدر السابق، ٦٢

المباني، علم عظيم" ^١ ، وتكشف لنا رؤية ابن عربي للتناسب عن تفاصيل فهمه لعلم المناسبات، فانساق المعاني، وانتظام المباني يقودنا إلى دراسة الروابط بين المعاني من جهة ، والروابط بين المباني من جهة ثانية، ثم الروابط بين المباني والمعاني من جهة ثالثة كي نصل إلى بنية (الكلمة الواحدة) للقرءان، وبهذا المنظور يذهب بعض العلماء إلى " أنه لا وقف تام في كتاب الله ولا على آخر سورة { قل أعوذ برب الناس } [الناس: ١] بل هي متصلة مع كونها آخره بالفاصلة التي هي أوله كاتصالها بما قبلها بل أشد " ^٢ ، فالنص القرءاني نص واحد مترابط وليس مجموعة من النصوص المنفصلة.

إن العلم بروابط الكلام هو الذي يحدد نوع العلاقة بين أجزائه، ومن ثم يفسر علل ترتيبه على الصورة التي انتهى إليها، وهو تحديدا مفهوم علم المناسبات الذي " تعرف منه علل الترتيب، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسباته من حيث الترتيب ، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب " ^٣ ، فموقع الجملة بين الكلام إنما يقوم على أسباب استدعاها المتكلم ، بحيث يتأثر مقصد القول بما قبله وما بعده.

وإذا خصصنا مفهوم المناسبة في كتاب الله فإننا نعني به " ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها " ^٤ ، إن دراسة روابط القرءان ذات علاقة وطيدة بترتيبه وفي ذلك تكمن أسرار بلاغية لطيفة كما يشير الرازي " أكثر لطائف القرءان مودع في الترتيب

(١) المرجع السابق ٦٢

(٢) برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٩/١ ، تحقيق عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٥م.

(٣) نظم الدرر، ج١ ص٥

(٤) التفسير الموضوعي ص٥٨

والمناسبات"^١، لذلك نجد أن كتب التفسير والكتب التي عنت بالمناسبات تبحث في علاقة أول كل سورة بخاتمة السورة التي سبقتها، وتهتم بإبراز وجه الإعجاز في هذا الارتباط القائم على الترتيب.

والترتيب هو أحد شقي إعجاز النظم في القرآن . كما يرى البقاعي .، الذي قسم النظم إلى نظم تركيب وهو " نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب"^٢ ونظم ترتيب وهو " نظمها (يقصد الجملة) مع أختها بالنظر إلى الترتيب"^٣. وبناء على ما سبق يتبين لنا أن جزئيات مفهوم علم التناسب في البلاغة لا تختلف عنها في علم مناسبات القرآن، ف كلا المفهومين يركزان على ارتباط المعاني المختلفة، ودراسة علاقات هذه الروابط ، والبحث في الترتيب الذي ورد عليه النص.

(١) البرهان ج١ ص ٦٢

(٢) نظم الدرر ٧/١

(٣) السابق ٧/١

ثانيا: آراء العلماء الرافضين لوجود المناسبات في القرآن الكريم:

واجه علم المناسبات رفضا من بعض العلماء الذين رأوا في ربط آيات القرآن في السورة الواحدة، وربط وسوره علما مبتدعا وسؤالاً فيما يجب السكوت عنه، ولا أدل على شدة إنكار بعضهم لهذا العلم من تعليق الشوكاني حين انتقل من موضوع لآخر في سورة البقرة " فإن قال متكلف : كيف ناسب هذا ما قبله؟ قلنا لا كيف؟ "، بل لقد شن بعضهم نقدا شديدا على رموز هذا العلم، وعدوا الاشتغال فيه من دواعي ضياع الوقت فيما لا يرجى ثمره ومما يصرف فيه الجهد دون فائدة.

ويمكن اختزال الأسباب التي دعت بعض العلماء إلى رفض علم المناسبات في الأسباب الآتية:

١. التكلف في ربط الآيات والسور ببعضها.
٢. تعدد موضوعات القرآن، واختلاف أسباب نزولها.
٣. نزول القرآن منجما.

١- : التكلف في ربط الآيات والسور ببعضها:

ومنشأ الاعتراض على هذا العلم كما يرى الشوكاني* أن فيه من التكلف والقول بالرأي في كتاب الله ما يسيء بالدرجة الأولى لبلاغة القرآن الكريم " واعلم أن كثيرا من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم

(١) فتح القدير ، ١/١٧٤.

* هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، من كبار علماء اليمن في القرنين الثاني والثالث عشر، ولد بهجرة شوكان باليمن عام ثلاث وسبعين ومئة للألف، وتوفي عام خمسين ومئتين للألف، له العديد من المصنفات في التفسير والحديث والفقه والعقيدة. انظر مقدمة محقق فتح القدير، الأعلام، ١٧/٥

يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلف بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية، المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء، فضلا عن كلام الرب سبحانه^١، والشوكانى يرى أن هذا العلم متكلف في ذاته وأن العمل فيه مضيعة للوقت دون أن يبين جوانب التكلف، ودواعي ضياع جهد من يعمل به.

كما يعيب الشوكانى على العلماء الباحثين في التناسب إصرارهم على ربط كل آية بما قبلها وجعلهم التناسب غاية التفسير في مصنفاتهم ووجه الإعجاز في فهم القرآن " وهل هذا إلا فتح أبواب الشك، وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور؟ فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع آي القرآن، ويفردون ذلك بالتصنيف، وتقرر عنده أن هذا أمر لا بد منه، أنه لا يكون القرآن بليغا معجزا إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة، وتبين الأمر الموجب للارتباط، فإن وجد الاختلاف بين الآيات فرجع إلى ما قاله المتكلمون في ذلك، فوجده تكلفا محضا، وتعسفا بينا انقذ في قلبه ما كان عنه في عافية وسلامة"^٢، وقد يكون من العلماء من تكلف في سعيه لربط كل آية بما قبلها وما بعدها، وقد يكون من المبالغة في القول إن الآية لا يظهر موضع الإعجاز فيها حتى تتناسب مع التي قبلها والتي بعدها، وربما يؤدي هذا إلى إدخال الريب في قلب من لم يكن ذا دراية وفهم كافيين في كتاب الله، ولكن إهمال البحث في التناسب والوقوف على الآيات دون ربط بينها من أبواب الشك في كتاب الله وتوسيع دائرة الريب فيه، فإذا " عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلتها وما تلاها خفي عليه وجه ذلك ورأى أن الجمل متباعدة والأغراض

(١) فتح القدير، ج ١ ص ١٧١

(٢) فتح القدير ج ١ ص ١٧٢

متأثية المقاصد فظن أنها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط وربما شككه ذلك بكثير وزلزل إيمانه وزحزح إيقانه، وربما وقف مُكيسٌ من أذكىء المخالفين عن الدخول في هذا الدين بعد ما وضحت لديه دلائله وبرزت له من حجالها دقائقه لحكمة أرادها منزله وأحكمها مجمله ومفصله " ^١.

إن التشدد في البحث عن المناسبة دون الاهتداء الصحيح إلى وسائلها، والتشدد في رفض البحث في التناسب بين الآيات كلاهما من التكلف المرفوض، وكلاهما مما ينقص من شأن المتصدر لتفسير القرآن الكريم، ويعطل اكتشاف الإعجاز البياني فيه.

إن الطبيعة الخاصة التي يتميز بها علم المناسبات هي التي جعلت كثيرا من العلماء يهملونه ويعرضون عن البحث فيه، فهو " من العلوم التي تحتاج إلى بذل الجهد في التتبع والاستقصاء اللغوي لدلالات الألفاظ القرآنية، والإحاطة بأسباب النزول، والتوسع في أفانين علم البلاغة والأساليب البيانية، وفوق كل ذلك ينبغي أن يكون الباحث ذا حس مرهف ونفس شفافة وذكاء لماح ليدرك سر هذا الترتيب للآيات التي وضعت بجوار بعضها" ^٢، فعلم المناسبات يتجاوز البحث في التفسير والمظاهر البلاغية العامة إلى دراسة دقائق البناء اللغوي، والأسباب الخفية منها خاصة، ولعل الروابط الخفية هي التي يؤدي البحث فيها إلى الوقوع في التكلف ومن ثم يرفض هذا التكلف.

والروابط الخفية عادة تكون غير لفظية، وهذا من الأسباب التي ذكرها البقاعي في نفي البعض وجود التناسب في القرآن " إلا أن يحمل نفيهم لتعلقه على

(١) نظم الدرر ج ١ ص ٧- ٨

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، ص ٦٥

اللفظ مطلقا ولو خفيا" ^١، ويكون الانشغال في السعي وراء روابط لفظية بين كل الآيات تكلفا بيّنا، ومن ثم يكون أمرا مرفوضا قطعاً.

كما أن بناء النص القرآني في الجمع بين الموضوعات المتعددة لا يعنى الالتحام التام و" الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية حسب ، كما ظنه بعض الباحثين في المناسبات " ^٢ بل إن وسائل التناسب بين الآيات تعنى بالروابط اللغوية، والبيانية، وارتباط النص بالسياق الخارجي له " ومن هنا فإن استخراج المناسبات لبيان جهة الإعجاز في القرآن الكريم ينبع من العقل ويعتمد عليه ويكون بإعمال الفكر والنظر إلى السابق واللاحق لبيان المناسبة بينهما " ^٣.

ويبقى البحث في التناسب بالاستعانة بالوسائل اللغوية والبيانية الصحيحة ، والاهتداء إلى المنهج الملائم لكل موضوع وسورة، من الأمور المعينة على اكتشاف أوجه التناسب في القرآن الكريم ومما يجنب الباحث الوقوع في التكلف .

٢- : تحديد موضوعات القرآن، واختلاف أسباب نزولها:

طرح القرآن قضايا كثيرة ، وناقش موضوعات متعددة، فهو رسالة أنزلها الله تعالى تبياناً لكل شيء، ولقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في حصر موضوعات القرآن الكريم، فمنهم من عدّها نحو ثلاثين موضوعاً، ومنهم من حصرها في خمسة محاور كالعلامة محمد الغزالي الذي رأى أن مدار القرآن خمسة محاور

(١) نظم الدرر، ج ١ ص ٩

(٢) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، ص ١٨٩، ١٩٠، دار طيبة، الرياض، ط ٢٠٠٢ م.

(٣) وليد عوجان، السيوطي وكتابه تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور، دراسة وتحليل، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد ١٣، ع ١٥، ١٩٨٨ م.

هي: الله الواحد، الكون الدال على خلقة، القصص القرآني، البعث والجزاء، ميدان التربية والتشريع^١. ودفع هذا التعدد في الموضوعات إلى عدم تقبل بعض العلماء وجود تناسب بين آيات القرآن وسوره، لأن بعض الآيات والسورة تنزل لتعالج موضوعا معينا وفق سبب محدد، ثم تنزل التي تليها لمعالجة موضوع آخر في سبب مختلف، من أجل ذلك اشترط العز بن عبد السلام* وحدة الموضوع لقبول المناسبة فيه " والمناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر"^٢، ويطبق هذه القاعدة على القرآن " إن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة، لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض"^٣، ويشاطره الشوكاني الرأي في عدم تأتي الربط بين آيات القرآن لتفرق موضوعاته واختلاف أسبابها " وكل عاقل فضلا عن عالم، لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة، كتحريم أمر كان حلالا، وتحليل أمر كان حراما، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص، يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى، وتارة مع من حضر، وحينما في عبادة، وحينما في معاملة، ووقتا في تهريب، وآونة في بشارة، وآونة في نذارة، وطورا في أمر دنيا، وطورا في أمر آخرة، ومرة في تكاليف آتية، ومرة في أقاصيص ماضية، وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الائتلاف، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه

(١) محمد الغزالي، انظر المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٩م.

* هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي قاسم بن حسن بن محمد بن مهند، السلمي الدمشقي، ولد سنة سبعة وسبعين وخمسائة، وتوفي سنة ستين وستمائة، في مصر، ظل مقيما في دمشق إلى أيام الملك الصالح إسماعيل، ثم انتقل لتدريس الشافعية في مدرسة الصالحية بمصر، واتصل بالسلطان نجم الدين أيوب الذي ولاء خطابة مصر وقضاءها. انظر: تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، ٢٠٩/٨، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الحناحي، دار إحياء الكتب العربية، ب. ت.

(٢) البرهان في علوم القرآن ج١ ص ٦٣

(٣) المرجع السابق

مختلف كاختلافها ، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون ، والماء والنار ، والملاح والحادي " ^١ ، وكما اتفق العز بن عبد السلام والشوكاني في تعليل رفضهما للتناسب فقد اتفقا أيضا في أسلوب التدليل على صحة ما ذهبوا إليه عن طريق ضرب مثل واقعي ، حيث يرى العز بن عبد السلام استحالة طلب الربط بين تصرفات البشر لأنها تقع في أوقات مختلفة لعل مختلفة فكذلك النظر إلى آيات كتاب الله " ولا يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض ، مع اختلاف العلة والأسباب ، كتصرف الملوك ، والحكام ، والمفتين ، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ، ومتخالفة ومتضادة. ليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض ، مع اختلافها في نفسها واختلافها في وقتها " ^٢ ، أما الشوكاني فيرى استحالة ربط آيات القرآن وسوره كاستحالة طلب ربط كلام البلغاء من البشر " فأنت تعلم أن لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة مدحا ، وأخرى هجاء ، وحينما نسيبا ، وحينما رثاء ، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة ، فعمد هذا المتصدي إلى ذلك المجموع ، وناسب بين فقره ومقاطععه ، ثم تكلف تكلفا آخر فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد ، والخطبة التي خطبها في الحج ، والخطبة التي خطبها في النكاح ، ونحو ذلك وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء والإنشاء الكائن في الهناء وما شابه ذلك ، لعد هذا المتصدي لمثل هذا مصابا في عقله متلاعبا بأوقاته ، عابثا بعمره الذي هو رأس ماله " ^٣ .

وتعبر هذه الرؤية عن نظرة جزئية لكل موضوع على حدة " ولكن النظرة الفاحصة المتأملة للسورة ككل تضع فكر القارئ للقرآن الكريم أو التالي له عند موضوع واحد تدور حوله السورة وتتشكل موضوعاتها الجزئية بجوهر هذا

(١) فتح القدير، ج ١ ص ١٧٢

(٢) البرهان ج ١ ص ٦٣

(٣) فتح القدير ج ١ ص ١٧٣

الموضوع، وتسهم في جوانبه ومجالاته ليؤدي كل منها غاية واحدة وهدفا واحدا وهي غاية هذا الموضوع الواحد وهدفه الذي تدور حوله السورة القرآنية " ^١

٢- : نزول القرآن منجما :

وهو سبب وثيق الصلة بالسبب الأول لأن نزول القرآن منجما كان في أسباب استدعتها أمور الدعوة، وانسجم معها مقتضى حال الآيات والسور، "وقد زخرت كتب علوم القرآن بعرض ترتيب السور الذي نزل عليه القرآن" وترتيب نجوم القرآن بحسب النزول أمر صعب المنال لكنه في حيز الإمكان " ^٢ ، ودراسة القرآن الكريم على أساس ترتيب نجومه أمر " على غاية الأهمية في التفسير الموضوعي الذي بدأ الاهتمام به في الدراسات الإسلامية ... كما أنه على جانب عظيم من الأهمية لبيان حكمة الله التشريعية في البعد عن الطفرة والمفاجأة وأخذ الناس بالسهولة واليسر والرفق " ^٣ ، وبما أن القرآن لم تنزل آياته وسوره على الترتيب المتعارف عليه في المصحف العثماني، بل لم تنزل آيات معظم سوره بشكل متكامل أو متتال، وهذا من دواعي التشكيك في موضوع التناسب عند الشوكاني " فأى معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعا أنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزل الله متأخرا، وتأخر ما أنزله الله متقدما، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن ، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه، ممن تصدى لذلك من الصحابة، وما أقل نفع مثل هذا وأنزر ثمره وأحقر فائدته " ^٤

(١) رفعت فوزي عبد المطلب، الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ص ١٢، رسالة التربية، كلية التربية، المدينة المنورة، س ٢٠، ع ٢، مايو ١٩٨٨

(٢) محمد على الحسن، ترتيب نزول القرآن، مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، ص ١٨٨ ع ٢٧، س ٢٥، يونيو ١٩٩٦ م.

(٣) السابق.

(٤) السابق

والعلماء في ردهم على هذين السببين في الغالب يعودون إلى حديث اللوح المحفوظ، وأن القرآن كان مرتباً فيه على الترتيب الحالي، ثم نزل مفزقا وجمعت آياته وسوره توقيفا " قد وهم من قال لا يطلب للآلى الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن العظيم لو استفتى في أحكام متعددة، أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل جملة إلى بيت العزة "، ومن ثم يعد نزول القرآن مفزقا ثم ترتيبه على النحو الذي انتهى إليه من أبواب الإعجاز التي تستحق الوقوف عندها، وتأمل الحكمة فيها " فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها، ونظرت إلى ما مهد لها من أسبابها، فرأيت كل نجم رهينا بنزول حاجة ملّة، أو حدوث سبب عام أو خاص، وإذا لرأيت في كل واحد منها ذكرا محدثا لوقته، وقولا مرتجلا عند باعته، لم يتقدم للنفس شعور به قبل حدوث سببه، ولرأيت فيه كلا قائما بنفسه لا يترسم نظاما معينا يجمعه وغيره في نسق واحد(اجتماع هذه الأسباب كلها في كل سورة متفرقة النجوم، دون أن تغض من أحكام حجتها، ولا من استقامة وزنها، هو بالتحقيق معجزة المعجزات)* ولو أنك نظرت إليها في الوقت نفسه فرأيتها وقد أعد لكل نجم منها ساعة نزوله سياج خاص يأوي إليها سابقا أو لاحقا، وحدد له مكان معين داخل ذلك السياج متقدما أو متأخرا، وإذا لرأيت من خلال هذا التوزيع الفوري المحدد أن هناك خطة تفصيلية شاملة قد رسمت فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها، بل من قبل أن تخلق أسبابها بل من قبل أن تحدث الأطوار الممهدة لحدوث أسبابها وأن هذه الخطة التي رسمت على أدق الحدود والتفاصيل قد

(١) البرهان ٦٤/١

* التشديد موجود في المرجع الأصلي

أبرمت بآكد العزم والتصميم، فما من نجم جعل في مكان ما من السورة آخرًا أو أولاً، ثم وجد عنه أبد الدهر مصرفاً ولا متحولاً^(١).

ويربط بعض العلماء مثل الزركشي والسيوطي بين أسباب النزول وترتيب آيات القرآن من باب التناسب بين عموم معنى الأولى وخصوص سبب نزول الثانية، ويستدلون على ما ذهبوا إليه بالآية [٥١] من سورة النساء { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا } والآية [٨٥] من السورة نفسها { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا }، يقول السيوطي " وقد تنزل الآيات على الأسباب الخاصة وتوضع مع ما يناسبها من الآي العامة، رعاية لنظم القرآن وحسن السياق، فيكون ذلك الخاص قريباً من صورة السبب في كونه قطعي الدخول في العام، كما اختار السبكي أنه رتبة متوسطة دون السبب وفوق المجرد، مثاله قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ... } [النساء ٥١] إلى آخره، فإنها إشارة إلى كعب بن الأشرف ونحوه من علماء اليهود لما قدموا مكة وشاهدوا قتلى بدر، وحرصوا المشركين على الأخذ بثأرهم ومحاربة النبي صلى الله عليه وسلم فسألوهم من أهدى سبيلاً؟ محمد وأصحابه أم نحن؟ فقالوا: أنتم، مع علمهم بما في كتابهم من نعت النبي المنطبق عليه، وأخذ المواثيق عليهم ألا يكتموه، فكان ذلك أمانة لازمة لهم ولم يؤدوها حيث قالوا للكفار: أنتم أهدى سبيلاً، حسداً للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد نظمت هذه الآية مع هذا القول التوعد عليه المفيد للأمر بمقابله المشتمل على أداء التي هي [بيان] صفة النبي صلى الله عليه وسلم، بإفادة أنه الموصوف في كتابهم، وذلك مناسب لقوله { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا } [النساء ٥٨]، فهذا عام في كل أمانة، وذلك خاص بأمانة، هي صفة النبي صلى

(١) النبأ العظيم ص ١٨٩ ، ١٩٠.

الله عليه وسلم بالطريق السابق، والعام تال للخاص مترخ عنه في النزول، والمناسبة تقتضي دخول ما دل عليه الخاص في العام، ولذلك قال ابن عربي في تفسيره: وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقولهم إن المشركين أهدى سبيلا، فكان ذلك خيانة منهم، فأنجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات^١، وهذا النوع من التناسب إضافة لكونه يدعم علاقة ترتيب القرءان بأسباب نزوله وهو باب لم يتطرق إليه العلماء إلا في إشارات معدودة، فإنه يدعم أيضا ارتباط تناسب الآيات بالسياق الخارجي للنص القرءاني المتمثل في الحال والمقال والذي تدل عليه أسباب النزول.

ولا يحول تعدد موضوعات القرءان الكريم دون تناسبه، فالقرءان ذو بنية خاصة يكون فيها مستقلا ومكتفيا بوحداته الأساسية (السورة، الآية، الجملة من الآية)، ومتكاملا في بنيته الكلية في الوقت نفسه "فقد أمكن فرز التداخل للوقوف فيه على نصوص تكاد تكون مستقلة، كما أمكن فرز آيات داخل كل نص تكاد تكون هي الأخرى مستقلة، وأنه لمن الممكن كذلك فرز جمل دخل هذه الآيات، تكاد تكون أيضا مستقلة... فنجد أن القرءان يبدو فيه كلا واحدا، وذلك لأن كل الوحدات القرءانية تتراكب فيه وتتآلف، فالجمل تدخل في الآيات، والآيات في النصوص، والنصوص في السور، والسور في القرءان"^٢ بل بالإمكان من خلال هذه البنى المتعددة المستقلة في ذاتها المتماسكة مع بعضها الوصول إلى بنية موضوعية واحدة تشد موضوعات القرءان الكريم وبناء المختلفة نحو موضوع مركزي واحد "فإن النص القرءاني يمتاز من بقية النصوص بفرادة تماسكه وكيفية هذا التماسك، فهو نص يقدم نفسه بوصفه نصا واحدا في إطار السور المتعددة. وإن المعنى ليتعدد في بنائه نموذجا بتعدد النصوص المتداخلة في

(١) جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرءان، ص ١١٣، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٤م.

(٢) جاك بيرك، القرءان إعادة قراءة، ترجمة دمنذر عياشي، مقدمة المترجم ص ١٦، ١٥، مركز الإنماء الحضاري، ط ٢، ٢٠٠٥م.

إطار السورة الواحدة (قصة الخلق، قصص الأنبياء، أفعال الرسول وأفعال الصحابة، أخبار القرون الماضية والشعوب البائدة، إلى آخره) كما أنه على العكس من ذلك، يرتد إلى بؤرة دلالية واحدة في إطار السور المتعددة، هي بؤرة التوحيد^١، إن انطلاق موضوعات القرءان المختلفة من موضوع واحد وارتكازها في بؤرة واحدة هي بؤرة التوحيد يؤكد ما ذهب إليه العلماء قديما في أن القرءان " كلمة واحدة "، هذه الكلمة هي التوحيد، وهي التي تربط آخر القرءان الكريم بأوله ارتباطا شديدا كما ذكر البقاعي سابقا. ف " القرءان الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق متين الأسلوب، قوي الاتصال، أخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جملة وآياته، وجاء آخره مساوقا لأوله، وبدأ أوله مواتيا لآخره"^٢.

إن الطبيعة الخاصة التي يتميز بها علم المناسبات هي التي جعلت كثيرا من العلماء يهملونه ويعرضون عن البحث فيه، فهو " من العلوم التي تحتاج إلى بذل الجهد في التتبع والاستقصاء اللغوي لدلالات الألفاظ القرءانية، والإحاطة بأسباب النزول، والتوسع في أفانين علم البلاغة والأساليب البيانية، وفوق كل ذلك ينبغي أن يكون الباحث ذا حس مرهف ونفس شفافة وذكاء لماح ليدرك سر هذا الترتيب للآيات التي وضعت بجوار بعضها"^٣، فعلم المناسبات يتجاوز البحث في التفسير والمظاهر البلاغية العامة إلى دراسة دقائق البناء اللغوي، والأسباب الخفية منها خاصة، وهذا ما يدفع بعض العلماء لنفي التناسب في البناء القرءاني الذي

(١) المرجع السابق ص ١٧

(٢) محمد عبدالعظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرءان، ٥٣/١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ب.ت.

(٣) مباحث في التفسير الموضوعي، ص ٦٥

تخفى فيه روابط التناسب اللغوية كما يشير البقاعي " إلا أن يحمل نفيهم لتعلقه على اللفظ مطلقا ولو خفيا " ^١ ، والروابط الخفية في الآيات كثيرة وبحاجة إلى عناية ودقة في التأمل، وهي التي تتجلى فيها مظاهر الإعجاز اللغوي.

ثالثا: كيفية الإهتمام إلى مناسبات الآيات والسور:

البحث في التناسب في سور القرآن يقودنا إلى النظر إلى القرآن باعتباره نصا واحدا متكاملا ، والأساليب نفسها المستخدمة في بحث التناسب في السورة الواحدة يمكن بسطها للبحث في تناسب القرآن الكريم كاملا. إننا نستطيع الانطلاق في دراسة التناسب من البحث في تناسب أجزاء السورة الواحدة، ومن ثم التوسع في دراسة التناسب ليشمل السور المتتالية، ثم التوسع في الدراسة لتشمل مجموعة من السور ذات الخصائص المشتركة كالسور المكية أو المدنية ، ومنها الانطلاق في دراسة التناسب في القرآن الكريم .

١- تناسب آيات القرآن الكريم:

في البحث في تناسب الآيات وترابطها " ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ " ^٢ ، ويرى العلماء أن ارتباط الآي بعضها ببعض ، ما أن يكون ارتباطا ظاهرا ، وإما أن يخفى ذلك الارتباط.

(١) نظم الدرر، ج ١ ص ٩

(٢) البرهان ج ١ ص ٦٤

وأما ما يخفى ارتباطه فذلك " لتعلق الكلام ببعضه ببعض " ^١ وهو مما ييسر الوصول إلى الروابط فيه.

وأما ما يظهر ارتباطه فقسمه الزركشي إلى ماتكون الآيات معطوفة ، وما لا تكون الآيات معطوفة.

لِ الْآيَاتِ الْمُعْطَوْفَةِ :

الآيات التي تقوم العلاقة النحوية بينها على العطف لابد " أن تكون بينها جهة جامعة " ^٢ تجمع المعطوفات المختلفة والموضوعات المتعددة ، كما في قوله تعالى {يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} [الحديد: ٤]، " وفائدة العطف جعلهما كالنظيرين أو الشريكين " ^٣ والجامع بين الأرض والسماء وما ذكر فيهما هو علم الله الذي أحاط بهذه الموجودات وأجزائها ، وعلم الله تعالى محيط بكل شيء، وقد تكون العلاقة بينهما المضادة، وهذا كمنااسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة، وهذا الوجود يحمل في طياته من النقائص التي لا تلتقي بحال، والعلاقة الرابطة بين هذه الجمل المتعاطفة هي علاقة التضاد.

كما تحدث الزركشي عن العلاقات التي تجمع المعطوفات مثل التناظر والتشاكل، والتضاد ، وكذلك تطرق إلى الآيات المعطوفة التي أشكل الربط بينها ، والرابط في العلاقات السابقة رابط لفظي.

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٦٦

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦٧

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٦٧

ب - الآيات التي لا تكون معطوفة:

وهذا النوع من الآيات يحتاج إلى "دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية مؤذنة بالربط"^١، والعلاقات التي وضعها الزركشي لهذا النوع علاقات معنوية مثل التنظير، والمضادة، والاستطراد، والانتقال من حديث لآخر. وقد فصلت كتب البلاغة القديمة والحديثة كثيرا في هذا الموضوع في باب الفصل والوصل.

٢- تناسب السورة الواحدة في القراءة:

والبحث في تناسب السورة يتطلب من الباحث أولا "أن يحكم النظر في السورة كلها"^٢ لأن النظرة الشاملة للسورة ستقودنا لإدراك "النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة"^٣، ولا يتأتى الوصول إلى النظام الكلي الذي يتحكم في تعدد موضوعات السورة الواحدة وأساليب الانتقال والربط فيها إلا بالنظر إلى "الغرض الذي سيقى له السورة"^٤ وقد يختلف غرض السورة باختلاف المرحلة الزمنية التي نزلت فيها السورة "فمن المعلوم أن السور المكية أكدت تقرير أربعة أمور: الإيمان بالله وحده، الإيمان بالبعث بعد الموت، الإيمان بالرسالات السماوية، الدعوة إلى أمهات الأخلاق"^٥ أي أن أغراض السور المكية أغراض عقدية، أما أغراض الآيات المدنية "فبالإضافة إلى تقرير ما سبق استهدفت بناء المجتمع الإسلامي على أساس من الإيمان والطاعة والتشريعات التفصيلية في شؤون الحياة، كما استهدفت

(١) البرهان ج ١ ص ٧٤

(٢) النبأ العظيم ص ١٩٩

(٣) المرجع السابق

(٤) جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج ١ ص ٤٩، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٨م.

(٥) مباحث في التفسير الموضوعي ص ٤٣

حماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الداخلية والأخطار الخارجية " ^١ وكلها أغراض تشريعية " جاءت في أعقاب المرحلة المكية التي تكفلت ببيان عالم العقيدة الإسلامية ، التي تم الاعتماد عليها أو الانطلاق منها في هذه الدعوة والمجادلة التي استهدفت المسلمين وغير المسلمين " ^٢

وعلى الرغم من أهمية الوصول بالسورة مهما كانت طويلة ومتعددة الأغراض إلى غرض واحد ، فإن هذا الغرض لا يتأتى في السورة إلا بعد "إحصاء أجزائها وضبط مقاصدها" ^٣ فسور القرآن تختلف في بنائها وتعدد موضوعاتها ، ويؤثر تعدد الأجزاء واختلاف الموضوعات في البناء الفني للسورة لارتباطه بالغرض الرئيس للسورة حيث تعتبر الموضوعات المتعددة مقدمات متعددة المستويات تصل بنا إلى ذلك الغرض " وتتنظر إلى ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتتنظر عند انجرار الكلام في مقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، ، فهذا هو الأمر الكلي المعين على حكم الربط بين أجزاء القرآن " ^٤ وبذلك يقطع الباحث في المناسبة شوطا كبيرا في الوصول إلى ارتباط السورة في غرض واحد.

إن النظرة الكلية إلى السورة وتعيين أجزائها قد يفضي إلى وجود عدة محاور في السورة الواحدة ، وهذه المحاور تدور حولها السورة " من غير تناقض ولا تعارض ولا تصادم ، ويمكن تحديد كل محور والتعرف على دائرته من خلال زوايا الرصد

١ (المرجع السابق

٢ (عدنان محمد زرزور ، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه ، ص ٢١٧ ، در الأعلام ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م.

٣ (النبأ العظيم ١٩٩

٤ (معترك الاقران ج ١ ص ٤٩

التي نرصدها ... وحسب نقاط الارتكاز^١ ومن ثم يمكن الوصول إلى أكثر من وجهة فنية لمناسبة السورة القرآنية ، وذلك حسب اعتناء الباحث بالمحاور وسبل شدها إلى الغرض الرئيس للسورة الذي قد يختلف من باحث لآخر .

٢- التناسب بين السور (تشابك النص القرآني):

حين نبحث في التناسب بين السور فإننا ننظر إلى القرءان على أنه نص واحد متكامل وهو ما عبر عنه العلماء قديما بـ " الجملة الواحدة " ، وإذا ما تتبعنا ما ورد عن العلماء في تناسب السور فإننا سنجد أن القرءان تنمو موضوعاته وتتفرع عن طريق تفصيل الآيات لما أجمل في الآيات التي سبقتها ، والتوسع فيها في السور المتتالية " لأن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها ، وشرح وإطناب لإيجازه^٢ " ويرجع العلماء أصل القرءان كله إلى سورة الفاتحة ، لأنها تشمل المعاني التي قام عليها القرءان ، وقد وضع الزمخشري تلك المعاني بأنها " الشاء على الله بما هو أهله ، وعلى التعبد ، والأمر والنهي ، وعلى الوعد والوعيد^٣ " وكلها وردت في سورة الفاتحة ، ولذلك فإن " جميع القرءان تفصيل لما أجملته الفاتحة ، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرءان مفصلا ، فإنها واقعة في مطلع التنزيل ، والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله^٤ " ، ويعتبر العلماء سورة الفاتحة " كالعنوان وبراعة الاستهلال^٥ " للقرءان عامة ، لهذا سوف نجدهم يربطون بين ما تضمنته جميع السور وبين ما ورد في الفاتحة.

(١) مباحث التفسير الموضوعي ص ٤٤

(٢) جلال الدين السيوطي ، تناسق الدرر السيوطي ٦٥ ، تحقيق عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٨٦ م.

(٣) جار الله محود بن عمر الزمخشري ، الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ١ / ١١ ، تحقيق محمد عبدالسلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٣ ، ٢٠٠٣ م.

(٤) تناسق الدرر ٦٢

(٥) السابق ٦١

وإذا نظرنا إلى ما قاله العلماء في الفاتحة فسنجد أنها تمثل البنية الأساس للقرآن ، فالسيوطي يشير إلى أن " كل ربع من القرآن افتتح بسورة أولها الحمد " فالفاتحة تمثل الربع الأول ، والأنعام تمثل الربع الثاني ، والكهف تمثل الربع الثالث ، وسبأ وفاطر تمثل الربع الرابع. وربما نتوصل بدراسة بنية هذه الأرباع انطلاقاً من دراسة دلالات الحمد فيها ، ومعرفة الموضوعات التي تناولتها السور ، والكيفية التي عرضت فيها إلى فهم أبعد للتناسب نتجاوز فيه دراسة التناسب بين السورة والسورة التي قبلها والأخرى التي بعدها إلى دراسة التناسب بين مجموعة من السور التي يربطها رابط معين مثل المطالع ، أو الطول ، أو زمان النزول

كما أن موضوعات سورة الفاتحة تتفرع وتتوسع في باقي السور التي تليها وفي باقي سور القرآن بشكل عام ، فقد فسر العلماء " المغضوب عليهم باليهود ، والضالين بالنصارى ، وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم في الزمان فعقب بسورة البقرة ، وجميع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة ، وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب ، ثم عقب البقرة بسورة آل عمران ، وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى " .

وهذا التوسع في الخطاب يحيلنا إلى قضية الترتيب التي هي أس من أسس التناسب ، فترتيب الخطاب في ذكر الأمم السابقة يتطابق مع الترتيب الزمني لوجودهم ، ويتطابق كذلك مع النسق الاجتماعي الذي مرت به الدعوة كما فصل السيوطي " وكان خطاب النصارى في آل عمران ، كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر ، لأن التوراة أصل ، والإنجيل فرع لها ، والنبي لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم ، وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر " ^٢ وأثر ذلك بليغ أثناء قراءة

(١) تناسق الدرر ٨٦

(٢) تناسق الدرر ٦٨ - ٦٩

(٣) المرجع السابق ٦٣

القرءان، فبعد عهد الدعوة يتلقى القارئ المعاني القرءانية بترتيب يعينه على فهم السياق الزمني لتلك المعاني. حيث يلتقي ترتيب الخطاب في ذكر اليهود قبل النصارى مع الترتيب التاريخي باعتبار اليهودية والتوراة سابقة للنصرانية والإنجيل مع ترتيب النسق حيث خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود وقتلهم قبل النصارى.

ومن أوجه التوسع في الموضوعات بناء على الترتيب توسع القرءان الكريم في عرض القصص وربط ترتيب العرض بترتيب الخطاب "ومن ذلك أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم، وذكر في هذه [يقصد آل عمران] نظيره في الخلق من غير أب، وهو عيسى عليه السلام، لذلك ضرب به المثل بآدم، واختصت البقرة بآدم، لأنها أول السور، وآدم أول في الوجود وسابق، ولأنها الأصل وهذه كالفرع والتتمة له، فمختصة بالإعراب والبيان. ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا، وأنكروا وجود ولد بلا أب، ففوتحوا بقصة آدم، لتثبت في أذهانهم، فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشبهها من جنسها " وهذا يساعدنا على دراسة التناسب في ذكر القصص القرءاني حيث يدل ترتيبه على دلالة معينة تخص وسيلة من وسائل الدعوة في بعض الأحيان.

ومن أشكال التوسع في الموضوعات في القرءان الكريم " (زرع) مجموعة من العناصر في سورة معينة ، ثم تقع تسميتها (أو تنمية بعضها) * في سورة لاحقة " ٢ وقد سبق ضرب مثل بسورة الفاتحة .

وكذلك ربط المفسرون بعض السور بهذا النوع من الرباط ، مثل ربط سورة عبس بسورة النازعات التي سبقتها فسورة عبس " مقصودها شرح { إنما أنت منذر

(١) تناسق الدرر ٧٣

* الأقواس الداخلية من النص المنقول

(٢) محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ٢٠١، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩١م.

من يخشاها { [النازعات: ١٥] }^١ فمعظم السورة المتتالية إنما هي تفصيل لما سبقها من آيات السور .

إن البنية الواحدة للقرءان الكريم والترابط الواضح عن طريق نمو الموضوعات وتتميمها في السور المتلاحقة هو الذي يخلق التلاحم في النص القرءاني بحيث يبدو في صوره المتعددة نظاما واحدا ، وبناء متراسا .

(١) نظم الدرر البقاعي ٨ / ٣٢٣

الفصل الثاني:

تناسب بني سور الحتاق

الأول وموضوعاتها

تمهيد

في هذا الفصل وفي الفصل الذي يليه سوف نتناول بالتحليل التناسب في سور العتاق الأول، التي وردت في حديث ابن مسعود* في صحيح البخاري**، حيث يروي عبدالرحمن بن يزيد« سمعت ابن مسعود رضي الله عنه يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي»^١ وفي رواية أخرى يزيد على السور السابقة « طه والأنبياء»^٢، ويفسر ابن حجر العتاق بأنها " جمع عتيق وهو القديم ، أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة"^٣ وفسر قول ابن مسعود بأنهن من تلادي قائلا " التلاد قديم الملك وهو بخلاف الطارف" ^٤ وفسر مقصد ابن مسعود

* هو عبد الله بن مسعود ويكنى بأبي عبدالرحمن، أمه أم عبد ، صحابي أسلم قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، ويقال كان سادسا في الإسلام، هاجر إلى الحبشة الهجرتين، وشهد بدرا والمشاهد كلها، وكان صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسواكه، ونعليه، وطهوره في سفره، ولي قضاء الكوفة وبيت المال لعمر وصدر من خلافة عثمان، ثم صار إلى المدينة فمات بها سنة اثنين وثلاثين، ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وستين. انظر جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي ، صفة الصفوة ١/٣٩٥، تحقيق محمود فاخوري، محمد رواس قلعه جي، دار الوعي، حلب، ط، ١٩٩٦م

** هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله، حبر الإسلام، الحافظ لحديث رسول الله، ولد عام أربعة وتسعين ومائة، وتوفي عام ستة وخمسين ومائتين، نشأ يتيما وقام برحلة طويلة في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، سمع نحو ألف شيخ، وجمع نحو ست مئة ألف حديث. انظر: الأعلام ٣٤/٦.

(١) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الحديث رقم: ٤٧٠٨ / ٨ / ٢٥٩، تحقيق عبدالعزيز عبدالله الباز، محمد فؤاد عبدالباقي، دار التقوى، مكتبة العلم ، مصر، ب. ت.

(٢) فتح الباري ، الحديث رقم: ٤٧٣٩ / ٨ / ٣١١

(٣) فتح الباري ، ٨ / ٢٦٠

(٤) السابق

بهذا القول بأن هذه السور هي " أول ما تعلم من القرآن وأن لهن فضلا لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم"^١.

ولم يصف أحد من الصحابة سورا أخرى في القرآن الكريم بالعنقا الأول إلا لهذه المجموعة من السور^٢، وقد اخترنا دراسة ثلاث السور الأولى (الكهف والإسراء ومريم) وقوفا عند الرواية الأولى من الحديث، ومراعاة لظروف البحث الذي سوف يطول في حال تطبيقه على خمس سور.

وفي إطار دراستنا للسور فإننا سنهتم بدراستها بنية متكاملة يبرز من خلالها الجمال البياني الكامن فيها، والذي " لا يكون في المفردات، ولكن في المركبات، وهو في المركبات يتمثل في علاقات المفردات فيما بينها، وعلاقتها بالكل"^٣، وتبرز من خلالها أيضا العلاقات الرابطة بين السور، إذ " ليس المهم في البنية هو "العنصر" أو "الكل" (الذي يفرض نفسه على العناصر باعتباره كذلك)، وإنما المهم هو "العلاقات" القائمة بين العناصر، أعني التأليف أو (التكوين)، على اعتبار أن "الكل" ليس إلا الناتج المترتب على تلك "العلاقات" أو "النسق" نفسه أو "المنظومة" نفسها"^٤، وحيث إن فهم العلاقات والروابط الجامعة لموضوعات أي نص "يخرجها عن وصف الانعزال، كما تخرج المجموعة التي تدخل فيها عن وصف الجمود"^٥ فإن دراستنا للتناسب بين موضوعات سور العنقا الأول يعطي موضوعات كل سورة أهمية يتضح من خلالها عناصر الموضوعات وسماتها الخاصة وعلاقة جزئيات كل موضوع بالموضوع الآخر كي تتشكل رؤية

(١) السابق

(٢) أ.ي. وينسك وي. ب.. منسج، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ١٢٨/٤، مادة (عق) مطبعة بريل في مدينة ليدن، ب. ت.

(٣) عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، ص ٢٠٢، دار الفكر العربي، ٢٠٠٠م.

(٤) زكريا إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، ب. ت.

(٥) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ١٦٧، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٨م.

للبنية الدلالية الواحدة للسور " والبنية الدلالية تتكون من النسيج كله ، فلو لم تكن هناك علاقة واضحة بين الأجزاء والمجموع لما تكون هذا المجموع ، ومناقشة معنى كلمة أو جملة دون ربطها بسياقها في الفقرة أو القطعة أو الفصل أو القول كله تقود إلى أخطاء متتالية في الفهم والتفسير"^١ ، وهي نتيجة لا تستقيم مع ما نريد الوصول إليه من دراسة التناسب.

وكي نصل إلى نوع العلاقات بين الموضوعات ، فإننا يجب أن نبحث عن إمكانات المقاربة بين هذه الموضوعات نفسها ، ومدى اشتراكها في خصائص نوعية تخلق التناسب فيما بينها ، وعلى الرغم من اختلاف مستويات التقارب بين الموضوعات ، فغالبا ما " يتعارف الناس على التقريب بين موضوعات تبدو فيما بينها سمات مشتركة ، نفترض أنها متجاوزة جدا في الوجود. نعتبر هذا النوع من الربط مشابهة عرفية ، إلا أن المبدعين يستطيعون بفعل كثافة المشابهة لديهم الربط بين موضوعات ووضعيات قد تبدو غير متجانسة"^٢ ، أو تبدو العلاقات بينها خفية ، مما يحتم على الباحث استخدام أكثر من أداة لغوية وبيانية/معنوية للوصول نوع العلاقات بين موضوعات السور ، ومن ثم الوصول إلى البنية الدلالية الواحدة المتجانسة التي يتحقق من خلالها التناسب.

(١) صلاح فضل ، علم الأسلوب ، مبادئه وإجراءاته ، ص ١٠٥ ، دار الشروق ، ط ١ ، ١٩٩٨ م.

(٢) عبد الإله سليم ، بنيات المشابهة في اللغة العربية مقاربة معرفية ، ص ١٢٦ ، دار توبقال للنشر ، ط ١ ، ٢٠٠١ م.

المبحث الأول:

تناسب بني سور الحقائق الأول

سورة الإسراء

أولاً بنية السورة.

ثانياً: قضايا السورة وموضوعاتها.

ثالثاً: وسائل الربط بين موضوعات السورة.

أولاً: بنية السورة:

تتميز بنية سورة الإسراء بالتشعب في موضوعاتها ، مما يوحي بأن السورة تكرر بين الحين والآخر مجموعة من الموضوعات تعود على ذكرها بأساليب مختلفة.

والحقيقة أن بنية السورة تقوم على معالجة ثلاث قضايا^١ رئيسية هي: المعجزة ، التوحيد ، هلاك الأمم ، وقد صرّفت السورة هذه القضايا في موضوعات متعددة تشعبت تفاصيلها وتداخلت أجزاؤها فيما بينها مما أكسب السورة بنية مترابطة عالية السبك.

ويعد تشعب قضايا السورة أحد العوامل التي أثّرت موضوعات السورة وأغنتها ، بل شددت أجزاء الموضوعات المتفرقة عبر السورة لتصهرها في مضمون واحد فـ" مع هذا التشعب فإن النص غالباً ما يبقى فيه خيط رابط بين أجزائه ، إذ السيرة التأويلية ليست إلا تعقيدا للنواة وتفصيلاً لمجملها وتوضيحاً لها مما يضمن مدار حديث وحيد ، أي أن تلك التشعيبات ليست إلا أغصاناً لشجرة وحيدة"^٢؛ مما يجعل

(^١) القضية هي: "آية أو أكثر فيها وحدة موضوع، تظهر مجموع الآيات على أنها قسم ذو كيان متسق، يندرج مع بقية الأقسام في السورة الواحدة ، ويرتبط معها بروابط، ويتناسب معها تناسباً يتفاعل فيه المعنى واللفظ" انظر: محمد الكوازي، أسلوب التعقيب في القرآن الكريم ، ص ٨٣ ، منشورات جامعة السابغ من إبريل، الزاوية، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى ، ط ١ ، ١٤٢٥هـ

(^٢) قال الرّماني "التصريف تصريف المعاني المختلفة كتصريفه في الدلالات المختلفة ، وهو عقدها به على جهة التعاقب، فتصريف المعنى في المعاني كتصريف الأصل في الاشتقاق في المعاني المختلفة ، وهو عقدها به على جهة المعاقبة ، كتصريف الملك في معاني الصفات ، فصرف في معنى مالك، وملك وذو الملكوت، والملوك ، وفي معنى التملك ، والتمالك ، والإملاك، والتملك ، والملوك ... " ثم يضرب مثلاً لتصريف المعاني في القرآن " أما تصريف المعنى في الدلالات المختلفة فقد جاء في القرآن في غير قصة ، منها قصة موسى عليه السلام ، ذكرت في سورة الأعراف وفي طه والشعراء ، وغيرها لوجوه من الحكمة....." انظر النكت في إعجاز القرآن الكريم، الرّماني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، مطبعة دار المعارف، مصر، ب.ت.

(^٣) محمد مفتاح، مجهول البيان ، ص ٥٩ ، دار توبقال للنشر، المغرب، ط ١ ، ١٩٩٠م.

القضايا التي تعالجها السورة تلتقي وتتقاطع عند الموضوعات نفسها ، بحيث يعالج الموضوع الواحد في أكثر من قضية محورية في السورة.

إن النص " كم منظم من القضايا التي تترابط من خلال علاقات منطقية - دلالية - استنادا إلى الأساس الموضوعي للنص " ^١ ، لذلك فإن تشعب موضوعات سورة الإسراء ، والتقاءها في قضايا محورية ناشئ عن البنية الموضوعية للسورة والمتمثلة في احتوائها على كم محدود من القضايا ، يتشعب إلى عدد من الموضوعات ، ربطت جميعها بأساليب لغوية وبيانية متنوعة عملت على خلق تناسب فريد بين أجزاء السورة ، جعلها تبدو في تعدد أجزائها وتنوعها كلا واحدا متكاملا ، يبدو في (تكامله) موضوعا واحدا متماسكا منصهرة أجزاؤه في سبك رصين ، ويبدو في تعدد أجزائه موضوعات متكاملة قائمة بذاتها.

ومن هذا المنطلق فإننا سوف نسلط الضوء وافرا على الوسيلة التشعبية التي انتهجتها السورة في شد وثاق موضوعاتها ، وسنركز على بعض الوسائل اللغوية والأسلوبية التي استمدت منها السورة بنياتها الترابطية شديدة التناسب التي يصعب معها فصل موضوعاتها ، أو تناول كل منها على حدة بمنأى عما تداخل فيها من القضايا والموضوعات الأخرى.

ثانيا : قضايا السورة وموضوعاتها:

سبق أن بينا أن السورة تتناول قضايا ثلاثا هي:

١- المعجزة ٢- التوحيد ٣- هلاك الأمم.

^١ (فولفجانج هاينه مان وديتر فيهفجر ، مدخل إلى علم لغة النص ، ترجمة سعيد حسن بحيري ، ص ٤٣ ، مكتبة زهراء الشرق الأوسط ، ط١ ، ٢٠٠٤ م .

وكما بينا أن هذه القضايا تشعبت في موضوعات عدة ، سنوضحها حسب الترتيب الذي وردت عليه في السورة.

١. حادثة الإسراء .
٢. مشهد من قصة بني إسرائيل.
٣. التشريعات والأخلاق التي احتواها القرءان.
٤. مشهد من قصة آدم وإبليس : يتضمن توعده إبليس لآدم وذريته.
٥. جدال المشركين حول قضيتي القرءان والبعث.
٦. بعض قضايا التوحيد مثل رفض الشرك ، والتوكل على الله.
٧. مشهد من قصة موسى وفرعون : يتضح فيه جحود فرعون معجزات موسى.

وكي نلم بأكبر قدر من التناسب في السورة سوف نعرض القضايا التي تناولتها السورة والموضوعات التي عالجت هذه القضايا .

١ : قضية المعجزة:

المعجزة " أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدعي النبوة ، مع تحدي قومه بها ، ومع عجز قومه عن معارضته بمثلها على وجه يدل على صدقه في زمان التكليف" ^١، وعلى الرغم من تعدد معجزات الأنبياء واختلافها غير أنها جميعا تميزت بالطابع الحسي ، الذي جعلها محدودة الزمان والمكان ، واقتصرت تأثيرها على الأقوام الذين شهدوها ، في حين تميز القرءان الكريم بأنه معجزة خالدة تجاوزت حدود الزمان والمكان ، وظل التحدي به قائما للإنس والجن حتى قيام الساعة . "لقد جعل الله خطابه القرءاني يستوعب الإنسانية قاطبة دونما استثناء زمانا أو مكانا ، حضارة أو عرقا ، وهذا الاستيعاب القرءاني لأفراد النوع الإنساني أجمعين قد تجلى بتميز الخطاب القرءاني لكل ما من شأنه أن يؤمن

^١ (عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٣٤٤ ، دار المعرفة ، بيروت ، ب ت .

لهذا القراءان مخاطبة الإنسان أينما كان وفي كل آن^١، بما يخدم مقاصد الرسالة الخاتمة، وبما يحفظ لها أهم ما تميزت به عن باقي الرسالات السماوية السابقة وهو الشمولية والخلود.

ولم يكن القراءان المعجزة الوحيدة التي أوتيها النبي محمد صلى الله عليه وسلم " فلقد كانت المعجزات المادية تترى على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورآها المشركون رأي العين فهل آمنوا بها؟ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج... بالرغم من أنهم أقسموا لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها"^٢ وعلى الرغم مما رآه المشركون من معجزات مادية فإنهم ما فتئوا يطالبون النبي بمعجزات حسية من جنس ما نزل على الأمم السابقة يثبت بها نبوته، وكانوا في كل مرة ينكرون ما يرون، ويجحدون بكل ما يأتيهم، فدخلوا بذلك معه في جدال طويل عقيم، أنكروا فيه القراءان، وجحدوا أن يكون وحيا من عند الله " فلما عجزوا عن أن يأتوا بسورة تشبه القراءان على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، قال : { قل لئن اجتمعت الإنس والجن...} فقد ثبت أنه تحداهم به، وأنهم لم يأتوا بمثله لعجزهم عنه، لأنهم لو قدروا على ذلك لفعلوا ولما عدلوا إلى العناد تارة والاستهزاء أخرى ، فتارة قالوا "سحر" ، وتارة قالوا " شعر" ، وتارة قالوا " أساطير الأولين " كل ذلك من التحير والانقطاع"^٣ أمام صدق القراءان وعظمة إعجازه لهم ولمن جاء بعدهم.

وقضية المعجزة تناولتها سورة الإسراء في عدة موضوعات هي:

١. حادثة الإسراء .

٢. مشهد من قصة بني إسرائيل.

^١ (جمال نصار حسين، الخطاب القراءاني ولغة العصر، الحداثة، العدد ٢٧، ٢٨، س ٤، ١٩٩٧م.

^٢ (جمعة أمين عبد العزيز ، منهج القراءان في عرض عقيدة الإسلام، ص ١١٣ ، دار الدعوة ، مصر، ط٢ ، ١٩٩٢م

^٣ (البرهان في علوم القراءان، ١٠٢/٢

٣. التشريعات التي احتواها القرآن

٤. جدال المشركين حول قضيتي القرآن والبعث

٥. مشهد من قصة موسى وفرعون : يتضح فيه جحود فرعون معجزات

موسى.

وكي يتجلى لنا التناسب في ترتيب موضوعات السورة، سوف نعرض بعض الموضوعات التي تناولت قضية المعجزة والتي وردت متتالية في السورة في صورة مترابطة. وهذه الموضوعات هي:

١. حادثة الإسراء .

٢. مشهد من قصة بني إسرائيل.

٣. التشريعات التي احتواها القرآن.

وقد تناسبت الموضوعات السابقة، وقام الترتيب فيها على أساس بناء أسلوبى استند إلى الموازنات ، فثلاث الموضوعات تتناسب بناء على الموازنة بينها، وهي متناسبة مع باقي الموضوعات بناء على موازنة المواقف منها، ويمكن توضيح هذه التوازنات بالآتي:

ل الموازنة الثلاثية، ومفهوم المعجزة.

وازنات السورة بين ثلاثة الموضوعات هذه انطلاقاً من كونها تتناول معجزة حسية ، وكتابين سماويين.

فالإسراء من المعجزات الحسية التي آتاها الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، ولقد تمثلت فيها بعض خصائص الرسالة المحمدية فمسرى النبي من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس لم يكن إلا " رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إلى محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وتربط بين

الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعا ، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتغال رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعا ، في رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ، وتشمل آمادا وأفاقا أوسع من الزمان والمكان^١ ، وبذلك تشير السورة منذ مطلعها إلى شمولية هذه الرسالة من خلال دلالة معجزة الإسراء ، وتجاوزها حدود الزمان والمكان والأشخاص.

ومع وجود تلك الإشارات تظل حادثة الإسراء في معظم أوجهها معجزة حسية تتسم بطابع المحدودية في الزمان ، وفي المكان ، وفي تأثيرها المباشر على من شهدا من أهل قريش وانتهى تأثيرها بانقضاء زمانها.

وبانتقال السورة لعرض مشهد من قصة بني إسرائيل تتطرق الآيات فيه إلى ذكر التوراة ، فالآيات تنتقل لأحد متلازمات الدعوة ، حيث تقوم دعوة الأنبياء غالبا على المعجزات وعلى الكتب ، فعلى الرغم من المعجزات العديدة التي أوتيتها موسى عليه السلام ، والتي ستشير لها السورة لاحقا ، فإن الله تعالى قد أنزل عليه أيضا التوراة ، وبهذا يكون الالتفات في بداية الآية الثانية - وهو الالتفات الثاني - قائما على التحول في مسار موضوع واحد هو متلازمات دعوة الأنبياء ، بحيث " يتوالى في سياق أو نسق كلامي واحد عنصران متماثلان وظيفيا أو معنويا وينحرف الثاني منهما عن الأول في نمط الأداء"^٢. والوظيفة التي يؤديها الالتفات هنا هي الموازنة بين المعجزة الحسية (الإسراء) التي ذكرت في الآية الأولى من السورة ، والكتاب السماوي الذي نزل على بني إسرائيل وهو التوراة التي ذكرت في الآية الثانية.

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٢٢١٢ ، دار العلم للطباعة والنشر ، الرياض ، ط ١٢ ، ١٩٨٦ م.

(٢) حسن طبل ، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، ٤٢ ، دار الفكر العربي ، ١٩٩٨ م.

وتظهر في الموازنة التقاء الموضوعين في المحدودية ، فالتوراة نزلت على نبي الله موسى عليه السلام هدى لبني إسرائيل { وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ... } وجاءت توجيهاتها لهم فحسب، والإسراء كانت محدودة باقتصار أثرها على من شهدها.

وبانتقال السورة في الشوط الثالث للحديث عن القرآن الكريم وما اشتمل عليه من تشريعات وأحكام، فإنها بذلك تنشئ موازنة ثالثة يتضح فيها اختلاف القرآن عن المعجزات الحسية وعما سبق من الكتب السماوية ، فالقرآن نزل من أجل " تصحيح ما وقع من تحريف أهل الكتاب في رسالة الله السابقة، وبالأخص من بني إسرائيل في التوراة والإنجيل معا " ، فيشمل القرآن بناءً على هذا التصحيح صلاح الدنيا والآخرة ، حيث أنزله الله تعالى للناس كافة ، وفق معايير واحدة وثابتة { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا }^(١) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }^(٢) ، وعملا بالشرائع التي احتواها القرآن فإنه يكفل للبشرية الأمان والاستقرار ، وحفظ النفس والمال والعرض ، والسعادة في الدنيا والصلاح في الآخرة.

وبالعودة إلى قضية المعجزة والموازنات التي أوردتها السورة (بين معجزة الإسراء، والتوراة، والقرآن الكريم) فإن ما سبق تأسيس لأصل من أصول الدعوة المحمدية التي لا تركز إلى المعجزات الحسية ؛لذلك ف" الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لم يتخذ من الواقعة معجزة لتصديق رسالته ، مع إلحاح القوم على طلب الخوارق - وقد قامت البيئة عندهم على صدق الإسراء على الأقل - ذلك أن هذه الدعوة لا تعتمد على الخوارق، إنما تعتمد على الفطرة القويمة ، والمتفقة

(١) محمد البهي ، نحو القرآن ، ٨٢ ، مكتبة وهبة ، مصر ، ط١ ، ١٩٨٦م.

مع المدارك بعد تصحيحها وتقويمها ، فلم يكن جهر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالواقعة ناشئاً عن اعتماده عليها في شيء من رسالته. إنما جهر بالحقيقة لمجرد أنها حقيقة " ، وبذلك ترجح الآيات كفة القرآن الكريم كمعجزة عجز المشركون عن تحديها وإبطالها ، وتعلي من شأن تشريعاته التي فيها صلاح يعم بنفعه البشرية جمعاء ، في قيمته الإصلاحية التي تعم بنفعها البشرية جمعاء.

ب - موازنة المواقف:

على الرغم مما ثبت للمشركين من صدق معجزة الإسراء ، فإنهم أنكروها بل إن بعض من أسلم حديثاً ارتد ارتياباً من هذه الحادثة ، يروي ابن هشام^٢ في سيرته نقلاً عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن عاد من رحلة الإسراء ، انصرف إلى مكة " فلما أصبح غداً على قريش فأخبرهم الخبر. فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البين ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة ١٩ قال: فارتد كثير ممن كان أسلم...."^٣ ، وبذلك توضح الآيات تناقض المشركين وسعيهم للجدال عناداً منهم ومكابرة ، حيث أنكروا التصديق بالإسراء على الرغم من إثبات النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالبراهين القاطعة صدق مسراه ، ورفضوا الاعتراف بالقرءان على الرغم من عجزهم عن الإتيان بمثله { قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } ، ومع استمرار المشركين في إنكار ما رأوا من المعجزات

^١ (في ظلال القرآن ٤ / ٢٢١١ .

^٢ (هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، ت (٢١٣) مؤرخ ، كان عالماً بالأنساب واللغة وأخبار العرب ، ولد ونشأ بالبصرة ، وتوفي بمصر ، أشهر كتبه " السيرة النبوية " ، " القصائد الحميرية " ، " التيجان في ملوك حمير " ، انظر : الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، خير الدين الزركلي ، ١٦٦/٤ ، دار العلم للملايين ، ط ١٤ ، ١٩٩٩ م .

^٣ (ابن هشام المعافري ، السيرة النبوية ، تحقيق جمال ثابت ، محمد محمود ، سيد إبراهيم ، ٢٨٧/٢ ، دار الحديث القاهرة ، ٢٠٠٤ م

وتكذيبها، فإنهم ظلوا يطالبون النبي بمعجزات حسية أخرى { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا }^(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحْتِهَا نَاقُاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا فَتَجِيرًا }^(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَالًا }^(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُوقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا }^(٩٣)، وقد عرضت الآيات مطالب المشركين بأسلوب يثير السخرية منهم لأن مطالبهم تمثل اتجاهات ثلاثة يميل إليها الإنسان من طبعه، ويندفع نحوها إذ لم يأخذ بهداية الله، وهي: اتباع الهوى ... والميل إلى الشح... والركون إلى المحسوس أو المشاهد وحده. وثلاثتها تكون ظواهر اتجاه الجانب المادي في الإنسان وتحدد مظاهر الأنانية فيه "فمعاندو المشركين لم يصدقوا بالقرآن ولا بالإسراء، فليست مطالبتهم بمعجزات أخرى إلا من باب المكابرة، والجحود، "إن العناد ملك قلوبهم، وليس الكفر عرضا سريعا يمر ببعض الناس، إنه مزيج من الحسد والغباء، والطمع والأثرة، والبعد عن الكفر يتطلب عقلا واعيا وحكما عادلا، وخلقاً زكيا"^٢، وكلها أمور تقود صاحبها إلى الاستسلام إلى ما يرى من آيات الله الشاهدة على صدق الرسالة.

وتعرض الآيات مشهدا من قصة موسى عليه السلام وفرعون توازن فيه موقف المشركين المعاند لما جاءهم من الحق، بموقف فرعون الذي أنكر هو الآخر ما شهد من الحق فقد شهد فرعون تسع معجزات آتاهها الله موسى عليه السلام، لكن فرعون كفر بها واتهم موسى بالسحر { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْنَبَىٰ فِرْعَوْنُ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا }^(١٠١)، وهو موقف مماثل لموقف المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم حيث اتهموه هو الآخر

^(١) نحو القرآن، ص ٤٨.

^(٢) محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص ٢٢٩، دار الشروق، ط ٨، ٢٠٠٥ م

بالسحر} نُحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ
الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ .

وتختتم السورة الحديث عن القرءان بالتأكيد على صدقه ، وبيان وظيفته التي
لأجلها نزل { وَيَالْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾ } والآيات جاءت
مؤكددة لما بدأت به السورة من أن القرءان نزل مبشرا ومنذرا { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ
يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا
﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ } .

كذلك اختتمت بالتأكيد أن العقلاء من بني إسرائيل ممن أوتوا العلم قبل
نزول القرءان يعترفون بأنه حق وأنه نزل من عند الله تعالى ، ويخشعون لما يسمعون
من آياته { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ
يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا
﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَنكُورُونَ وَيزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ } ، والآيات بذلك تلمز
المشركين لما يبدونه من عناد وكبر بالباطل.

وبذلك تكون سورة الإسراء قد تناولت محور المعجزة بترجيحها القرءان
الكريم على كل المعجزات " باعتباره "نصا" و" خطابا" و"رسالة" أرادت به العناية
الإلهية قضاء أمر في الناس نقله الكلام إليهم وكان بالإمكان أن ينهض بأعباء
هذه المهمة غير الكلام من أساليب الإقناع المادية من ترهيب وتعجيز ، ففعل
الكلام في المكان والزمان والأنفس ما لا تفعله الخوارق^١ ؛ وذلك لعموميته جميع

^١ (الهادي الجطلاوي، قضايا اللغة في كتب التفسير: المنهج، التأويل ، الإعجاز، ص ١٩٥ ، دار محمد علي
الحامي، تونس، ط١ ، ١٩٩٨ م.

البشر في كل زمان ومكان، ولشموليته كل ما فيه خير لهم في الدنيا وفلاح في الآخرة، كما عرضت السورة محاجة المشركين في القرآن، ومطالبهم بالمعجزات الحسية على الرغم من إنكارهم معجزة الإسراء، وهم بذلك ليسوا إلا أشباه لمن سبقهم من المشركين.

٢: التوحيد:

تناولت السورة موضوع التوحيد بشقيه (توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية)، وقد ميز العلماء بين الموضوعين بأن توحيد الألوهية "يتضمن فعل المأمور وترك المحظور"^١ أما توحيد الربوبية فهو "عبادة الله وحده لا شريك له، وألا نعبد إلا بما أحبه وما رضى به. وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله صلى الله عليهم وسلم، فهو متضمن لطاعته وطاعة رسله، وموالاته وأوليائه، ومعاداة أعدائه..."^٢، وتوحيد الربوبية يقضي "أنه سبحانه الذي يُسأل، ويُدعى، ويُتوكل عليه"^٣، ومعنى ذلك "أن الألوهية تمثل علاقة الإنسان بالله تعالى، في حين تحدد الربوبية علاقة الله تعالى بالإنسان"^٤

و القرآن كله نزل في توحيد الله "إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن: إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل

^(١) ابن تيمية، الحسنة والسيئة، ص ٢٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ب.ت.

^(٢) المرجع السابق ص ١٢٧

^(٣) المرجع السابق ١٢٦

^(٤) عدنان محمد زرزور، في الفكر والثقافة الإسلامية المدخل والأساس العقائدي، ص ١١٤، المكتب الإسلامي، ط ٤، ١٩٩١م.

توحيده وطاعته ، وما فعل بهم في الدنيا ، وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبي من العذاب ، فهو خبر عن خرج عن حكم التوحيد ^١ فأيات القرآن تناولت جوانب كثيرة من جوانب التوحيد .

ومن الموضوعات التي تناولت قضية التوحيد :

١. الإشارة إلى التوكل في المشهد الأول من قصة موسى.
٢. التشريعات التي احتواها القرآن.
٣. مشهد من قصة آدم وإبليس: يتضمن توعده إبليس لآدم وذريته.
٤. جدال المشركين حول قضيتي القرآن والبعث.
٥. آيات التعقيب بين الموضوعات.

ويجمع موضوعات التوحيد في السورة مبحثان هما: نفي الشريك ، والتوكل على الله ، وتتبعهما نستطيع الوصول إلى الروابط العميقة لموضوعات السورة المتعلقة بموضوعات العقيدة.

أ- : نفي الشريك:

جمع مبحث نفي الشريك عن الله سبحانه وتعالى الكثير من موضوعات السورة ، فالآيات تبين أن الشرك سبب في الخسارة الدنيوية والندامة: { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا } ^{٣٢} ، وتبين أيضا أن الشرك سبب في دخول النيران يوم القيامة { وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا } ^{٣٩} ومن ثم تبين أن أول تشريعات القرآن هي توحيد الله تعالى

^١ (ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ٣ / ٢٥٣ ، تحقيق عماد عمار ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الْيَدَيْنِ إِحْسَانًا ...} {٣٣} ، وبعد سرد الشرائع القرآنية التي تضبط نظام حياة الفرد والجماعة تعود الآيات لتكرار الحديث عن توحيد الله {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا} {٣٩} .

وتطرقت الآيات إلى شكل من أشكال الشرك عند العرب، وهو الاعتقاد أن الملائكة بنات الله، فمشركو العرب " امتد اعتقادهم إلى ما فوق الطبيعة فعبدوا الجن والملائكة " وزعموا أن الملائكة بنات الله - عز وجل - {أَفَأَصْنَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} {٤٠} .

كما تبين الآيات أن من أسباب نفور المشركين من القرآن الكريم هو ما يوجه إليه من توحيد الله {وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتِ رَبُّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَىٰ أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا} {٤٦} ، وأخيرا تختم السورة بحمد الله تعالى على انتفاء الولد والشريك والولي من ذاته الشريفة {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلَىٰ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا} {١١١} {لأن في تفرد سبحانه، وحدانيته واستغناؤه عن الولد والولي تتجلى عظيم قدرته.

ب- : التوكل على الله:

التوكل على الله من أبواب توحيد الربوبية، فهو يقتضي الاعتقاد بأن "لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمتفرد بابتداعه واختراعه هو الله عز وجل لا

^(١) محمد الخطيب، الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية، ص ٨٤، دار علاء الدين، ط ١، ٢٠٠٤م.

شريك له "١"، كما يقتضي أن الله تعالى هو مسبب الأسباب كلها " فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده ، فهو الذي سبب الأسباب ، وجعل فيها القوى الاقتضاء لآثارها ، ولم يجعل منها سببا يقتضي وحده أثره: بل لا بد معه من سبب آخر يشاركه. وجعل لها أسبابا تضادها وتمانعها ، بخلاف مشيئته سبحانه ، فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر، ولا في الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها ... فلا يصح التوكل إلا على الله ولا الالتجاء إلا إليه، ولا الخوف إلا منه ، ولا الرجاء إلا له ، ولا الطمع إلا في رحمته "٢ وقد عالجت السور هذا المقصد في عدة آيات .

فالدعوة إلى التوكل على الله ، دعوة قديمة ، تضمنتها الكتب السماوية السابقة كالتوراة، فمن وصايا التوراة أمر بني إسرائيل بالتوكل على الله {وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا} ٢ أي "ربا يكلون أمورهم إليه ويعتمدون عليه من صنم ولا غيره، لتقريب إليه بشفاعة ولا غيرها، منبها بذكر الوكالة على سفه آرائهم من ترك ما يكفي من كل شيء، إلى ما لا كفاية عنده من شيء" ٣. ومن يتخذ من بنى إسرائيل وغيرهم من الأمم أحدا غير الله يلجؤون إليه في الرزق أو العطاء أو يتقربون إليه طلبا في الشفاعة يوم القيامة فلن يكفيه ما أشرك به شيئا {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُم وَلَا تَحْوِيلًا} ٥١، وقد بين ابن تيمية* خسران من توكل على غير الله، قائلا: " فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ولا خالق ولا رازق إلا هو فلماذا يعبدون غيره معه وليس له عليهم خلق ولا

١ (أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ٣٠٩/٤ ، تحقيق: سيد عمران، دار الحديث، دار الشروق، ط٨، ٢٠٠٥م.

٢ (مدارج السالكين، ٣/ ٣٩٢.

٣ (نظم الدرر ٤/ ٣٣٤.

* هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي، ولد عام ٦٦١هـ ، في حران، وتوفي عام ٧٢٨هـ، في دمشق، من أشهر كتبه: " السياسة الشرعية " ، " الفتاوى " ، " درء تعارض النقل والعقل " ، " منهاج السنة النبوية " ، انظر: الأعلام للزركلي، ١/ ١٤٤.

رزق ولا بيده منع ولا عطاء بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فإن قالوا ليشفع فقد قال الله : { من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه } ، فلا يشفع من له شفاعه من الملائكة والنبين إلا بإذنه ^١

وبينت الآيات أن التوكل على الله يحمي من فتنة إبليس ومكائده { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } ^{١٥} ، ومن مكائد الشيطان صرف الناس عن التوكل على الله والاعتماد على الأسباب ، ويضرب الله مثلا لذلك حاجة الإنسان إلى ربه ولجوئه وتضرعه له وحده فترسم الآيات مشهدا لإنسان يضل في البحر فلا يتذكر إلا الله يدعو ويتوكل عليه في محنته { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } ^{١١} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ^{١٧} أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ^{١٨} أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا } ^{٢١} ، فالآيات توضح تسخير الله تعالى الفلك للإنسان سببا لركوب البحر ، وتوضح تسخيره تعالى البحر للإنسان سببا للرزق ، وبعد مشهد الضر والتضرع والنجاة التي قد يتعرض لها الإنسان في البحر ، توضح الآيات تسخيره تعالى للرياح سببا للفرق ، ويربط أبو حامد الغزالي ^٢ بين الهلاك في البحر والتوكل على الله بأن من أسباب صرف الشيطان الناس عن التوكل " الالتفات للجمادات ... كاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم في نزول المطر ، وعلى البرد في اجتماع الغيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها :

^١ (الحسنه والسيئة ، ابن تيمية ، ١٢٨-١٢٩)

^٢ (هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، فيلسوف متصوف ، ولد عام ٤٥٠ هـ في لطابران بخراسان (قصبة طوس ، بخراسان) وتوفي فيها عام ٥٠٥ هـ ، من كتبه : " إحياء علوم الدين " ، " تهافت الفلاسفة " ، " الاقتصاد في الاعتقاد " ، " مقاصد الفلاسفة " . انظر : الأعلام للزركلي ، ٢٢/٧ .

وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور... ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء ، والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك ، وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ، ولا هو متحرك في نفسه عز وجل^١ ، فالله تعالى هو خالق الأسباب ومسببها ، وعليه المعول في أوائل الأمور وخواتيمها.

وبذلك نجد أن قضية التوحيد قد ربطت العديد من الموضوعات برباط وثيق ، قائم على أساس علاقة التوحيد مع جميع موضوعات السورة.

٢- هلاك الأمم:

ربطت الآيات بين قضية هلاك الأمم وكثير من موضوعات السورة ، فمن الموضوعات التي ربطتها قضية هلاك الأمم :

١. قصص موسى الواردة في السورة .
٢. نزوع المشركين نحو المعجزات الحسية
٣. موضوع البعث.
٤. جدال المشركين .

تعد قصة بني إسرائيل الواردة أولا في السورة هي القصة النواة لقضية إهلاك الأمم ، والتي تقوم على نسقها جميع آيات الهلاك وقصصه ، حيث تقوم موضوعات السورة المرتبطة بهذه القضية بإحكام عناصر " صوتية ومعجمية وتركيبية ومعنوية

^(١) (إحياء علوم الدين ، ٤ / ٣٠٩ ، ٣١٠)

وتداولية ضمانا لانسجام الرسالة ^١ بتطوير هذه القضية لتؤسس لقاعدة مفادها "أنه إنما يهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم" ^٢ ويتبع الهلاك في الدنيا عقاب النار يوم القيامة لما أتى به أولئك الأقوام من إنكار للرسالات وجحود بالآيات، ونجد هذه القاعدة تتكرر في ذكر الآيات لقصة ناقة ثمود حيث إنهم كفروا بهذه الآية التي نزلت عليهم من الله، فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله تعالى { وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } ^{١٤}، وتتكرر القاعدة في قصة موسى وفرعون، فجحود فرعون بآيات موسى كان نتيجة إهلاك فرعون وقومه، وهذا وعيد من الله لكل من كذب بالرسل وجحد بالرسالات.

أما ارتباط هذه القضية بموضوع البعث فإننا نجد أن آيات البعث اتخذت سرد قصص هلاك الأمم وسيلة من الوسائل التي اتخذها القرآن لإثبات البعث، فالأمم السابقة وما اقترفته من معاصي وآثام نتج عنها عقاب الله تعالى، سوف ترجع إلى الله تعالى ويحاسبها على ما كسبت، ويدلل على ذلك اقتران آيات إهلاك الأمم بآيات الحساب والعذاب { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } ^{١٧} مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ^{١٨} وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ^{١٩}، فهذه الآيات تؤكد ما ما ذهبنا إليه في الفقرة السابقة أن الآيات في قضية هلاك الأمم في هذه السورة ترتبط بالبعث.

^١ (محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، ص ٢٥، المركز الثقافى العربى، ط٤،

٢٠٠٥م.

^٢ (التفسير الكبير، ٢٢/١٤٥.

ومن هذا القبيل ربطت الآيات موضوع البعث بجدال المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم في قضية القرآن ، فمن أسباب إعراض المشركين عن اتباع ما جاء في القرآن - فضلا عن توجيه القرآن لتوحيد الله - هو إشارته للبعث والآخرة {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مًسْتُورًا ﴿٤٥﴾} ، ومن الأمور التي جادل فيها المشركون النبي صلى الله عليه وسلم ، بعثهم بعد موتهم {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٦﴾} قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾} حيث إن البعث من الحقائق التي لا تستوعبها عقول المشركين فهم يؤمنون أن ليس بعد الموت إلا الفناء ، ومن يأتي بحديث غير فحديثه محظ افتراء.

ثالثا : وسائل ربط موضوعات السورة :

في الجزء السابق من المبحث بينا أن السورة بنيت على ثلاث قضايا ربطت دلاليا مجموعة من الموضوعات ، ولكن " ليست الأنماط والمضامين المختلفة للقضايا وحدها مهمة للوصف الدلالي للنصوص ، بل أشكال الربط القضوي أيضا بوجه خاص ، فهي تشكل الأساس لدمج قضايا بقضايا أشمل"٢ ، وقد

(١) ميز الدكتور مصطفى حميدة بين مصطلحي الربط والارتباط فعرف الربط بأنه " اصطناع علاقة سياقية نحوية بين طرفين باستعمال أداة تدل على تلك العلاقة " وعرف الارتباط بأنه العلاقة " بين معنيين بلا واسطة لفظية ، لأنها علاقة وثيقة تشبه علاقة الشيء بنفسه ، أو تشبه علاقة صدر الكلمة الواحدة بجزءها ، فلا يحتاج المتكلم في سبيل إبرازها إلى اصطناعها بطريق الرابط اللفظي كما هو شأن الربط ، وإنما يعتمد على تداعي المعاني في العقل البشري لفهمها بمجرد الائتلاف بين المعنيين " انظر: مصطفى حميدة ، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، القاهرة ، مصر ،

ط١ ، ١٩٩٧ م

(٢) مدخل إلى علم لغة النص ، ٣٩

جمعت كتب اللغة القديمة والحديثة العديد من أشكال ربط الموضوعات اللغوية والدلالية ، منها :

١- الجامع العقلي :

وهو رابط بين موضوعين " يكون بينهما اتحاد في التصور ، أو تماثل ، فإن العقل بتجريدته المثلين عن التشخيص في الخارج يرفع التعدد بينهما أو تضافيف ، كما بين العلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، والسفل والعلو ، والأقل والأكثر ، فإن العقل يأبى إلا أن يجتمعا في الذهن " ^١ ، ويقوم التماثل والتضافيف بين الألفاظ ودلالاتها بوظيفة ربط الموضوعات عقليا عند بعض المفسرين ، ومن هذه الموضوعات : موضوع الإسراء وقصة بني إسرائيل التي تلتها ، فالزركشي يرى أن الرابط بين الموضوعين هو الإسراء فقد " أسري بمحمد إلى ربه ، كما أسري بموسى من مصر حين خرج منها خائفا يترقب " ^٢ ، في حين يربط ابن عاشور ^٣ بين إسراء محمد صلى الله عليه وسلم وتكليف موسى بالنبوة حين كان يسري بأهله ^٤ ، فكلا المفسرين جمع بين الموضوعين بناء على الموازنة بين إسراء النبيين ، وهو رابط لا يتعارض فيما ذهبنا إليه من أن الموضوعين يرتبطان على أساس الموازنة بين المعجزة الحسية (الإسراء) ، وهي الموازنة التي نراها الأكثر قدرة على الامتداد في السورة وربط موضوعاتها ، لأنها تدخل فيما بعد في موازنة ثالثة مع القرآن الكريم لتثبت أفضليته ، ثم تدخل ثلاث الموضوعات في موازنة أكبر مع مواقف الأطراف المتعددة في السورة.

^(١) الإيضاح ، القزويني ، ص ٢٨٢

^(٢) البرهان ، الزركشي ، ١ / ٦٩

^(٣) هو محمد الطاهر بن عاشور ، رئيس المالكيين بتونس ، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس ، مولده ودراسته ووفاته بها (١٨٧٩م - ١٩٧٣م) ، كان من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ، له مصنفات مطبوعة ، من أشهرها : تفسير " التحرير والتنوير " ، " مقاصد الشريعة الإسلامية " ، " أصول النظام الاجتماعي في الإسلام " ، انظر : الأعلام ، للزركلي ، ١٧٤ / ٦

^(٤) التعبير والتنوير ، ٢٤ / ١٥ / ٦

٢- فصل الموضوعات ووصلها :

ارتبطت كثير من موضوعات السورة بروابط الفصل والوصل ، فعلى سبيل المثال : فإن قوله تعالى {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} ^(١) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ^(٢) { ينفصل عن الموضوعين السابقين له - الإسراء ، والتوراة المتضمنة في قصة بني إسرائيل - ، فلا رابط عطف بينهما وذلك لأن هذه الآيات سلكت "مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه شيء فلا يكون إياه ولا مشاركا له في معنى ، بل هو شيء إن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به ، ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله ، لعدم التعلق بينه وبينه رأسا" ، فالقرءان ليس كالتوراة وليس كالإسراء ، بل هو أشمل وأعم منهما ، وهو مختلف عنها في سماته.

في حين نجد أن أكثر آيات السورة ترتبط فيما بينها بالعطف بالواو ، وهذا يستوجب "أن يكون المحدث عنه في إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه في الأخرى ، كذلك ينبغي أن يكون الخبر عن الثاني مما يجري مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر عن الأول" ^٣ ، ومثال ذلك ارتباط قصة موسى مع فرعون بقوله تعالى في الآيات السابقة {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} ^(٤) ، فالقصة جاءت معطوفة بالواو على ما سبقها { ، قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَثُورًا} ^(٥) { والقصة تضرب مثلا

^(١) (دلائل الإعجاز ، الجرجاني ، ٢٤٣)

^(٢) (دلائل الإعجاز ، ص ٢٢٥)

للمشركين على قدرة الله تعالى على خلق ما يشاء من المعجزات والآيات أكثر من التي يطالب بها المشركون نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم في الآيات [٩٠ - ٩٣] ، في حين تميزوا هم بما عهدوا في أنفسهم من الشح والقتور، وبذلك تعرض الآيات نموذجين متناقضين: الأول: لشح المشركين ، والثاني: لكثرة عطايا الله تعالى من المعجزات. كما تقدم القصة دليلاً على إهلاك الأمم الطاغية بعد أن تستوفي ما أنذرها الله وأمهلهما ، وهو ما أقرته الآيات قبلاً { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا } ، فالمشركون لا يختلفون عن فرعون في إنكارهم آيات الله وما جاءهم من الحق ، وفي ذلك نذير لهم بمثل الجزاء فتكون السورة قد طرحت ثلاثة نماذج متناظرة: النموذج الأول: المشركون بكفرهم وعنادهم وشحهم، والنموذج الثاني: فرعون وعناده، ومكابرتة، وهو نموذج فردي للتكبر والعناد، ويتوسطهما النموذج الثالث: وهو الله سبحانه وتعالى بكرمه ومنته.

٢- التكرار:

ورد التكرار في كثير من المواضع في السورة، سواء على مستوى الألفاظ أم على مستوى الآيات، فعلى مستوى تكرار الألفاظ فإن " الأصل في الربط أن يكون بإعادة اللفظ لأنها أدعى للتذكير وأقوى ضماناً للوصول إليه " ومثال ذلك تكرار لفظة (القرءان) إحدى عشرة مرة^١، وتكررت لفظة (الوحي) بمعنى القرءان ثلاث مرات وذكر بالإحالة إليه بضمير الغائب والضمير المستتر إحالة بعيدة مرتين في قوله تعالى {وَيَا حَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} بخلاف الإحالات القريبة، أي أن القرءان ذكر بما يزيد عن خمس

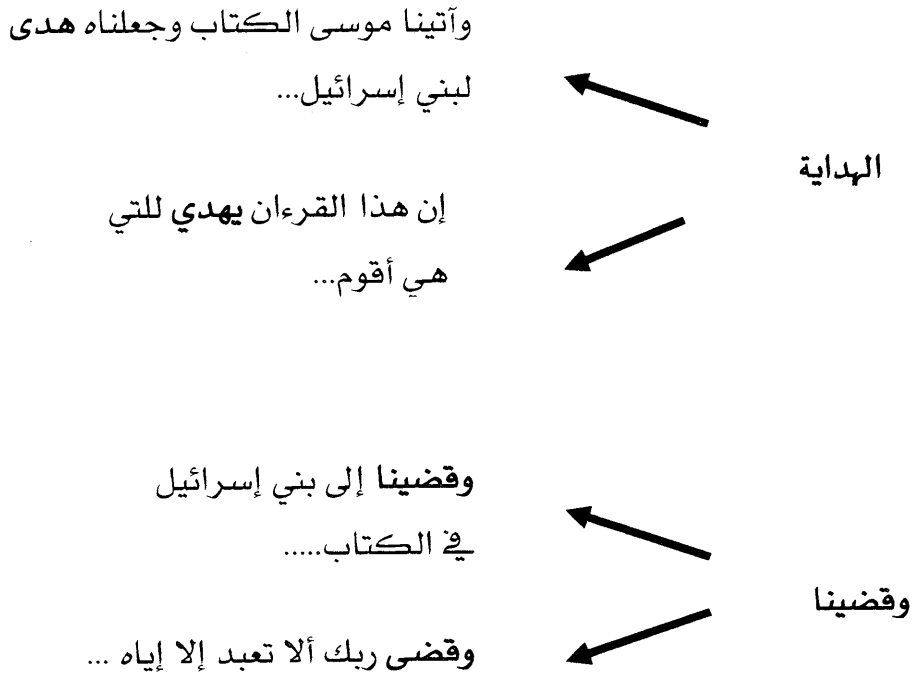
^(١) تمام حسان، البيان في روائع القرءان: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرءاني ١/ ١٢٨، عالم الكتب،

٢٠٠٠م

^(٢) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرءان الكريم، ص ٦٤٩، دار الحديث القاهرة، ٢٠٠١م.

عشرة مرة، وهذه الكثافة تدل على أن القرءان من القضايا المهمة في السورة والمتداخلة مع كثير من الموضوعات فيها " فالتكرار زيادة على كونه يؤدي وظائف دلالية معينة ، فإنه يؤدي كذلك إلى تحقيق التماسك النصي، ذلك عن طريق امتداد عنصر ما من بداية النص حتى آخره، هذا العنصر قد يكون كلمة أو جملة أو فقرة، وهذا الامتداد يربط بين عناصر النص "^١ ويحقق نوعاً من التناسب يكشف مقاصد السورة الأساسية، في أن القرءان هو المعجزة العظمى في تاريخ الرسالات.

ويمكن أن نمثل لدور التكرار في ربط الموضوعات ربطاً تركيبياً، بتكرار لفظتي (هدى، وقضينا)، حيث ربطت هاتان اللفظتان جزئيات موضوعي القرءان والتوراة بصورة أوضحت العناصر التي وازنت السورة بها، الموضوعين ويمكن توضيح ذلك في المخططين الآتيين:



^(١) صبحي إبراهيم الفقي، عالم اللغة النصي، ٢٢ / ٢، دار قباء للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٠م.

بالتالي، فإن اللفظتين استطاعتا الجمع بين موضوعين متناظرين، وربطهما بعلاقات نسقية تكررت ومن ثم مع كلتا اللفظتين.

أما على صعيد تكرار الآيات فقد تكرر إنكار المشركين للبعث مرتين في السورة، الأولى في قوله تعالى {وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} ^(٤٩)، والثانية في قوله تعالى {ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} ^(٥٠). وسنجد أن ما بين هاتين الآيتين ضم العديد من الموضوعات مثل ذكر يوم القيامة، والتطرق إلى قضايا التوحيد، كما تطرقت الآيات لقصة رفض إبليس السجود لآدم، ومجادلة المشركين للرسول في المعجزات، ودور التكرار الذي جاء على هذه الصورة في النص دور مزدوج، حيث تبدأ المجموعة من الموضوعات بآية، ثم تختتم بها وهو دور "يفضي إلى تكامل بين قواعد الربط وقواعد التتامي"، فالجملة التكرارية التي توجد في مكان يختم به الكلام، توجد أيضا في مكان يبدأ به الكلام، وهذا يعني أنها في مكان واحد تؤدي مهمتين: أنها في الحالة الأولى بمنزلة التعقيب، وفي الحالة الثانية بمنزلة المضمون. وهي بحكم موقعها هذا تربط بين العناصر النصية بضم سابق إلى لاحق، ثم إنها تفتح لما سيأتي سبيل التحقق والتتامي"^١

٤- روابط تشعبية:

سبق الحديث عن تشعب قضايا السورة، وبيننا كيف أن هذا التشعب ربط بين موضوعات السورة وأجزائها الفرعية، مما خلق بنية نصية متداخلة العناصر متماسكة المباني.

^(١) (منذر عياشي، دراسات في الأسلوبية، ص ٨٨ ٨٩، منشورات اتحاد الكتاب العرب).

وأخذت مظاهر التشعب صورا عدة، بل إنها الصورة الغالبة لمعظم أشكال الربط في السورة، خصوصا في الآيات التي قد تبدو منفصلة عما سبقها، أو مستأنفة لموضوع جديد، من هذه الصور الإحالات اللفظية إلى مذكور سابق في السورة، ففي السورة مجموعة من الألفاظ "لا تملك دلالة مستقلة"، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب^١، من هذه الألفاظ لفظة الشيطان / إبليس، حيث تذكر الآيات [٦١- ٦٥] رفض إبليس السجود لآدم تكبرا وتعاليا عليه، ثم تعرض الآيات توعد إبليس لذرية آدم وطلبه من الله الإمهال في إغواء ذرية آدم حتى يوم القيامة، وهذه الآيات تحيلنا إلى الآية [٥٣] {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا} فقصة العداة والتوعد تحيلنا إلى تقرير الآيات بعداوة إبليس التي تبينت أسبابها وغاياتها.

ومن صور التشعب: التشعبات القريبة التي تربط الآيات المتتالية برياط معنوي في البنية المعنوية العميقة لدلالة الآيات، كبنية العمل والزمان التي تربط الآيات [٩- ١٩]، والتي تبين أن عمل الإنسان في الحياة الدنيا سوف يدخر في كتابه ليعرض عليه يوم القيامة ويحاسب عليه فردا، ولن يتأخر ذلك اليوم ولن يعجل في حساب من كفر وأنكر أو في عذابه، وهذا أصل من أصول النظرة الدينية للزمن في الإسلام " فلم يعد الزمن الماضي في الفكر الإسلامي فناء ضاع واندثر مع الأيام، يثير مشاعر الإحساس بالفقدان والحسرة على ما فات ومضى والعجز المطلق أمام الزمن، إنما صار الماضي - في الدين الإسلامي - وجودا ثابتا محفوظا في كتاب الأعمال ليوم الحساب"^٢، ويمكن أن نمثل لفكرة تشعب العمل و الزمن في هذه الآيات بالمخطط الآتي:

^١ (الأزهر الزناد، نسيج النص: بحث فيما يكون فيه الملفوظ نصا، ص ١١٨، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٣م.

^٢ (حميد الطريطر، قضية الزمن من خلال القراءة، ص ٦١، دار وحي القلم، ط ١، ٢٠٠٤م.

ذم العجلة في الجزاء [الآية: ١١]

ربط عمل الإنسان ونشاطه بالتوقيت الزمني [١٢]

الانتقال إلى الزمن الأخير، زمن عرض الأعمال [١٤-١٣]

الأمم السابقة أهلك بسوء ما صنعت ، وكان
جزاؤها في الدنيا [١٧-١٦]

الأصل في دخول الجنة أو النار هو نوع العمل الذي
يعمل به المرء [١٩-١٨]

العمل
والزمن

سورة الكهف

أولاً بنية السورة.

ثانياً: مجاور السورة.

ثالثاً: وسائل الربط بين موضوعات السورة.

أولاً : بنية السورة:

يرجع التناسب في سورة الكهف إلى البنية المنتظمة المتسلسلة التي تتألف من المكونات الموضوعية التالية:

- فاتحة
- مجموعة من القصص
- آيات معقبات
- خاتمة

تقوم سورة الكهف في " بنائها على قصة أصحاب الكهف وذي القرنين حسبما ألفت يهود لسائليهم من كفار قريش ، وذلك مما لم يتكرر في القرآن " ^١ ، حيث لم تنزل سورة بأكملها في الرد على أسئلة المشركين غير سورة الكهف ، فقد روي عن ابن عباس * أن قريشا بعثت " النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجوا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه كان لهم أمر عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض

^١ (عبد الله محمد النقرات ، بلاغة تصريف القول في القرآن ، ١٧٣ ، دار قتيبة ، ط ١ ، ٢٠٠٢ م .

* هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، يكنى بأبي العباس ، ولد في الشعب وبنو هاشم محصورون قبل خروجهم منه بيسير ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان حُبْر الأمة ، ويسمى البحر لغزارة علمه ، وكان يفتي في عهدهما إلى أن مات . انظر صفة الصفوة ١/٧٤٦ .

ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟" وقد وردت الإجابة عن سؤال المشركين الأول والثاني في هذه السورة ووردت الإجابة عن السؤال الثالث في سورة الإسراء.

أما باقي موضوعات السورة فهي ترتبط بمقصد هاتين القصتين ، أو تحيل إلى النسق والسياق خارج النص المرتبط بسبب نزول السورة ، ولا يمكن تجاوز ما يتركه ارتباط مكونات النص مع السياق الخارجي أو (المقام) من ارتباط وثيق تتضح انعكاساته داخل النص حيث " تترايط القضايا إذا صارت الأحداث المدلول عليها مرتبطة في حال أو مقام ممكن ، وإذا أصبحت متعلقة مع محل التجاور"^٢. فالاعتناء بعلاقات التناسب مع السياق الخارجي للنص يجب أن لا يقل أهمية عن الاعتناء بعلاقات التجاور بين الموضوعات داخل السورة الواحدة.

ترتبط قصة صاحب الجنتين بقصة أصحاب الكهف من جهة مجادلة المشركين في سؤالهم عن أصحاب الكهف ، فجاءت هذه القصة زيادة لهم في العبرة وضرب المثل "فكان لذلك المثل شبه بمثل قصة أصحاب الكهف من عصر أقرب لعلم المخاطبين من عصر أهل الكهف. فضرب مثالا للفريقين للمشركين وللمؤمنين، بمثل رجلين كان أحدهما معجبا مؤنقا وحال الآخر بخلاف ذلك، فكانت عاقبة صاحب الحال المؤنقة تباتا وخسارة ، وكانت عاقبة الآخر نجاحا ليظهر للفريقين ما يجره الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الآرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله في العالم من التذكير والتدبر في العواقب فيكون معرضا للصالح والنجاح "^٣ وهو مقصد متناسب مع ما ذهبنا إليه في تحليل

^(١) (جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول ، ص ١٧٠ ، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، المكتب الثقافي في القاهرة، ط ٦ ، ٢٠٠٢م.

^(٢) فان ديك النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، ، ترجمة: عبد القادر قينيني ، ص ١٢٢ ، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٠م.

^(٣) (تحرير والتنوير ٦ / ١٥ / ٣١٥)

مقاصد قصة أهل الكهف من نصره الله تعالى لعباده المستضعفين، وإطلاعهم على عظيم حكمته، وجميل تدبيره

كما أن القصة تحيل إلى خارج النص القرآني في الإشارة إلى الكفار وما افتخروا به من " أموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيا والغني فقيرا، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين^١.

ومما تحيل به الآيات إلى خارج النص المتعلق بسبب نزول السورة مقصد قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح، فالقصة " وإن بدت كلاما مستقلا في نفسه إلا أنه يعين على ما هو مقصود في القصتين السابقتين : أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار ، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له ، وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر، وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا ، وهذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع كما أن كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصد في القصتين المتقدمتين^٢ وبذلك تتضافر في بنية السورة الإحالات إلى خارج النص التي مع تقدم الآيات تتحول إلى إحالة داخل النص.

^١ (التفسير الكبير ١٢٤/٢١)

^٢ (التفسير الكبير ١٤٣/٢١)

أما باقي مكونات السورة:

فالفاتحة والخاتمة ترتبطان بموضوعات السورة بعلاقتين تناظريتين ، فالفاتحة إجمال لتفصيل السورة ، والخاتمة إجمال لتفصيلها أيضا ، وسيتم تناول هذا الموضوع بشيء من الإسهاب في المبحث الثاني.

وأما آيات التعقيب فتقوم بدور جسر العبور في الربط بين موضوعات السورة، فهي من جهة تذييل للموضوع السابق ومن جهة ثانية تمهد للموضوع اللاحق.

ثانيا مجاور السورة:

يمكن جمع موضوعات السورة في محورين اثنين ، دارت حولهما مقاصد الموضوعات:

- المحور الأول: حقيقة العلم
- المحور الثاني: زوال زينة الدنيا

المحور الأول : حقيقة العلم :

يعد العلم موضوعا مهما في سورة الكهف ، لأن مضمون السورة كان موضع اختبار من قبل مشركي العرب بناء على مشورة بعض أهل الكتاب؛ لذلك تشيع في السورة الكثير من المفردات ذات العلاقة بدلالة العلم مثل (الظن ، الوحي ، والخبر، والافتراء ...)، كما تتطرق السورة لعدة أنواع من العلوم التي يستطيع الإنسان إدراكها بوسائل مختلفة كالوحي والنقل وما ترشد إليه الحواس ، وأخرى لا يستطيع إدراكها.

والسورة تؤصل للمصدر الحقيقي للعلم بالعقيدة والعلوم بالألوهية خاصة ، وهو الوحي {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} ١١٠ ، وكل مصدر للعلم بحقيقة الألوهية لا ينطلق من هذا المصدر فهو من المزايم الباطلة { وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } ٤٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا } ٥ ، وهي نفس الحقيقة التي تكرر في السورة على السنة فتية الكهف {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا } ١٤ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ كُنَّا يَآتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } ١٥ .

وتنتهي السورة عن الخوض في الغيب بغير علم ، ورجع كل ذلك لله ، ومن ذلك توجيه الآيات للرسول صلى الله عليه وسلم للإعراض عن مجادلة المشركين في عدد فتية الكهف ، ومدة بقائهم فيه ؛ ذلك أن " الجدال هو الخصومة في الحقيقة " ، وليس الهدف من التنازع إلا الوصول إلى الحق لا الخصومة أو اللجاجة { ... قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا } ٢٢ ، {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } ٣٦ .

ولأن المستقبل من الغيبات توجه الآيات النبي إلى الاستثناء بالمشيئة عند العزم على القيام بأمر من الأمور {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا } ٢٣ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا } ٣٤ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا } ٢٣ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ

(١) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ص ٨٨، دار الكتب المصرية، دار الكتب اللبنانية، ط ١، ١٩٩١م.

عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٣٤﴾ { إذ ليس في علم الإنسان ماذا يكسب غدا ، ولا إمكانية تحقيق ما يصبو إليه .

ومن الغيبيات التي أعلمنا بها الوحي ، ويتعين علينا الاعتقاد بها ، الإيمان بالساعة ، فصاحب الجنتين أنكر قيام الساعة وأنكر البعث فوسم صاحبه هذا الاعتقاد بالكفر كما عرضت الآيات {وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ } ، ثم تصور الآيات حال المشركين يوم يبعثون ليوم الحساب ، فكل ما عملوا قد علم وادخر في كتب لا تستثني شيئا من أعمالهم ومنها إنكارهم لمبعثهم ، فيصبح المشركون أمام الحقيقة التي ماطلوا فيها كثيرا ورفضوا الإذعان لها {وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ }

كما تتطرق السورة لنوع من العلوم لا يعتمد على النقل ولا على العقل ، إنه علم لدني اختص الله به من عباده من شاء ، كاختصاصه تعالى للعبد الصالح {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾} ، إن هذا العلم يختص ببواطن الأمور والتي يختلف الحكم فيها عن الظواهر ، كما أن مصادره وكيفية الاهتداء إليه تختلف عن غيره من العلوم ، ف" العلم بظواهر الأشياء يمكن تحصيله بناء على تصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن

العلائق الجسدانية"^١ وهذا يتضح من المفارقات الكبيرة التي خلقتها أحداث قصة موسى مع العبد الصالح ، والتي كشفت عن عجز الإنسان عن إدراك بعض الحقائق الشاهدة أمامه بحواسه القاصرة ، وبقواه الذهنية محدودة القدرات.

المحور الثاني: زوال زينة الدنيا:

إن زوال زينة الدنيا ، هو تمثيل لزوال الحياة بأكملها ، وربط كل ذلك بالبعث ، وتقرر السورة في مطلعها الحكمة من تزيين الحياة الدنيا للناس وهو الابتلاء في الدنيا ، ومن ثم الحساب في الآخرة { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ }.

وقصة صاحب الجنتين مثال لإمكان زوال كل ما يفتخر به الإنسان ، وكل ما يستغله للطغيان والتكبر، فينتهي به المطاف خائبًا متحسرًا { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ }.

إن ما تزددان به الحياة من مفاتن ومباهج قصيرة العمر قليلة النفع ، وهي رسالة مباشرة للمشركين أن "هذا الذي تعجبون به كله ، وهذا الذي تستطيّلون أمدّه، إنما هو في الحقيقة قصير زائل، كذلك الغيث الذي يعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرا" ثم يكون حطاما^٢ ، وتضرب السورة مثالين مما يزين الحياة

^(١) التفسير الكبير، الرازي، ١٦٠/٢١

^(٢) سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ١٣٠ ، دار الشروق، ط١٧، ٢٠٠٤م.

الدنيا ، وهذان المثلان هما أكثر ما يفتن فيه الإنسان {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} ٤٦.

ليست مشاهد يوم القيامة إلا استحضارا للمستقبل الذي يحسم انتهاء كل ما على الأرض من شواهد وبشر {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} ٤٧ " أي أنه لم يبق على وجهها شيء من العمارات ولا شيء من الجبال ولا شيء من الأشجار فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها " ومن ثم تتغير هذه المظاهر التي كانت يوما ما تعد زينة إلى مظاهر عذاب أو نعيم كما تعرض السورة في جميع مشاهد يوم القيامة التي أخذت حيزا كبيرا فيها.

ثالثا: وسائل الربط بين موضوعات السورة:

سبق أن ذكرنا أن السورة تقوم في بنيتها على قصتي أهل الكف ، وذوي القرنين ، وبيننا أن الإحالة إلى خارج النص تعد وسيلة وثقى في ربط موضوعات السورة بهاتين القصتين ، ونضيف إلى ذلك الرابط روابط أخرى.

د الخطاب:

يعد الخطاب " ... باعتباره نسقا من الجمل المتتالية ، أو نظاما متاسقا من العناصر قيمته ماثلة في ما يتأتى به من روابط شكلية أو معنوية " ^٢ من أهم ركائز الترابط في السورة ، معظم الخطاب في السورة موجه للرسول صلى الله عليه وسلم ، والباقي خطاب عام يرتد ليرتبط بخطاب الرسول ، فالقستان اللتان بنيت السورة

^١ (التفسير الكبير ، الرازي ، ٢١ / ١٣٣)

^٢ (محمد الخبو ، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة ، ص ٣٠ ، حامد للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣م)

عليهما تبدآن بخطاب النبي { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا } ٩ ، { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } ١٣ ، والقصة الثانية والأخيرة في السورة تبدأ بالإجابة على سؤال المشركين { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا } ٨٣ .

وإذا تتبعنا خطاب الرسول في السورة فسوف نجده يربط جميع القصص التي تمثل البنية العظمى، والتوجيهات في السورة بأفعال الأمر، كما يوضح المخطط التالي:

واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته [٢٧].	←
واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي....[٢٨] وترتبط بها مشاهد يوم القيامة	←
واضرب لهم مثلا رجلين [٤٤.٣٢] القصة كاملة	←
واضرب لهم مثل الحياة الدنيا.... [٤٥]	←
(ويسألونك عن ذي القرنين ، قل سأتلو..) [٣٨. ٩٧]	←
قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي[١٠٩]	←
قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي.....[١١٠]	←

ويمكن إدراج ما تطرقت له السورة من ذكر مشهد قصة إبليس وآدم، وقصة موسى والعبد الصالح ضمن خطاب الله تعالى لرسوله ، فجميعها تبدأ بإذ، وإعراب إذ" المذكورة في أوائل القصص في التنزيل أن تكون مفعولا به بتقدير "اذكر" ^١.

^١ - ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ١٦٦/١ ، تحقيق:إيمليل بديع يعقوب، حسن حمد، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م.

٢. التصوير :

تفوق وظيفة التصوير التأثير الحسي والعاطفي للمتلقى إلى القيام بوظيفة الربط العقلي بين المكونات الجزئية للموضوعات " فتعيد تشكيل المدركات ، وتبني منها عالما متميزا في جدته وتركيبه ، وتجمع بين الأشياء المتنافرة والعناصر المتباعدة في علاقات فريدة ، تذيب التنافر والتباعد ، وتخلق الانسجام والوحدة "١ ، والتصوير في السورة عمل على تقريب مفهوم الفناء وربط قصة صاحب الجنتين اللتين أبادهما الله بكفر صاحبهما بمشاهد يوم القيامة بضرب مثل مما يعيه المتلقي ويدرك صدقه {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ٤٥ } فالمشركون يعون هذا المثل ومخيلتهم قادرة على استجلابه وتصوره ، فيغدو هلاك الكون بأكمله تضخيما لهذا المتخيل ، المتصور في الواقع أصلا بطبيعة وقوعه الممكنة ، بل المتحققة في غالب الأحيان أمام أعينهم .

٣. التعقيب :

تلت القصص وموضوعات السورة العديد من الآيات المعقبات " وليس للتعقيب وظيفة الشرح ، أو تلوين طرق التعبير بغية تقريب المقصود ، وإنما تظهر وظيفته بارتباطه القوي بالقضية ، وبما تؤول إليه "٢ من مقاصد ودلالات ، فالتوجيهات التي تلت قصة أهل الكهف تعقب على القصة باثنين من مقاصدها ، الأول هو

١ (جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب ، ص ١٥ ، دار الكتاب المصري ،

دار الكتاب اللبناني ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م .

٢ (أسلوب التعقيب في القرآن ، ص ٢١ .

الركون إلى المصادر الصحيحة في الوصول إلى علم الألوهية {وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} {٢٧} ، وتلك هي الحقيقة التي اعتقد بها فتية الكهف وفروا لأجل النجاة بها {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} {١٤} هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهاة لولا يأتئون عليهم بسُلطانٍ بَيْنَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} {١٥} ، ومن ثم تربطها بالعاقبة التي يجزى بها من اعتقد بوحداية الله أو أشرك به ، كما أكدت الآية [٢٨].

والثاني هو مفهوم " الاعتزال " الذي جاءت به الآيات وهو التزام صحبة الأخيار بمعزل عن الشرف والمنزلة {وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} {٢٨} ، وذلك تأسيا بأهل الكهف الذين اعتزلوا قومهم ولجؤوا إلى كهف مجرد من كل ملامح الزينة ومباهجها والتزموا بصحبة بعضهم {وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا} {١٦} ، وهو ما تسقطه الآيات فيما بعد على قصة صاحب الجنتين التي تلت قصة أصحاب الكهف ومهدت آيات التعقيب لها ولكن بأساليب فنية مختلفة تضيف إلى ما رمت إليه القصة السابقة وتوجيهاتها ، فيشرع القارئ في تلقيها وقد وعى فيما اجتماعية ودينية يربط بها بين مكونات السورة السابقة واللاحقة.

وتجيء مشاهد يوم القيامة لتعقب على قصة صاحب الجنتين باعتبار أن هلاك جنته مثال ونموذج لإمكانية هلاك الحياة كاملة ، وزوال ما في هذه الجنة من مظاهر زينة ونعيم هو تبسيط لزوال كل مظاهر النعيم والزينة عن الحياة والبشر تماما كما بدأ الخلق {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ

نُفَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ {

وتربط آيات التعقيب الأخرى ما سبق بقصة موسى والعبد الصالح بمعاني التوجيه التي تضمنتها ، فالآيات تشير إلى احتواء القرءان على كل ما يهم الإنسان ولكن يبقى الإنسان مجادلا فيه ، ومن ثم تكرر الآيات وظيفه الأنبياء من التبشير والإنذار وارتباط كل ذلك بموعده سيرجعون فيه إلى ربهم ، ومن ذكر مشاهد يوم القيامة وتحديد موعد لها ، وذن جدال البشر تلتحم الآيات بقصة موسى التي كانت الصخرة مكان لقائه بالعبد الصالح وبعث الحوت وعودته للحياة دليلا على هذا المكان ، إضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من المقصد الذي تتضمنه القصة ، وهو لمز المشركين ومستشاريهم من بني إسرائيل فيما يبدونه دائما من جدال في الدين " فذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام وما اتفق له في طلبه ، وجعله سبحانه له آية وموعدا للقاءه ، ولو أراد سبحانه لقرب المدى ولم يحوج إلى عناء مع ما فيها من الخارق الدال على البعث ، ومن الدليل على أن من ثبت فضله وعلمه لا يجوز أن يعترض عليه إلا من كان على ثقة مما يقوله من ربه ولا أن يمتحن ، ومن الإرشاد إلى ذم الجدل بغير علم ، ووجوب الانقياد إلى الحق عند بيانه ، وظهور برهانه ، ومن إرشاد من استكف أن يجالس فقراء المؤمنين بما اتفق لموسى عليه السلام من أنه - وهو كلیم الله - اتبع الخضر عليه السلام ليقتبس من علمه " وكلها إرشادات سبق أن تطرقت إليها الآيات وجاءت القصة لتؤكددها وتكشف الدلالة عليها.

^١ (نظم الدرر ، ٢ / ١٤٣)

سورة مريم

أولاً: بنية السورة.

ثانياً: وسائل الربط بين موضوعات السورة.

أولاً : بنية السورة:

تعد سورة مريم من السورة شديدة الالتحام ، وهي استمرار لما بدأت به سورة الكهف من عرض القصص العجيب ، و" الغرض من هذه السورة هو بيان التوحيد والنبوة والحشر"^١ ، وأثبتت السورة هذه الأغراض في بنيتين يربط بينهما آيات تعقيب.

وهاتان البنيتان تتمثلان في :

١. بنية سردية .

٢. بنية خطابية حجاجية

بينما اختصت البنية السردية بذكر قصص الأنبياء وما انطوت عليه سيرهم من عجائب ، قام حجاج المشركين في البنية الثانية على إثبات البعث ، وجمع بين البنيتين ما ترمي إليه السورة من إثبات قدرة الله تعالى بأساليب ومدلولات تختلف في البنيتين بناء على مقاصد كل بنية. وكى نوضح هذه المقاصد فإننا سوف نتناول قضية قدرة الله ونبين كيف تناولتها كل بنية:

د قدرة الله سبحانه وتعالى في بسط رحمته:

يهيمن على السورة " ظل الرحمة والرضا والاتصال. فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا ويكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثلثي السورة كثيرا. ويكثر فيها اسم " (الرحمن) ويصور النعيم الذي يلقاه المؤمنون في صورة ود { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا }^٢ ، ويزداد ظل الرحمة في

^١ (التفسير الكبير، ص ٢٢٢/٢١

^٢ (في ظلال القرآن ، ٤ / ١٥ / ٢٣٠٠

البنية القصصية التي "من أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده"^١ من الأنبياء، وإثبات قدرته فيما اختص به هؤلاء الأنبياء من منن ونعم، تعكس قدرته في عموم الأمور.

تبدأ السورة بذكر قصة زكريا الشيخ الذي بلغ من الكبر عتيا، وتتمثل فيه قدرة الله تعالى باستجابته لدعائه ومنحه الولد (يحيى) من زوج عاقر.

والأعجب من قصة زكريا قصة عيسى حيث ولد لأم عذراء دون زوج، مما كان مدعاة لبني إسرائيل في الاعتقاد بأنه ابن الله - تعالى الله عما يصفون - ، ومن ثم تأخذ السورة في إثبات حقيقة من حقائق التوحيد وهي تنزيه الله عن الولد والشريك" ويأخذ القرءان يرسم صورة المسيح كإنسان فقط ، وينكر إنكارا باتا لألوهيته، ويدعم وحدة الله الكاملة ، وعدم شفعه ، ويؤكد صمديته ، وينزعه عن الشريك والنظير والند والولد "الذي زعم به معظم المشركين واختلفوا في تسميته أو تحديد نوعه، وترد الآيات على مثل الافتراء ردا قاطعا {مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} {٣٥}.

وفي قصة إبراهيم اختزال لما في القصتين السابقتين من توحيد لله، وإثبات لقدرته ، فأما إثبات الآيات وحدانية الله فـ "المنكرون للتوحيد هم الذين اتبعوا معبودا سوى الله تعالى ، وهؤلاء فريقان منهم من أثبت معبودا غير الله حيا عاقلا فاهما وهم النصارى ، ومنهم من أثبت معبودا غير الله جمادا ليس بحي ولا عاقل ولا فاهم وهم عبدة الأوثان، والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلا أن ضلال

^١ (نظم الدرر ، ٤ / ٥٢٧)

^٢ (علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ١ / ٩٢ ، دار المعارف، ط١ ، ب ت.

الفريق الثاني أعظم" ^١ وهم قوم إبراهيم عليه السلام الذين عبدوا أصناما لا تسمع ولا ترى ، ولا تنفع ولا تضر.

وأما إثبات قدرة الله فإن إبراهيم عليه السلام نظير لذكريا في القصة ، فقد وهب الله ذكريا الولد بعد أن تقدم به العمر ، وكذلك إبراهيم فإنه " لما اعتزل قومته خرج بزوجه سارة قريبته ، فهي قد اعتزلت قومها أيضا إرضاء لربها ولزوجها " ^٢ وكانت سارة عاقرا قد تقدم بها العمر هي الأخرى كما كانت زوجة ذكريا ، فتمثلت فيها قدرة الله تعالى أن وهبها إسحاق ومن بعده يعقوب حفيده.

وبينما فصلت السورة في ذكر أحوال من سبق من الأنبياء ، فقد أجملت في ذكر من بقي واقتصر ذكرهم على ما أسقطته الآيات عليهم من صفات الصدق والعلو والإخلاص ، ولكن ذكرهم يضمن ما تحويه سيرتهم من إنعام الله عليهم ، واصطفائه لهم ، بما خصهم به من عجيب الأحوال والمعجزات ، وبما أنزل عليهم من الرحمات كانت عوناً لهم في الدعوة.

تذكر الآيات موسى عليه السلام واصطفاء الله له وإشراك أخيه هارون معه في تحمل تكاليف الدعوة ، وجاء ذكره بعد ذكر إبراهيم عليه السلام لأن موسى " أنقذ الله به بني إسرائيل من العبودية والذل حتى تمكنوا من آثار آبائهم ، وكان موافقا لأبيه إبراهيم عليه السلام في أن كلا منهما أراد ملك زمانه الذي ادعى الربوبية قبله خوفا على ملكه منه ، فأنجاه الله منه ، وأمر موسى أعجب لأنه سبحانه أنجاه من الذبح بالذباح " ^٣ عندما وضعته أمه في التابوت وألقته في اليم؛ خوفا عليه من جنود فرعون ، فألقاه اليم في قصر فرعون الذي اتخذه ولدا

^١ (التفسير الكبير ، ٢٢٢/٢١)

^٢ (تحرير التحبير ، ١٢٤/١٦/٧)

^٣ (نظم الدرر ٥٣٩/٤)

رباه في كنفه ، وضرب بقصته مع فرعون مثلاً لجزاء من ادعى الربوبية ونازع الله في ملكه.

وإسماعيل عليه السلام كان رحمة وعونا لأبيه إبراهيم فهو " الابن البكر لإبراهيم وشريكه في بناء الكعبة ، ... وأعظم وعد صدقه وعده إياه إبراهيم بأن يجده صابراً على الذبح " كما أن ذكره بعد موسى رغم الفاصل الزمني البعيد بينهما هو توافق سيرته مع سيرة " موسى عليه السلام في ظهور آية الماء الذي به حياة كل شيء ، وإن كانت آية موسى عليه السلام انقضت بانقضائه ، وآيته هو باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهي التي كانت سبب حياته ، وماؤها ببركته أفضل مياه الأرض " فبئر زمزم لم ينقطع ماؤه منذ أن أعيد حفره على الرغم من مرور الأعوام واستهلاكه المتواصل.

وأخيراً تذكر الآيات إدريس عليه السلام الذي يعد "أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ، وخط بالقلم ، وخاط الثياب ولبس الجبة" ^٢ ، وتكون مناسبة ذكره مع من ذكر من الأنبياء تماثل رفع الله له مع رفعه تعالى لعيسى عليه السلام ، ومناسبة ذكره بعد إسماعيل عليه السلام أنهما " اشتركا في البيان بالعلم واللسان فإسماعيل عليه السلام أول من أجاد البيان باللسان ، وإدريس عليه السلام أول من أعرب الخطاب بالكتاب " ^٤.

البنية السردية في السورة بينت مظاهر عدة من قدرة الله سبحانه وتعالى في بسط رحمته على من اصطفى من عباده ، وهي من خلال مقاصد القصص أثبتت

^١ (التحرير والتنوير ، ١٢٩/١٦/٧ .

^٢ نظم الدرر ، ٥٤٠/٤ .

^٣ السابق ٥٤١/٤ .

^٤ السابق ٥٤٣/٤ .

وحدانية الله واستغناءه عن الشريك أيا كان نوعه ، وجاء هذا الإثبات ببيان حاجة البشر للشريك في تسيير أمور معاشهم ومنها أمور الدعوة إلى الله ، فزكريا دعا الله طلبا للولد من أجل أن يرثه في العلم والنبوة ، وموسى أعانه الله بهارون في مواجهة فرعون ودعوة بني إسرائيل ، وإبراهيم استعان بابنه إسماعيل في بناء الكعبة ، كما أن خلق زكريا وعيسى ويعقوب وإسحاق وما اكتنف ولادتهم من عجب فيه " إشارة إلى أنه تعالى يخلق ما يشاء تارة بسبب قوي ، وتارة بسبب ضعيف، وتارة بلا سبب ، ومن كان كذلك كان مستغنيا عن الولد " ^١ ، إضافة إلى ما يحمله الخطاب بهذه القصص من " تسليية للرسول والتثبيت في مواجهة مشركي مكة ، وهي في الوقت نفسه ترسم صورة مشرقة للصالحين في علاقتهم فيما بينهم أو علاقتهم السامية مع الله تعالى " ^٢ ، فالبيئة الأولى من السورة هي إشارة رفق ورحمة لمحمد صلى الله عليه وسلم ولأصحابه في الدعوة ، بأن الله تعالى قادر على نصره عباده بالأسباب ، وبالإستغناء عن الأسباب.

٢. قدرة الله سبحانه وتعالى في إهلاك المعاندين:

يفصل بين البنية الأولى والثانية في السورة آيات معقيات هي بمثابة المرحلة الانتقالية نصا ونوعا ، فبعد أن عرضت السورة ذكر بعض الأنبياء، وما تميزوا به من صدق وطاعة وإخلاص تبين الآيات سوء من جاء بعدهم وتضييعهم للعبادات واتباعهم للشهوات وعصيانهم الله ، وتوازن بين ما من الله على أولئك من رحمة وعطاء ، وبين ما سيلقى الآخرون من عذاب.

^١ نظم الدرر ٥٢٦/٤.

^٢ محمد الحسناوي، دراسة جمالية بيانية في أربع سورة: الإسراء الكهف مريم طه ، ص ١٥١ ، دار عمار، ط ١ ، ٢٠٠٦م

تقوم البينة الثانية في السورة على حجاج المشركين في البعث ، وتوحيد الله ، وتجدر الإشارة إلى " أن الأدلة على البعث والنشور والجزاء واليوم الآخر ربما ضارعت في كثرتها وتنوع أساليب عرضها في القرآن الكريم الأدلة على وجود الله تعالى ، وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر ينطوي على التسليم بوجود الله ، ولأن مسألة الإيمان بالله لها دلائل سابقة لها في الفطرة والنفس الإنسانية ، وقد تهتدي إليها كذلك العقول السليمة بقليل من النظر والتأمل. وليست كذلك مسألة الإيمان باليوم الآخر... علما بأنها من أخطر مسائل العقيدة في حياة الإنسان " ^١ ، والخطاب في البينة الثانية من السور " من حيث مجادلة المعاندين وتصوير مصارعهم في الدنيا والآخرة ، فهو نوع آخر من التثبيت للنبي ، والذود عنه في المواجهة المباشرة مع المعاندين من كفار ومشركين ، بمسمع منه ومشهد " ^٢ ، وبيان لقدرة الله تعالى على إهلاك المعاندين في الدنيا ، وتصوير ما سينالهم من سوء جزاء في الآخرة.

تعرض الآيات في هذه البينة إنكار المشركين العام لقضية البعث وتعتني السورة بالرد على إنكارهم باعتبارهم يمارون في قضية من قضايا العقيدة ف" ليست الآيات القرآنية مجرد أشكال تعبيرية ، وإنما مضامين تبليغية ، وهي الأصل فيها ، ويتصدر هذه المضامين المضمون العقدي ، حتى أنه لا آية فيه إلا وتحمل وجها عقديا يتعين طلبه وفهمه " ^٣ ، ومن هذه المضامين قضية البعث ، فقد " وجه القرآن الكريم عناية بالغة إلى البعث والجزاء ، وبخاصة في السور المكية منه ، باعتباره ركنا أساسيا من أركان العقيدة الإسلامية ، إذ يقرنه بالتوحيد أحيانا ، ويقرنه أحيانا أخرى بالنبوة والرسالة " ^٤ ، وتعرض السورة تساؤل

^١ (في الفكر والثقافة الإسلامية ، ص ٩١)

^٢ (دراسة جمالية بيانية في أربع سور : ص ١٥١ .

^٣ (طه عبد الرحمن ، روح الحداثة ، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية ، ص ١٩٩ ، المركز الثقافي العربي ، ط ١ ، ٢٠٠٦ م .

^٤ (بلاغة تصريف القول ٢ / ٥٧١

المشركين عن إمكانية عودتهم للحياة بعد الموت: { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ
لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا }^(١١) ، ثم تتطرق بالتخصيص لذكر أحد المشركين الذي
استهزأ بالبعث ، فقد روي عن خباب بن الأرت أنه قال " جئت العاص بن وائل
السهمي اتقاضاه حقا لي عنده ، فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت :
لا حتى تموت ثم تبعث ، قال: فإنني لميت ثم لمبعوث ؟ فقلت نعم ، فقال: إن لي
هناك مالا وولدا ، فنزلت: (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا)
[مريم: ١٧٧]^١ .

وتتخذ الآيات منهجا عقليا استدلاليا في إثبات البعث ، فالإنسان خلق من
العدم ، وإعادة خلقه من الرفات أيسر. في نظر الإنسان . من إيجاده من العدم {وَأَوَّلًا
يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا }^(١٧) ، والذين سبقوهم كانوا
أكثر قوة ومنعة منهم ، وها هي ذي آثارهم شاهدة على ما كانوا عليه وما آلوا
إليه {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِثِيًا }^(٧٤) ، {وَكَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ نُحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا }^(٩٨) .

وتربط الآيات بين الشرك والبعث بزعم المشركين اتخاذ الشركاء من البشر
والوثن طلبا للعزة ، فتبين الآيات أنهم لن يغفوا عنهم يوم القيامة شيئا ولن تكون
للمشركين ولا لشركائهم إلا الخيبة {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ
عِزًّا }^(٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا }^(٨٢) .

وفي عرض مشاهد يوم القيامة التي تسوقها السورة عرض لمظاهر الفرع
والعذاب الذي يلقيه المعاندون والمشركون، والذي ينسجم مع عظم ما افتراه

^١ (لباب النقول في أسباب النزول ، ص ١٧٤)

المشركون على الله من نسب الولد له ، وفيها أيضا تتجلى مظاهر قدرة الله وقوته التي ينصر بها الله عباده المستضعفين ، ويعذب بها الكافرين.

ثانيا : وسائل الربط في السورة:

د التكرار:

تكرر في سياق السورة مجموعة من الآيات تعبر عن المضامين والمقاصد الرئيسية فيها ، فالسورة تتعرض لقدرة الله سبحانه وتعالى التي تنزل بها الرحمات ، وينتصر بها لعباده ، وينتقم بها من أعداء دينه ، وقدرة الله سبحانه وتعالى لا تحدها الممكنات ، ولا تعوزها الإمكانات ، وإنما أمره تعالى {...إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ^(٣٥) ، ويأخذ تكرار الآيات في القرآن أشكالا مختلفة ، فالسورة قد تكرر الآية ذاتها ، وتارة تكرر صدر الآية فحسب ، فيتراوح الأسلوب بذلك بين الثبات والتغيير " والقضية أن القرآن في تعامله مع هذه الألفاظ المتواترة لا يستقر على صياغة واحدة فيدخل عليها الأساليب المفضلة من التلوينات الطفيفة ما يجمع فيه الإحساس في الوقت نفسه بحدوث التغيير وثبات البنية " ^١ فيصبح التكرار ذا أبعاد دلالية تجمع بين الصبغة الجمالية للآيات والفوائد المعنوية.

ورد التكرار في جدال المشركين وتشكيكهم في إمكانية وقوع البعث ، فقد سبق سؤالهم في الإسراء {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَيْسَ لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} ^(٤٩) ، فتجيب الإجابة في مريم عبر القصص العجيب الذي ينبئ عن قدرة الله في الخلق ، فتبشير زكريا ببيحيى على الرغم من الاستحالة الظاهرة

^(١) من قضايا اللغة في كتب التفسير، ص ٤٥٥

لحدوث مثل هذا الأمر وهو ما يقربه زكريا نفسه يثبت قدرة الله تعالى على الخلق من العدم التي هي أصعب من الخلق على الأثر {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} ٩ ، وكذلك في خلق عيسى بن مريم الذي هو أكثر استحالة من خلق يحيى فإن تعجب مريم من حملها بطفل دون زوج يلقي الإجابة ذاتها في إمكانية الحدوث مع زيادة ذكر حكمة خلقه على هذا الحال {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} ٢١ ، وبتكرار صدر الآية تقوى الوشائج بين القصتين وتستدعي الثانية الأولى إلى الذاكرة ، وهذا من أهم فوائد " التكرار أو إعادة صدر الكلام بعد أن حال بينه وبين ما يتعلق به فاصل طويل من الكلام وجعله مظنة النسيان أو ضعف العلاقة بما يتبعه من خبر أو فاعل أو جواب ، فإذا أعيد صدر الكلام إلى الذاكرة اتضحت العلاقة بما يليه وينتمي إليه^١ فتغدو القصتان كأنهما قصة واحدة لارتباطهما بمقصد واحد عبرت عنه الآية المتكررة.

وبعد أن أجابت الآيات عن تعجب زكريا ومريم ، وأقرت قدرة الله تعالى على كل عجيب وكل خارق ، ترد الآيات على إنكار المشركين إمكانية البعث بتكرار المعنى نفسه في الآية السابقة ، ولكن بأسلوب مختلف ، سبب هذا الاختلاف أن تقرير الحقيقة قد وقع في الآيات السابقة ، وأن أذهان المتلقين قد تلقت ما يكفي من عجائب القصص وما اكتنفها من براهين صادقة على قدرة الله تعالى {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا} ١١ {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} ١٧ .

وكما كان للتكرار في قضية الخلق والبعث أثر في استحضار الذاكرة تثبيتا وتأكيدا للمقاصد المراد إيصالها ، فإن نفي الآيات الولد والشريك عن الله تعالى

(١) البيان في روائع القرآن ١٣٢

جاء على المنوال نفسه، فبعد ذكر قصة عيسى عليه السلام تشير الآيات ضمنا إلى تأليه النصارى له ، ومن ثم تنفي الآيات اتخاذ الله للولد {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ٣٥ ، ثم توجه الآيات الخطاب للمشاركين عامة فتشير إلى نسبتهم الولد لله {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا} ٨٨ ، وتجيء الإجابة بعد بيان الآيات عظم هذه المزاعم وهولها {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} ٩٢ .

٢. الإحالة بالعودة:

ونعني بالإحالة بالعودة عودة مضامين النص إلى عناصر لغوية تكون جامعة لها ، وتتمثل " في تكرار لفظ أو عدد من الألفاظ في بداية كل جملة من جمل النص قصد التأكيد"^١ وإثبات المرجعية المعنوية، وتختلف عما سبق من التكرار ، في أن التكرار يقصد به البحث في الغرض الدلالي من تكرار الألفاظ والجمل ، أما الإحالة بالعودة فتبحث عن العلاقة اللغوية الرابطة بين الجمل ومن ثم مدلولاتها.

وعودا على بنية السورة التي تقوم على بنيتين الأولى: سردية ، والثانية: خطابية حجاجية ، فإن كلتا البنيتين تتعلق مضامينها بعنصر لغوي يجمع المواضع المختلفة مما يخلق وحدة في النص ، تكون بها كل بنية متكاملة بموضوعاتها ، ومقابلة لموضوعات البنية الثانية.

(^١) نسيج النص ، ص ١١٩

في البنية الأولى تعود جميع القصص ارتدادا إلى الفعل (اذكر) باستثناء الآية الأولى التي تبدأ بالمصدر (ذكّر) الذي يحمل دلالة المعنى نفسها ، وهو أن ما سيذكره النبي صلى الله عليه وسلم هو وحي من الله ، فهو حقيقة دامغة غير قابلة للجدال ، ونمثل لصدور القصص عن العنصر اللغوي (ذكر/ أذكر) ، ورجوعها إليه ارتباطا بالمخطط الآتي:

ذكر رحمة ربك عبده زكريا



واذكر في الكتاب مريم



واذكر في الكتاب إبراهيم



واذكر في الكتاب موسى



واذكر في الكتاب إسماعيل



واذكر في الكتاب إدريس



الذكر

أما البنية الثانية فتربط بأفعال القول المنسوبة للمشركين، التي تبين أن ما يقولونه محض مزاعم تصدت الآيات بالرد عليها، ونمثل لها بهذا المخطط:

ويقول الإنسان إذا ما مت لسوف أبعث حيا	←	
وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا	←	أفعال القول
أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا	←	
وقالوا اتخذ الرحمن ولدا	←	

وحيث إنه "لا يمكن لأي نص أن يؤدي وظيفته الحجاجية إلا إذا كانت عناصره متماسكة"^١ فإننا نجد التماسك يظهر جليا في البنية التقابلية للسورة، فبينما يعرض المقطع الأول القصص الحق التي هي من وحي الله تعالى، ترد الآيات في البنية الثانية على مزاعم المشركين وافتراءاتهم القائمة على الظنون والتصورات الفردية.

^(١) محمد الداوي، سيميائية الكلام الروائي، شركة النشر وتوزيع المدرسي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٦م.

المبحث الثاني:

تناسب موضوعات الحقائق الأول

تمهيد: مستويات التناسب في السور.

الموضوعات المشتركة في السور.

تمهيد

مستويات التناسب في السور:

تتميز سور العتاق الأول بالتناسب الشديد فيما بينها ، وهذا التناسب يعود إلى طبيعة السور " وهو اشتراكها في قدم النزول ، وكونها مكيات ، وكونها مشتملة على القصص" ^١ ، الأمر الذي جعل مقاصد السور متقاربة ومحاور موضوعاتها متحدة ، والسور الثلاث تتناسب على مستويين :

الأول : بنائي تتجلى فيه مظاهر اللحمة بين السور حتى تبدو كأنها سورة واحدة ، ويتجلى ذلك في دور الفواتح والخواتيم في سبك السور .
والثاني : سياقي يجمع العوامل المقالية ، من حيث تجانس الموضوعات وترباطها ، والعوامل المقامية المحيطة بالسور كأسباب النزول ، والخطاب . ومن ثم تتحد العوامل البنائية والسياقية في السور لتعزز مظاهر التناسب بصورة تتجلى فيها مظاهر الإعجاز في هذا الباب.

تلتقي سورة الإسراء والكهف في سبب نزولهما ، وهو سؤال المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وفتية الكهف وذي القرنين ، وترد الإجابة عن القصتين مقترنتين في سورة الكهف في حين يفصل الجواب عن الروح ويضم إلى سورة الإسراء " لأنه سر من أسرار الملكوت كالإسراء" ^٢ ، ولأن الإجابة عن السؤالين الثاني والثالث جاءت مفصلة في قصتين طويلتين و" لم يقع الجواب

^١ (تناسق الدرر في تناسب السور ، للسيوطي ، ص ٩٨)

^٢ (نظم الدرر ، ٤٥٥/٤)

عن الأول بالبيان ، ناسب فصله في السورة" ^١ ، لكن هذا الفصل خلق نوعا خاصا من الربط ؛ لأن السؤال واحد و الإجابة عنه توزعت في سورتين متتاليتين ، أضف إلى ذلك أن الجواب عن السؤال الأول الذي ورد متقدما في سورة الإسراء جاء بمثابة التمهيد لإجابة السؤالين الثاني والثالث (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) [الإسراء: ٨٥] ، ذلك أن هذه القصص وغيرها مما لم يسألوا عنه مما لا علم للمشركون بها ، وقصة موسى مع العبد الصالح تدل بمقاصدها على قصور علم البشر وإن علت درجاتهم عن إدراك حقائق الكون ، وهذه الأسباب مجتمعة خلقت تلاحما بين السورتين جعل الثانية مكملة للأولى.

ويستمر الارتباط بين السورتين وسورة مريم في استمرار السياق القصصي الذي تميزت به سورة الكهف والذي امتد بخصائصه العجائبية ، وشد من ترابط البنية القصصية دلالات الخطاب في السور ف " لما كان على اليهود الأمرين السؤال تعنتا عن قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين أن ينصحوا العرب بالإعلام بأن دينهم باطل لشركهم ، فلم يفعلوا فكانوا جديرين بالتبكي ، وكانت قصة زكريا أعظم في تبكيتهم بمباشرتهم لقتله وقتل ولده يحيى عليه السلام " ^٢ وبذلك تبدو السور متناسبة متكاملة ، يستدعي الموضوع في الأولى الآخر في الثانية في سلسلة متصلة مترابطة.

ومن أوجه الترابط في البناء الفني في السور ، أن "هذه السور الثلاثة المتعاقبة اشتمل كل واحد منها على حصول حالة عجيبة نادرة في هذا العالم فسورة بني إسرائيل اشتملت على الإسراء بجسد محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الشام وهو حالة عجيبة ، وهذه السورة [الكهف] اشتملت على بقاء النوم مدة

^١ (تناسق الدرر ، ص ١٠٠)

^٢ (نظم الدرر ٥٢٦/٤)

ثلاثمائة سنة وأزيد وهو أيضا حالة عجيبة ، وسورة مريم اشتملت على حدوث الولد لا من الأب وهو أيضا حالة عجيبة ^١ ، دلت على قدرته سبحانه وتعالى مما لا يترك مجالا للشك فيما أوردته الآيات من شبهات يلقيها المشركون حول بعض قضايا العقيدة .

وبناء على توسع النص القرءاني في معالجة القضايا والموضوعات ، فإننا نستطيع أن نحدد بعض المحاور التي ناقشتها السور وتوسعت فيها تطويرا لهذه الموضوعات ، وهي موضوعات العقيدة التي ركزت عليها السور المكية .

الموضوعات المشتركة في السور:

اشتركت السور الثلاثة في عدة موضوعات هي جلها الموضوعات التي واكبت الدعوة في الزمن المكي ، وهي موضوعات العقيدة الكبرى المتمثلة في الموضوعات الآتية:

د التوحيد :

طرحت الآيات موضوع التوحيد طرحا متناسبا تطور مع تقدم آيات السور ، والأصل في التوحيد عبادة "الله الذي لا إله إلا هو ، الذي لا ينبغي العبادة والتوكل ، والرجاء والخوف ، والحب ، والإنابة والإخبار والخشية والتذلل والخضوع إلا له" ^٢ لذلك تبدأ سورة الإسراء عرض تشريعات القرءان بالتوحيد كأهم ركن من أركان التشريعات السماوية {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ

^١ (التفسير الكبير ، ١١٣/٢١)

^٢ مدارج السالكين ، ١ / ٣٦

مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الْدِّينِ إِحْسَانًا... {وشددت
السورة في بيان عاقبة الشرك بالله وهو الخلود في نار جهنم {... وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾} ، والعرب عرفوا أنواعا متعددة من
الشرك فـ "عبدوا الأصنام، وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الآخرة، وحجوا
إليها وقربوا القرابين وهم الدهماء من العرب... وقد كان صنف من العرب يعبدون
الملائكة أو الجن لتشفع لهم إلى الله ويزعمون أنهم بنات الله" وقد ردت السور
على جميع أشكال الشرك هذه ، وبينت خذلان أتباعها ، ونجد تشابها في بنى
بعض الآيات التي ترد الشرك عن الله في بيانها عظم استتكار الكون بمظاهره
الطبيعية لمثل هذه المزاعم ففي سورة الإسراء يقول تعالى : {أَفَأَصْنَفَكُمُ رَبُّكُمْ
بِالْبَيْنِ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُم لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا
فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا
يَقُولُونَ إِذَا لَاقَتْهُمْ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا
كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾} ، وفي سورة
مريم يقول {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ
السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ
وَلَدًا ﴿٩١﴾} ، وتدحض الآيات مزاعم المشركين فيما ذهبوا إليه من صور الشرك
بالله بعدة وسائل منها :

١- تكذيب مزاعم المشركين ، لجهلهم بأمر من أمور الإلهيات لا يتأتى لهم العلم
به إلا بوحي من الله تعالى. {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ

(١) مصطفى عبدالرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ١٠٨ - ١٠٩، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١،
٢٠٠٥م.

عَلَّمَ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِنَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ { قُلْ
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ... }

٢. بيان استغناء الله عن الولد والشريك: { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلَى } [الإسراء: ١١١] ، { ذَلِكَ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ } ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ
سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ { لمريم: ٣٤ ، ٣٥ .

٣. بيان عجز الآلهة والأولياء ، وأن لا نفع لهم في الدنيا ، ولا شفاعة لهم في الآخرة
{ قُلْ اذْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا
﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ
وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } ﴿٥٧﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧] ، وضربت
الآيات مثلا لحال المشركين يوم القيامة وقد خذلهم ما كانوا يظنون في الآلهة
{ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ
مُّوْبِقًا } ﴿٥٢﴾ [الكهف: ٥٢] ، { أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ
دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا } ﴿١٠٢﴾ [الكهف: ١٠٢] ، كما
تضرب سورة مريم مثلا لقصة إبراهيم ودعوته لأبيه بترك عبادة الأصنام التي لا
تضر ولا تنفع { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ
شَيْئًا } ﴿٤٢﴾ [مريم: ٤٢] .

٢. القراءات :

طرحت السور مجموعة من الخصائص التي تميز بها القرآن الكريم تعد من أبواب إعجازه ، ومن أسباب إعراض المشركين عنه في نفس الوقت.

فالقرآن نزل للناس مبشرا لهم بمثابة الهداية ومنذرا لهم بعاقبة الغواية {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} ١ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {١٠} [الإسراء: ٩- ١٠] ، وصفة القويم ووظيفة التبشير والإنذار تكررت في جميع السور {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} ١ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} ٢ {الكهف: ٢٠-٢١} ، {فَإِنَّمَا يَسِرَّتْهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} ٩٧ {مريم: ٩٧}

كذلك تبين الآيات شمولية القرآن واحتواءه على كل شيء {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا} ٨٩ [الإسراء: ٨٩] ، {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} ٥٤ {الكهف: ٥٤}

كما بينت الآيات أن حقيقة ما اشتمل عليه القرآن من عقائد وتشريعات وقصص هو وحي من الله تعالى {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} ٣٩ [الإسراء: ٣٩] ، {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} ١١٠ [الكهف: ١١٠] ، وهذه كلها علوم ما كان محمد صلى الله عليه وسلم ليعلم بها لولا أن أوحى إليه؛ ذلك لأن "محمدًا أمي، ليس لديه سوى ما يمكن أن يمنحه له وسطه الذي ولد فيه. وفي هذا

الوسط الفروسي الوثني البدوي، لا مجال مطلقاً للمشكلات الاجتماعية والغيبية (الميتافيزيقية)، فإن معارف العرب عن الحياة الاجتماعية والفكرية لدى الشعوب الأخرى ليست بذات قيمة " تؤهل رجلاً منهم أن يلم بمعارف الأولين وقصصهم ، وأسرار الكون وعلومه ، والشرائع وأحكام المجتمع وقوانينه، ويتجسد هذا المعنى على لسان إبراهيم عليه السلام حين قال لأبيه {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} {لمريم: ٤٣}

٣. النبي:

بينت الآيات حقيقة النبي ، ووظيفته التي كلفه الله بها ، أما حقيقته فقد أجمعت الآيات على عبودية النبي لله منذ مطلع السور {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ...} {الإسراء: ١} {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ...} {الكهف: ١} {ذَكَرَ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا} {لمريم: ١} وبذلك تنفي السور عن النبي أي قدرات خاصة وتؤكد بشريته {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} {١٤} قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا} {الإسراء: ٩٤-٩٥}، وينطبق ذلك على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث أعرض المشركون عن قبول الإيمان بالقرآن والإقرار به لأنه نزل على بشر مثلهم " فكان إعجاز القرآن مع الإقرار ببشرية الرسول عليه الصلاة والسلام، تحدياً جهرياً لهؤلاء الذين أبوا إلا كفوراً واستكباراً "، والفارق الوحيد بين الأنبياء وغيرهم من البشر هو اصطفاء الله لهم بالوحي {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ...} {الكهف: ١١٠}، ومن الصفات التي ألحقت ببعض الأنبياء زورا وبهتاناً ، ما نسب إلى عيسى من أنه ابن الله " فصلة المسيح

^(١) مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص ١٤٥، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.

^(٢) عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن أبي الأزرق دراسة قرآنية لغوية بيانية. ، ص ٦٦ ، دار المعارف، ط ٢، ب.ت.

عليه السلام بالله من حيث الخلق والتكوين كصلته بأي مخلوق سواه، ولا يؤثر في هذه الصلة التكوينية أنه عبد ممتاز، وأنه رسول من رب العالمين، وإن كانت طريقة تكوينه أنه وجد من غير أب، فإن ذلك لا يجعله إلهاً أو ابن إله " {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } ٣٥ { لمريم: ٣٤ - ٣٥.

وحددت السور وظيفة النبي التي أرسله الله من أجلها وهي تبشير المحسنين وإنذار المسيئين وذلك بتبليغ القرءان الكريم الذي أنزل عليه، والذي فيه علم كل شيء، و" مع ثبوت صحة نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ولا نبي بعده، ترتب عليه الإقرار بأنه أعلم الخلق بالأمور الإلهية، والمعارف الدينية، وأرغبهم في تعريف الناس بها وأقدرهم على بيانها وتعريفها"، فليس ما ينطق إلا وحي يوحى له.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الآيات التي تتحدث عن القرءان الكريم، والتي تتحدث عن الرسول يوجد فيها نوع من التوحد في الوظيفة {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} ١٠٥ {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} ١٠٦ { [الإسراء: ١٠٥-١٠٦]، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} ١ {فَيَمَّا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} ٢ {مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَرْسَلْنَا} ٣ {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} ٤ {الكهف: ٢٠-٢١}، {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا

^١ (محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرءان، ص ١٩١، دار الفكر العربي، ب.ت.

^٢ (مصطفى حلمي، الإسلام والمذاهب الفلسفية نحو منهج لدراسة الفلسفة، ص ١٤٣-١٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ١، ٢٠٠٥م

يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ { [الكهف: ١١٠] ، وسبب هذا التوحيد تكامل الدور، فالنبي إنما يبلغ عن ربه ، وما نزل عليه من قرآن معجز للإنس والجن مجتمعين دليل على صحة نبوته.

٤ البحث :

تناولت السور البعث على مستويين : الأول التمهيد لموضوع البعث ببيان هلاك الأمم السابقة التي عصت أمر الله ، فعاقبها الله بعذاب الاستئصال، وقد ركزت سورة الإسراء على هذا الموضوع، كما اختتمت به سورة مريم أيضا {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾} [الإسراء: ١٧]، {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾} [الإسراء: ٥٨]، {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾} [مريم: ٩٨]، في حين عرضت سورة الكهف مشاهد يوم القيامة ومهدت لها بضرب أمثلة لإمكان زوال الحياة الدنيا {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾} [الكهف: ٧- ٨] وما بين ذلك تطرقت الآيات إلى إنكار المشركين للبعث {وَقَالُوا أَأُتَدَّا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنْ أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾} [الإسراء: ٤٩] ، {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَأُتَدَّا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿١١﴾} [مريم: ١١] " والقرآن الكريم حين يكثر من تصريح هذه الآيات يقصد من ذلك إقناع المشركين المنكرين لهذا الركن الأساسي من أركان العقيدة الإسلامية بالحجة والبرهان الدامغ، مثبتا ذلك اليوم وتحققه ، ومثبتا جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، تارة بذكر الأدلة الواضحة والبراهين

الساطعة ، وتارة أخرى بذكر تصوير مشاهد النعيم ومشاهد العذاب ، لتقريب ذلك اليوم إلى الأذهان ، بأسلوب بديع وحكمة بالغة^١ .

والمستوى الثاني من تناول السور الثلاث لموضوع البعث هو وصف مشاهد يوم القيامة ، التي وردت بدافع تخويف المشركين من عاقبة ما ينكرون ويدعون {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا} {الإسراء ١٠}

وهذا التخويف يجعل مسؤولية الإنسان أكثر وضوحا في الاختيار بين الإيمان والكفر ، بعد علمه بالعاقبة الواضحة لكلا الخيارين {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} {٣١} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} {٣٠} أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} {٣١}

وترسم الآيات التي تصف مشاهد يوم القيامة حال المشركين وعجزهم عن الجدال أمام الله سبحانه وتعالى ، بخلاف ما كانوا عليه من حال في الدنيا ، وفي هذا الحال السيئ يذكرون بما علموا من عداوة إبليس لهم ، ويرون كيف أنهم في هذا الموقف المهيب بمعزل عن نصرته أو شفاعته من زعموا أنهم اتخذوهم شركاء لله ليشفعوا لهم عنده أو لينالوا منهم العزة {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} {٤٧} وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} {٤٨} وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} {٤٩} وَإِذْ قُلْنَا

(١) تصريف بلاغة القول ، ٢ / ٥٦٧

لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥١﴾ مَا
أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ
عَضُدًا ﴿٥٢﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٣﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا
عَنْهَا مَصْرَفًا ﴿٥٤﴾ { [الكهف] } قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ
دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي
الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ
كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ
الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا
﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا
كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾ {
[الكهف] } فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ
غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا
﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿٦١﴾ لَا
يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي
نُورِثُ مِنَ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ { [مريم] } فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ
لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا ﴿٦٤﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ
عِتْيًا ﴿٦٥﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا
كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنُذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا

﴿٧٢﴾ فَوَرِّبْكَ لِنَحْشُرُهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٧٣﴾
 لَنَنْزِعَنَّ مِنَ كُلِّ شِيعَةٍ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٧٤﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ
 أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧٦﴾ ثُمَّ
 نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٧﴾ {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ
 وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ
 اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ {

المبحث الثالث:

التناسب بين الفواتح والخواتيم

أولاً: التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها.

ثانياً: ربط الفواتح والخواتيم.

لا يخفى علينا الاهتمام البالغ الذي يوليه الشعراء والكتاب لمطالع كلامهم وخواتيمه ؛ للاعتبارات الفنية والتأثيرات النفسية التي يتركها المطلع والخاتمة في نفس المتلقي ، كما لا يخفى علينا الاهتمام الذي أولته كتب البلاغة في دراسة الفواتح والخواتيم ، باعتبارهما تمثلا بنيتين معنويتين فيهما دلالات مهمة في معنى النص ، ولتضمنهما أساليب فنية عامة وخاصة تتعلق بالغاية الدلالية للنص.

وتبرز أهمية فاتحة الكلام أو ما اصطلح عليه ببراءة الاستهلال^١ في أنها تشمل " أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله " ^٢ ، فهي بمثابة التمهيد للمعنى ؛ لأن " المتكلم يفهم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته به " ^٣ ، وهي أيضا بمثابة الإعلان عن المقصد الذي " يريد تكميله " ^٤ المرسل.

ففواتح الكلام ذات علاقة كبيرة بمعنى النص ودلالته ؛ لذلك يستنتج من كلام البلاغيين اعتناؤهم الشديد بدراسة الدلالة المعنوية في مستهل الكلام أكثر من البنية الفنية.

ولا تقل خواتيم الكلام أهمية عن فواتحه ؛ لأنها " آخر ما يبقى في الأسماع ، ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال " ^٥ لذلك كثيرا ما تأتي الخواتيم " متضمنة للمعاني البديعية " ^٦ التي تترك أثرا نفسيا خاصا في نفس المتلقي يتعلق بمعاني الكلام ومقاصده.

^١ (تحرير التعبير ، ص ١٦٨)

^٢ (الإتيان في علوم القرآن ٣ / ٢٦٩)

^٣ (خزانة الأدب ، ٤ / ٣٣٠)

^٤ (تحرير التعبير ، ص ١٦٨)

^٥ (تحرير التعبير ٦١٦)

^٦ (البرهان ١ / ٢٣٣)

وبذلك تكون للخاتمة وظيفة نفسية ذهنية هي تثبيت معان معينة في ذهن السامع ، قد تكون مستقاة من أهم محاور الكلام التي يريد المرسل إيصالها للمتلقى ، حيث تكون هذه المعاني مما " لا يحسن السكوت على غيره "¹.

وفواتح القرآن وخواتيمه تعد أبلغ الفواتح والخواتيم ، فالفواتح جاءت على أروع ما يجيء به البيان، وتجلت في دقة النظم " والتفنن في الفصاحة ما لا تقدر العبارة على حصر معناه "² ، وجاءت خواتيمها " في غاية الحسن ونهاية الكمال "³. واهتم العلماء المتقدمون والمتأخرون بالبناء الفني والدلالي لفواتح القرآن وخواتيمه ، وصنفوها تصانيف عديدة ، حسب تركيبها اللغوية ، وأكثر ما شغلهم في دراستها هو الأقسام المعنوية التي امتلأت بها كتب علوم القرآن مثل " البرهان " والإتقان " ، وقليل ما تطرقوا إلى دراسة كل سورة على حدة وتحليل فاتحتها وخاتمتها والبحث في وسائل التناسب بينها إلا ما أوردوه عرضاً من باب التمثيل لتظهيرهم للموضوع.

وكان منهجهم في دراسة فواتح القرآن وخواتيمه يقوم أساساً على حصر الاهتمام " في الآية التي تبدأ بها السورة والآية التي تختتم بها "⁴ ، لذلك تعددت وكثرت أنواع الفواتح والخواتيم عند العلماء. وهذا المنهج نجده يهتم بدراسة الفواتح والخواتيم وتحليلها لذاتها ، و " دراسة كل نوع من أنواع الفواتح والخواتيم بشكل مستقل ، وبيان ما اشتمل عليه من معان ودلالات ، وما تضمنه

¹ (خزنة الأب ٤/٢٦٤)

² (تحرير التعبير ص ١٧٢)

³ (تحرير التعبير ص ١٧٢)

⁴ (عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز الخضير ، فواتح السور وخواتيمها أنواعها ، دلالاتها ، مناسباتها ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ، ص ٣٥ ، إشراف د. مصطفى مسلم الأستاذ بكلية أصول الدين بالرياض ١٤١٧هـ)

من أسرار واعتبارات"^١ ، لكنه يغفل العلاقة الدلالية القائمة بين فاتحة السورة وخاتمتها ، ومن ثم العلاقة القائمة بينهما ومقصد السورة.

أما المنهج المعاصر فإنه يقوم على تحليل بنية فاتحة النص وخاتمته ، وإيجاد العلاقات البنيوية والدلالية بينهما ، ومن ثم دراسة أثر العلاقات في مقصد السورة ، ولا يتأتى ذلك إلا بالنظر أولاً "إلى مجموعة الآيات التي بدأت بها السورة أو ختمت ، والتي تكون في نفسها وحدة موضوعية مستقلة ، تبرز فيها معالم المقدمة أو الخاتمة بشكل واضح ، كأن يتم في المقدمة - مثلاً - التمهيد لموضوعات السورة ، ويتم في الخاتمة تلخيص العبر والدروس المستفادة منها"^٢.

ويتميز هذا المنهج عن منهج المتقدمين بـ "عمومه وشموله"^٣ ، حيث يندرج ضمن فاتحة السورة الواحدة وخاتمتها أكثر من نوع من الأنواع التي قسمها العلماء.

وهذا المنهج هو الذي سننتهجه في هذا البحث لأنه الأعون لنا في دراسة التناسب في السورة الواحدة ، والتناسب بين السور.

ومن الأمور التي يجب مراعاتها عند تحليل فواتح السور وخواتيمها هو تحديد الوحدة المقطعية التي تنتهيان عندها ، وقد يختلف التحديد من باحث إلى آخر حسب بؤرة النظر التي يحلل منها النص.

لذلك سيكون تحديدنا للمطالع والخواتيم وفق معيار استقلالية موضوعهما كوحدة معنوية متكاملة ، وليس هذا بالأمر الهين إذ إن الفصل اللغوي بين الفاتحة

(^١) فواتح السور وخواتيمها ، مناسباتها ، ص ٣٥.

(^٢) المرجع ، ص ٢٩

(^٣) المرجع السابق والصفحة السابقة

والخاتمة والوحدات المتصلة بها كثيرا ما يتعذر نتيجة اللحمة الشديدة بين مقاطع
سور القرآن الكريم.

وسوف نتناول في هذا المبحث بنية فاتحة كل سورة وخاتمتها من سورة العتاق
الأول، ودورها في تعزيز التناسب في كل سورة على حدة ، ودور الفواتح والخواتيم
مجتمعة في تدعيم الوحدة بين السور.

أولاً التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها

أولاً: سورة الإسراء

١- : فاتحة سورة الإسراء:

{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ١.

افتتحت سورة لإسراء بموضوعين مختلفين ، يمكن الاكتفاء بأحدهما والوقوف عليه كفاتحة للسورة ، فبينما تتناول الآية الأولى من السورة حادثة الإسراء وتنغلق عليها ولا تعود على ذكرها في باقي الآيات ، يتكرر ذكر موسى عليه السلام وبني إسرائيل في السورة مرتين الأولى في الآية الثانية وحتى ختام الحديث عن التوراة ، والثانية في عرض قصته مع فرعون واستخلاف بني إسرائيل للأرض بعده.

وبناء على القاعدة التي انطلقنا منها في تحديد الفاتحة والخاتمة بالوحدة المستقلة معنىً ، فسوف نقتصر في تناولنا لفاتحة سورة الإسراء على الآية الأولى لاقتصار موضوعها على حادثة الإسراء ، على الرغم من تسليمنا بشدة اتصالها بالآيات التي تليها.

وتتكون فاتحة الإسراء من المكونات المعنوية الآتية:

١- البدء بتسبيح الله ، والتسبيح هو " عَلمٌ للتزويه ... ودل على التزويه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله." ^١ مثل العجز والولد.

٢- ذكر معجزة الإسراء التي تجلت فيها قدرة الله تعالى التي تجاوزت حدود الزمان والمكان ، والتي أطلع الله تعالى بها نبيه على آياته العظيمة ، تثبيتاً لفؤاده.

٣- الثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان فضله والإعلام " بأنه رأس المحسنين وأعلاهم رتبة وأعظمهم منزلة ، بما آتاه من الخصائص التي منها المقام المحمود... فاستفتحت السورة بقصة الإسراء وقد تضمنت - حسبما وقع في صحيح مسلم وغيره - إمامته بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وفيهم إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء من غير استثناء" ^٢

^١ (الكشاف، ٢/٦٢١)

^٢ (نظم الدرر ٤/٣٢٨، ٣٣١)

٢- خاتمة سورة الإسراء:

{ وَيَالْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِمَصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ }

اعتبر الباحث عبد العزيز الخضير أن خاتمة السورة تبدأ من قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات....) [الآية: ١٠١]، وهو تحديد نخلف معه لاستقلال القصة عن المقطع الذي يليها ، لذلك نرى أن الخاتمة تتمثل في الآيات الأخيرة التي أشرنا إليها فحسب.

تتكون الخاتمة من المكونات المعنوية الآتية:

- ذكر القرءان الكريم وتعظيمه.
- بيان وظيفة النبي المتمثلة في نقل الرسالة وتبشير المحسنين وإنذار المسيئين.
- الشاء على العارفين بحقيقة القرءان من أهل الكتاب
- توحيد الله سبحانه وتعالى.

٣- : العلاقة بين الفاتحة والخاتمة:

إن العلاقة بين الفاتحة والخاتمة علاقة تناظر فكل موضوع ذكر في الفاتحة يناظره موضوع آخر ذكر في الخاتمة ، وهذا التناظر يخلق بين العناصر تكاملا يتضح من خلاله قوة التناسب في السورة .

أ- التسبيح والتحميد:

يقترن التسبيح بالحمد في الذكر "فإن التسبيح أينما جاء يجيء مقديما على التحميد ، ألا ترى أنه يقال : " سبحان الله والحمد لله .. وفائدة ذلك: أن التسبيح أول الأمر؛ لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي ، وهو إشارة إلى كونه كاملا في ذاته ، ونهاية الأمر كونه مكملا لغيره ، فلا جرم وقع الابتداء في الذكر بقولنا : سبحان الله ، ثم ذكر بعده الحمد لله ، تنبيها على أن مقام التسبيح مبدأ ، ومقام التحميد نهاية...." ^١ ، وتسبيح الله هو تنزيهه عن كل قبيح ، وقد اقترن في مطلع السورة بالإسراء ، و اقترن الحمد في خاتمة السورة بوحدانية الله وتفردة في الملك واستغناؤه عن الولي والشريك ، والرابط بينهما أن التسبيح في أول السورة تنزيه لله عن كل نقص كعجزه تعالى عن الإسراء بنبيه في ليلة واحدة ، وتنزيه له عن كل قبيح ومنه إلحاق الولد به

وجاء الحمد في الخاتمة مقترنا بتوحيد الله ، وتنزيهه عن الشريك والولد " لأن كل من له ولد فإنه يمسك جميع النعم لولده فإذا لم يكن له ولد أفاض كل تلك النعم على عبيده ، و أن الولد هو الذي يقوم مقام الوالد بعد انتفائه وفنائهم فلو

^١ (التفسير الكبير ، ٢١ / ٢٦)

كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الإنعام في كل الأوقات فوجب ألا يستحق الحمد في كل الأوقات".^١

ب- الإسراء والقرءاء :

محور السورة هو الحديث عن المعجزات والموازنة بين المعجزات الحسية والقرءان ، المختلف بطبيعته عن هذه المعجزات ، لذلك نجد أن في "فاتحة السورة وخاتمتها حديث عن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، ففي الأولى ذكر لحادثة الإسراء ، وهي الحادثة التي بهرت العقول وشغلت الأذهان قديما وحديثا... وفي الثانية ذكر للمعجزة الكبرى ، المعجزة الخالدة القرءان الكريم"^٢ وبيان لأفضليته على باقي المعجزات ، وقد عبرت السورة عن المعجزتين زمانيا ، بانقضاء الإسراء وخلود القرءان ، ومكانيا ، ف " الإسراء عبارة عن رفع ذاته من تحت إلى فوق ، وإنزال الكتاب عليه عبارة عن إنزال نور الوحي عليه من فوق إلى تحت لا شك أن الثاني أكمل"^٣ ، كما أشارت الآيات للفرق بين أهميتي المعجزتين "فمنافع الإسراء كانت مقصورة عليه ألا ترى أنه تعالى قال (لنريه من آياتنا) ، ومنافع إنزال الكتاب عليه متعددة ألا ترى أنه قال (لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين) والفوائد المتعددة أفضل من الفوائد القاصرة"^٤

^١ (التفسير الكبير: ٧١ / ٢١)

^٢ (فواتح السور وخواتيمها ، ٣٦٩)

^٣ (التفسير الكبير ٧٤ / ٢١)

^٤ (المصدر السابق ، الصفحة نفسها .)

ج- المواقف:

ذكرنا سابقا أن حادثة الإسراء كانت سببا في افتتاح جماعة من حديثي العهد بالإسلام، وارتداد هم ، حيث لم يصدقوا إمكانية سير محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس في ليلة ، فضلا عن إنكار المشركين لهذه المعجزة على الرغم من أنهم كانوا يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية كما أوتي الأولون، في حين تعرض الآيات الأخيرة موقف "مؤمني أهل الكتاب الذين انصاعوا لأوامر التوراة فصدقوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، واستمعوا لما جاء به من الحق، مؤمنين خاشعين" { ... إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكَونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝ } { ١٠٨ } { ١٠٩ }

٤- : ربط مقاصد السورة بالفاتحة والخاتمة:

افتتحت السورة بالحديث عن الإسراء واختتمت بالحديث عن القرآن ، وهما معجزتان من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، الأولى: حسية، والثانية: بلاغية، وقد سبق الحديث في هذا البحث أن السورة تثبت أن القرآن هو المعجزة العظمى^٢ للنبي بل في تاريخ البشرية ، وكل موضوعات السورة تتجه نحو تعزيز مكانة معجزة القرآن بإزاء المعجزات الحسية .

وقد جادل المشركون في القرآن ورموه بالسحر والشعر وحديث الكهان "فإذا كانوا قد وصفوه هكذا فلقد أقروا بأن له من السلطان على عقولهم وأفئدتهم ما

(^١) ٣- المصدر السابق ، ص ٣٧٠

(^٢) انظر المبحث الأول من الفصل الثاني ، بنية سورة الإسراء.

لم يعهدوا له شبيها إلا في أخذة السحر ونفوذ الشعراء والكهان^١ وهو اعتراف منهم بعجزهم عن تحدي هذا القرءان ، وإقرار أن القرءان معجزة توازي - بل تعظم - باقي معجزات الأنبياء السابقين.

وجاء القرءان مختلفا عن معجزات الأنبياء السابقين مثل ناقة صالح ومعجزات موسى التسع ؛ لأن " معجزات الأنبياء سائرت تدرج البشرية في مراحل تطورها من قديمها البدائي إلى عصر رشد الإنسان"^٢ فضلا عما امتاز به القرءان من بديع البيان والنظم ، الذي عجز الأقدمون والمحدثون عن معارضته ، أو كشف كنهه.

^(١) الإعجاز البياني للقرءان ، ص ٤٧.

^(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥

ثانيا: سورة الكهف

أ- فاتحة سورة الكهف:

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ
بِأَسَا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا
﴿٢﴾ مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَعْدَا ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ
عِلْمٍ وَلَا لِابْنَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ
بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا
﴿٨﴾ }

تتناول فاتحة السورة عدة موضوعات ارتبطت جميعها بمحورين هما نزول
القرآن منذرا ومبشرا ، ودور النبي ، وهذان المحوران بطبيعتهما متداخلان لا
يمكن الفصل بينهما.

أ- حمد الله تعالى على نزول القرآن :

بدأت السورة بحمد الله تعالى ، واقترن الحمد بنزول القرآن فـ"إنزال الكتاب
نعمة عليه ونعمة علينا ، أما كونه نعمة عليه فلأنه تعالى أطلعه بواسطة هذا
الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتزويه ، وصفات الجلال والإكرام ،
وأحوال الملائكة والأنبياء ، وأحوال القضاء والقدر ، وتعلق أحوال العالم السفلي
بأحوال العالم العلوي ، وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا ، وكيفية نزول

القضاء من عالم الغيب ، وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ، وتصيير النفس كالمرآة التي يتجلى فيها عالم الملكوت وينكشف فيها قدس اللاهوت ، فلا شك أن ذلك من أعظم النعم ، وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلأنه مشتمل على التكاليف والأحكام ، والوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، وبالجملة فهو كتاب كامل في أقصى الدرجات فكل واحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه^١ فجاء اقتران الحمد بذكر القرآن متناسبا ، ومتضمنا لمعان عقيدة كثيرة اكتنزتها دلالة الحمد.

ب- وظيفة النبي:

بينت فاتحة السورة أن النبي بشر كسائر البشر ، مكلف بالعبادة كما هم مكلفون ، لا يختلف عنهم إلا باصطفائه لمهمة النبوة المقتضية تبليغ محتوى الرسالة وتبشير من يتبع الوحي وإنذار من يعرض عنه ، وقد عبرت الفاتحة عن شخص النبي بإضافة صفة عبوديته لله سبحانه وتعالى بقوله " عبده " ، ولم يرد في القرآن الكريم وصف النبي بالعبودية إلا في مقام التكريم ، وعبوديتهم هي أعلى درجات التكريم.

ج- التوحيد:

أهم المضامين التي كلف النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغها هو توحيده تعالى ونفي الولد والشريك عنه. وإنذار الذين يزعمون أن لله ولدا ، أو شريكا افتراء من عندهم دون علم بحقيقة الأمر.

^١ (التفسير الكبير ٧٤/٢١)

٥- إثبات البعث:

وردت الإشارة إلى البعث في آيتين الأولى { لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ } ،
والثانية ببيان حكمة خلق الكون وبيان مآله ، وقد عرضته السورة بالتمثيل له
بمشهد حسي: { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }
وإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا } ، وعلى الرغم من أن الإشارة إلى معاني
البعث ضمنية إلا أن " للسياق دخلا في تحديدها والتوجيه إليها " مما يجعل تلك
الإشارات جلية في تضمنها موضوع البعث.

^(١) مسعود صحراوي ، التداولية عند علماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث
اللساني العربي، ٣٥، دار الطليعة بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

٢- خاتمة سورة الكهف:

{قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ٩٨} وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ٩٩} وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ١٠٠} الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ١٠١} أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِّن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا ١٠٢} قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ١٠٣} الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤} أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ١٠٥} ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا ١٠٦} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلًا ١٠٧} خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلًا ١٠٨} قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ١٠٩} قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ١١٠}

تناولت الخاتمة الموضوعات التالية :

البعث، وظيفه النبي، القرءان، التوحيد.

والرابط بين مكونات الخاتمة محوران هما (إثبات البعث، التوحيد).

أ- إثبات البعث:

عرضت الخاتمة مشاهد ليوم القيامة ورسمت فيها حال الناس من أصحاب الجنة وأصحاب النار.

ب - التوحيد:

أكدت الخاتمة كالفاتحة على موضوع التوحيد ، من حيث جمعت بين أطرف عدة منها انطلاقا من مضمون الوحي الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، والقاضي " بوحداية الإله وبإثبات البعث وبالأعمال الصالحة. فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة ، إذ جعل التوحيد أصلا لها وفرّع عليه الأصلان الآخران ، وأكد الإخبار بالوحدانية بالنهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى. "١ ، وقد اشتملت مشاهد يوم القيامة على تقرير لأهل النار من المشركين الذين اتخذوا أولياء من دون الله {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} ، وبذلك نجد أن السورة تضع بين أيدينا "النظرية الدينية العامة ، وهي أنه لا شيء في الوجود يستحق العبادة والخضوع سوى الله الواحد القهار ، وبنفس الفكرة يؤسس القرءان أيضا للشطر الثاني من هذه النظرية وهي الإيمان بالحياة الأخروية فكما أن اله تعالى هو الأول فهو أيضا الآخر ، إذ إليه مآلنا لتقدم له أعمالنا ونلقى منه الجزاء الذي نستحقه "٢ ، ويربط الآيات بين توحيد الله وإثبات الوحي فإن الآيات توجه المتلقي إلى تكامل الذي عليه أسس خلق الكون " فإذا كان الإيمان بالله يفسر وجود الطبيعة وظهور الإنسان ، فإن الإيمان باليوم الآخر يعطي الوجود الإنساني معناه ، وينفي عنه العبث "٣

١ (التحرير والتوير ، ٥٥/١٦

٢ (السيد تقى الدين، من الوجهة الأدبية في دراسة القرءان ، ١٦١/١ ، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٥م.

٣ (في الفكر والثقافة الإسلامية ، ص ١٢٨

٣- العلاقة بين الفاتحة والخاتمة:

تكررت العناصر الواردة في فاتحة السورة في خاتمتها ، مع اختلاف في الترتيب ، فجاءت الخاتمة بمثابة " رد العجز على الصدر في أبهى صورة" ^١ ، من الترتيب والتفسير.

فالفاتحة ورد ترتيب موضوعاتها على النحو التالي:

القرءان

دور النبي

التوحيد

البعث

أما الخاتمة فورد الترتيب فيها على النحو التالي:

البعث

وظيفة النبي

القرءان

التوحيد

أما من ناحية التفسير " فإن كل تعبير يستدعي تعبيراً آخر يوضح الموضوع" ^٢ ، فإن وصف الله تعالى للنبي بأنه (عبده) فسرته الخاتمة بتأكيد بشريته عليه الصلاة والسلام وبيان دوره الرئيس { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ } .

وأما تفسير وظيفة النبي بالتبشير والإنذار في الفاتحة ففسرته مشاهد يوم القيامة في الخاتمة ، حيث فسرت الإنذار بالنار ، والتبشير بالجنة. وتقريعه تعالى

^(١) التحرير والتوير ، ٥٥/١٦ .

^(٢) عادل فاخوري ، تيارات في السيمياء ، ص ١٦ ، دار الطليعة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ م .

للمشركين الذين زعموا كذبا وبهتاناً أن لله تعالى أبناء ، { مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ... } فسرت الخاتمة ما يجب أن يستقى منه العلم الصحيح وهو الوحي { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ... }

وقد اتحدت الفاتحة والخاتمة في تناول المحورين الرئيسيين اللذين دارت حولهما موضوعات السورة.

أ- التوحيد :

يعد التوحيد من أهم موضوعات السورة ، لذلك افتتحت السورة بـ " توحيد الله تعالى بأفعال العباد - وهو توحيد الألوهية - ... وختمت بالتصريح بالألوهية ، والحث على العمل الصالح الخالص " ^١ ففي الفاتحة نفي للولد وفي الخاتمة نفي للمشريك وتأكيد على وحدة الله تعالى وهو الأساس في " تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر. وتصحيح القيم بميزان العقيدة " ^٢ ، وإثبات البعث قائم على وحدانية الله ومقترن فيه بارتباطه بجملة ما يوحى من الأصول إلى نبي الله.

ب- العلم :

بينت السورة المصادر الصحيحة لاستقاء العلوم وخصوصا العلوم الإلهية التي يجهلها الأولون والآخرون ، وقد " حذر المنهج القرآني من تعقل ما لا مجال لتعقله من أمور العقيدة لأن العقل يعجز أن يصل فيها إلى حقيقة يقينية فكان ذلك صونا

^١ (الفواتح والخواتيم ، ٢٨٠)

^٢ (في ظلال القرآن الكريم ، ١٥/٤)

للحق "١" وسورة الكهف مثال لهذا المفهوم لـ "أنها انطوت على التعريف بقصة أصحاب الكهف ، ولقاء موسى عليه السلام الخضر، وما كان من أمرهما ، وذكر يأجوج ومأجوج وكل هذا إخبار بما لا مجال للعقل في إدراكه، ولا تعرف حقيقته إلا بالوحي والإنباء الصدق الذي لا عوج فيه ولا أمت ولا زيغ "٢، وجاءت الخاتمة مؤكدة لهذا المعنى ببيانها سعة علم الله تعالى فقد فسر الزمخشري الكلمات في قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي...) بقوله: " لو كتبت كلمات علم الله وحكمته "٣، وقد بينت الآيات أن مصدر العلم الصحيح هو الوحي.

٤- ربط الفاتحة والخاتمة بمحتوى السورة :

إن كل موضوع في الخاتمة ورد ذكره في الفاتحة، وكل موضوع في السورة متفرع عن موضوعات الفاتحة فتكون علاقة موضوعات السورة بالفاتحة علاقة تفصيل بعد إجمال ، وعلاقة موضوعات السورة بالخاتمة علاقة تفصيل بعده إجمال.

فقصة أهل الكهف مرتبطة بقوله تعالى {...وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} {٢} وبقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} {١٧}.

(١) سامي عفيفي حجازي، الاستدلال القرآني، منهجه ومميزاته، مجلة الجامعة الإسلامية، تصدر عن الجامعة الإسلامية للعلوم، ص ١٢١، ع ٦٤، س ١٩٩٥م.

(٢) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي: ملك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه المتشابه اللفظي من أي التنزيل / ١، ١٥٨، ١٥٩، تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٨٣م.

(٣) الكشاف، ٧٢١ / ٢

وقصة صاحب الجنتين، ومشاهد يوم القيامة مرتبطة بقوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ^(٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ^(٨) { وبقوله تعالى {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} ^(٩) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} ^(١٠).

وقصة موسى والعبد الصالح مرتبطة بقوله تعالى {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ...}.

وقصة ذي القرنين مرتبطة بقوله تعالى {لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ ...} باعتبار أن القصة انتهت بذكر يأجوج ومأجوج.

والتوحيد بما يتضمنه من نبذ الولد والشريك وإثبات البعث هو الرابط الرئيس لموضوعات السورة ، ففتية الكهف كانوا من الموحدين ، لجؤوا إلى الكهف فرارا بدينهم من قومهم المشركين ، وصاحب الجنتين أنكر بعث الله له فوصفه صاحبه بالمشرك، وفي قصة موسى يبعث الله الحوت الذي أعده موسى وغلأمه طعاما^١، وذو القرنين يصنع سدا يحجز يأجوج ومأجوج حتى يأذن الله لهم قبل قيام الساعة.

ونختلف في هذا البحث عما ذهب إليه مصطفى مسلم بأن موضوع الفتنة وأبوابها هو رابط الموضوعات في السورة ، ففي تعليقه على تفسير الإمام النووي*

^(١) انظر التفسير الكبير ١٤٧/٢١ ، نظم الدرر ٤٨٨/٤

* هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين، مولده في (نوى، من قرى حوران بسورية) عام واحد وثلاثين وستمائة، ووفاته فيها عام ستة وسبعين وستمائة للهجرة، تعلم في دمشق، وأقام بها زمنا طويلا، من كتبه "تهذيب الأسماء واللغات"، "منهاج الطالبين"، "تصحيح التبيين"، "المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج". انظر: الأعلام، ١٤٩/٨

لرواية مسلم* عن الرسول صلى الله عليه وسلم ((من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال)) ((وفي رواية من آخر الكهف))^١ الذي قال فيه النووي : قيل سبب ذلك - أي العصمة من الدجال - ما في أولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال^٢ ويفسر مصطفى مسلم الفتن بقوله: "فسورة الكهف عرضت أهم الأمور التي تأتي الفتنة من قبلها ففي قصة أصحاب الكهف ذكرت فتنة السلطان، وفي قصة صاحب الجنيتين عرضت فتنة المال والرجال ، وفي قصة موسى والخضر عرضت فتنة العلم - ولو بشكل خاص - ، وفي قصة ذي القرنين عرضت فتنة الأسباب والعلم التطبيقي التجريبي ، وفي كل ذلك عرضت السورة حقائق هذه الأمور في ضوء المبادئ التي ذكرتها الافتتاحية وأقرتها الخاتمة"^٣ ويفسر مصطفى مسلم تسمية السورة بالكهف قائلاً "فإن الكهف الذي يأوي إليه قارئ هذه السورة كهف معنوي من عناية الله سبحانه وحفظه وستره، فلا تؤثر فيه الفتن المعروضة، ولو كانت مثل قطع الليل المظلم"^٤، ولو أنه قال أن محو السورة هو العصمة من الفتن المهلكة وأهمها فتنة السلطان والمال والعلم والقوة والأسباب وأن العصمة منها في اتباع ما أوحى لكان حسناً.

* هو مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، أبو الحسين، توفي بنيسابور يوم الاثنين لخمس بقين من شهر رجب سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور. انظر: وفيات الأعيان، ٧٥٧/٥

(١) مختصر صحيح مسلم، للحافظ زكي الدين عبد العظيم، تحقيق عصام الدين الصبابطي، ص ٦١٢

(٢) يحيى بن شرف الدين النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، ٩٢/٦، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ب. ت.

(٣) مباحث في التفسير الموضوعي، ١٧٨،

(٤) المرجع السابق، ص ١٧٩

ثالثاً: سورة مريم

١- فاتحة سورة مريم:

{كهيعص ١} ذَكَرْ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٧ قَالَ رَبُّ أُنْصِرْ لِي غُلَامًا وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيًّا ١٥ }.

تناولت فاتحة سورة مريم الموضوعين التاليين:

أ- الحروف المقطعة:

وقد شغل بها المفسرون قديما، ونحن لسنا بصدد عرض أقوال العلماء في الحروف المقطعة ولكننا سنعرض ما يتناسب مع ما نسعى إلى إثباته في هذا

البحث وهو أن كل مقطع وموضوع في السورة يرتبط بما يتناسب مع باقي المقاطع أو الموضوعات، المحيطة به ، ومن هذه الآراء :

- ما أشار إليه الرازي من أن "كل سورة في أوائلها حروف التهجى، فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن" وعلى الرغم من أن الرازي استثنى من هذه القاعدة "ثلاث سور (كهيعص)، (ألم ❖ أحسب الناس) ، (ألم ❖ غلبت الروم) " ^٢ إلا أن ورود قصة زكريا بعد الحروف المقطعة جاء للإشارة إلى محتوى القرآن " أي: هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك " ^٣ فتدخل سورة مريم في مجموع السور التي بدأت بالحروف المقطعة وبذكر القرآن.
- ما ذهب إليه كثير من المفسرين بأن فائدة "تعدد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة" ^٤ التي يتكلم بها من نزل عليهم القرآن ومع هذا عجزوا على أن يأتوا بمثله.
- ذهب الزركشي إلى أن العلاقة بين السورة والحروف المقطعة التي تبدأ بها علاقة بنيوية - إذا جاز العبير - ، فأنت " تجد السورة مبنية على كلمات ذلك الحرف " ^٥ ، ودل على قوله بسورة ق " فإن السورة مبنية على الكلمات القافية: من ذكر القرآن ، ومن ذكر الخلق ، وتكرار القول ومراجعته مرارا ، والقرب من ابن آدم ، وتلقي الملكين ، وقول العتيد ، وذكر الرقيب... " ^٦ ، وهذا التحليل يلتقي مع مفهوم التناسب الإيقاعي في السور.

^١ (التفسير الكبير، ٦/٤٦٤ ، (تفسير سورة العنكبوت)

^٢ (المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

^٣ (الكشاف، ٣/٣

^٤ (أبو السعود، دار الفكر، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٣/٤١٣ ، ب.ت.

^٥ (البرهان في علوم القرآن، ١/٢١٨

^٦ (المصدر السابق ، الصفحة ذاتها

• ويرى الزركشي أيضا أن دلالات المعاني الصوتية للحروف المقطعة تتناسب مع دلالات المعاني في السورة، ويستمر في الحديث عن سورة (ق) "وسر آخر، أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة، والجهر، والقلقة، والانفتاح"، وقريب من هذا الرأي ما أشار إليه محمد بدري عبد الجليل في تحليله لدلاله ابتداء سورة مريم بحرف الكاف وعلاقته بمضمون قصة زكريا، ومن ثم مضمون السورة كاملاً "وإذا ما تساءلنا عن صلة كاف بهذا كله وجدنا العرب يقولون: بغير كاف؛ إذا أكلت أسنانه وقصرت من الكبر حتى تكاد تذهب"، ويربط بين دلالة الكاف على هذا الأساس مع دلالة الهاء "بيد أنها كانت مواكبة لهاء فتجد زكريا عليه السلام خائفاً من الموالى وراءه، لاجئاً إلى الله، داعياً ملبياً أمر الدعوة، والمولى يؤتيه سؤاله، ويلبي دعاءه ويحقق رجاءه مزيلاً أسباب الخوف مانحاً إياه الهبة، ثم يأتي عرض ما اندرج تحت الهاء بما فيها من خوف وامتنال وهبة وعطاء كما نرى صدد قوله تعالى { فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب } { ووهبنا لهم لسان صدق عليا }^٢ وكل هذه الآراء تتسجم مع مفهوم التناسب.

ب- . قصة زكريا:

هذه القصة كغيرها من قصص الأنبياء، والقصص القرآني التي ما كان للنبي أن يعلم بها بغير الوحي، وقصة زكريا جاءت بمثابة المقدمة لـ " قصة مريم وعيسى بما يتصل بها من شؤون آل بيت مريم وكافلها لأن في تلك الأحوال كلها تذكيراً برحمة الله تعالى وكرامته لأوليائه"^٣ وفيها رحمة وتسلية للنبي عن ما يواجهه من صعاب.

^١ (البرهان في علوم القرآن، الصفحة ذاتها

^٢ (محمد بدري عبد الجليل، براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور، ٢٤٦، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٨٤م، بيروت.

^٣ (المرجع السابق ص ٢٥٠

^٤ (التحرير والتنوير، ٧ / ٦٢ / ١٦

٢- الخاتمة :

{ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَفْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسْرُنَاه٩٦ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ نُحِْسُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ }

تتكون الخاتمة مما يأتي :

١- نفي الولد عن الله تعالى : وقد جاء النفي في جميع الآيات مقترنا بصفة "الرحمن" من أجل "تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمن ، والرد على المشركين الذين تقفروا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله عنهم (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن)"

٢. توعيد المشركين وتبشير المحسنين : بوصف مآل كلا الفريقين بعرض مشاهد يوم القيامة

٣. تعظيم القرءان وبيان التبشير والإنذار

(^١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٣- العلاقة بين الفاتحة والخاتمة :

علاقة تقابل وتفسير؛ لأن كل موضوع ذكر في المقدمة أعيد ذكره في الخاتمة مفسرا على نحو يتناسب مع مقصد السورة، فالحروف المقطعة في الفاتحة يقابلها ذكر القرءان في الخاتمة {فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} {٩٧} فالقرءان نزل بلسان النبي أي بلسان عربي هو من أصل الحروف المقطعة، ونزل ليبشر من يتبعه وينذر من يخالفه. وقصة زكريا التي تتجلى فيها قدرة الله تعالى على الخلق يقابها مشاهد يوم القيامة التي تمثل قدرة الله تعالى على إهلاك الكون وبعث الناس ليوم الحساب .

٤- علاقة الفاتحة والخاتمة بمضمون السورة :

تبدو العلاقة بين فاتحة السورة وخاتمتها جلية جدا، فمدار السورة علي نفي الولد والشريك عن الله تعالى ، استنادا إلى استغناؤه بقدرته عن كل شريك واكتفائه بذاته عن صاحبة والولد .

وفاتحة السورة وخاتمتها مبنيتان على ذكر القرءان ، وبيان قدرة الله تعالى ، وهذا القرءان المكون من الحروف العربية يتضمن قصص الأنبياء السابقين وكيف من الله عليهم واصطفاهم وأنجاهم ممن أشرك بالله من قومهم ، ويبين القرءان كيف تجلت فيهم قدرة الله تعالى التي لا يحدها حد ولا إمكان ، فليس بعث الناس بعد موتهم بأصعب من الخلق العجيب الذي بدأت به السورة. وهذا القرءان يحمل البشارة بالجنة لمن اتقى الله وأطاعه، وإنذار المشركين بمثل عذاب من سبق من الأمم الهالكة ، وبعذاب يوم القيامة.

ثانيا: دور الفواتح والخواتيم في تناسب السور:

للفواتح والخواتيم دور بارز في ربط السور بعضها ببعض سواء على صعيد الربط المباشر بتأكيد اللحمة بين السور أو على صعيد التجانس بين محاور موضوعات السور بالتركيز على أهم ما دارت حوله الفواتح والخواتيم من قضايا " فالقضايا التي نحصل عليها مباشرة بعد الالتفات إلى أول الكلام وتأويله تخزن في الذاكرة التصويرية، حيث تمثل جزءا لا يتجزأ من سياق تأويل الأقوال المستهدفة في المعالجة، فلا بد من رد آخر الكلام على أوله" ^١.

إن خاتمة السورة وفاتحة التي تليها تعدان بمثابة جسر التلاحم بين السورتين، فالإسراء تختم بتعظيم القرءان الكريم وبالأمر بحمد الله تعالى، والكهف تفتتح بحمد الله والثناء على القرءان "وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف" ^٢، وتختتم سورة الكهف ببيان حقيقة النبي، من أنه عبد من عباد الله لا يختلف عنهم إلا في الرسالة، وبالإشارة إلى طبيعة القرءان بأنه وحي يتضمن محتوى الرسالة وأهمها التوحيد، وتلتحم معها فاتحة سورة مريم بضرب مثال لقصة زكريا ووصفة بأنه عبد وأن قصته وحي من الله تذكر في القرءان.

واشتركت الفواتح والخواتيم في عدة محاور ربطت عن طريقها موضوعات السورة:

الله، النبي، القرءان

^١ (التداولية عند علماء العرب، ص ٣٩)

^٢ (تناسق الدرر، ص ٩٩)

عبرت سورة الإسراء عنه سبحانه بالاسم الموصول وصلته {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى} ، وعبرت سورة الكهف عنه بلفظ الجلالة (الله) { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا } ، وعبرت عنه سورة مريم بلفظ (الرب) {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا} {

وافتح السور وختمها بهذه الأسماء ذو علاقة مباشرة بمقاصدها "فاسمه الله دال على كونه مألوها معبودا ، تأله الخلائق: حبا وتعظيما وخضوعا ، وفزعا إليه في الحوائج والنوائب ، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنتين لكمال الملك والحمد ، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه: مستلزم لجميع صفات كماله ، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ، ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ... ، فصفات الجلال والجمال : أخص باسم ((الله)) وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة : أخص باسم ((الرب)) ، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرفقة واللفظ : أخص باسم ((الرحمن)) " ومقاصد السور وموضوعاتها تتبثق جميعا من دلالات هذه الصفات.

ومدار ذكر الله في الفواتح والخواتيم ، هو تعظيم الله تعالى وتوحيده ، فالإسراء بدأت بتسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص ، واختتمت بتوحيده ، والكهف بدأت بحمد الله على نزول القرآن ، واختتمت بتوحيده ، وسورة مريم بدأت تعظيم قدرة الله تعالى في قصة ميلاد يحيى ، واختتمت بتوحيده .

(١) مدارج السالكين ، ٣٤/١

٢- القرآن:

تناولت فواتح جميع السور القرءان ما عدا سورة الإسراء التي بموجب موضوعها افتتحت بمعجزة الإسراء، التي نستطيع اعتبارها توطئة للحديث عن القرءان، وختمت سورة الإسراء بالحديث عن القرءان ونزوله {وَيَا الْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [١٠٥] وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا [١٠٦] { [الإسراء] ومن ثم افتتحت الكهف بحمد الله على نعمة إنزال القرءان لما احتواه {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [١] { [الكهف]، وختمت ببيان أن القرءان وحي يتضمن تشريعات العقيدة {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [١١٠] { [الكهف]، وفتحت مريم بالحروف المقطعة {كهيعص} [١] { لمريم: ١}، وبذكر محتوى قصصي من محتويات القرءان ما كان لمحمد أن يعلمه لولا أن أنزله الله عليه وحيًا، وختمت السورة بتعظيم القرءان وبيان أهميته في التبشير والإنذار {فَإِنَّمَا يَسِرَّنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنَذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [٩٧] { [مريم: ٩٧]

النبي:

يتداخل ذكر النبي مع ذكر القرءان كثيرا حتى لا يمكن الفصل بينهما بل إن بعض الآيات المفسرة لوظيفة القرءان، تشابهها آيات تفسر وظيفة النبي، فالقرءان والنبي يشتركان في وظيفة التبشير والإنذار، ولكن الأول بالمحتوى والثاني بالتبليغ {وَيَا الْحَقُّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [١٠٥] {، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [١] { قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} [٢] { مَا كَثِيرٌ

فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ، {فَإِنَّمَا يَسِرَّتْهُ بِلِسَانِكَ
لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾} .

وبهذا نجد أن أن محاور الفواتح والخواتيم تلتقي مع محاور السور ومنها تتفرع
موضوعات السور وتتطور.

الفصل الثالث:

تناسب السر في الحقائق الأولى

تمهيد

يتسم القصص القرائي بسمات تميزه عن باقي القصص الفني فهو "الخبر المقيد بالدقة والصواب والحق واليقين والاعتبار والتدبر والحسن"^١ فالقصص ككل مكونات القراءان الكريم لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لذلك يقول تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القراءان وإن كنت من قبله لمن الغافلين) [يوسف: ٣].

وعلى الرغم من أن القصص القرائي جاء كأحد أساليب القراءان البديعة المعجزة، غير أنه جمع المستوى الفني الرفيع إلى المستوى الإنساني المفيد، الذي يقصد إلى الموعظة والإرشاد " وقد دلت التجربة التربوية على أن أشد المواعظ الدينية نفاذاً إلى القلوب ما عرض في أسلوب قصصي يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص والتأثر بالأحداث، والانفعال بالمواقف "^٢، فأسلوب القراءان الكريم فني يخلق المتعة والنشوة في القراءة، ومضمونه إنساني أخلاقي يكسب الخبرة والمعرفة بعد القراءة.

كما استوعبت القصة من الأغراض القرائية " عددا وفيرا من الصعب استقصاؤه، لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرائية، فإثبات الوحي

^(١) عبدالله إبراهيم السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، ص ٦١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط٢، ٢٠٠٠م.

^(٢) التهامي نفرة، سيكيولوجية القصة في القراءان، ٥٤٤، الشركة التونسية للتوزيع، ب.ت.

والرسالة، وإثبات وحدانية الله، وتوحيد الأديان في أساسها، والإنذار والتبشير، ومظاهر القدرة الإلهية، وعاقبة الخير والشر، والعجلة والتريث، والصبر والجزع والشكر والبطر، وكثير غيرها من الأغراض الدينية، والمرامي الخلقية، وقد تناولته القصة وكانت أداة له وسبيلا إليه^١ وهي كلها إذا درس أسلوب عرض القرءان لها في البنية السردية وخارجها، ودرست العلاقات المتداخلة بين البنيتين، فسوف تصل إلى نتائج ذات قيمة فنية عالية في أشكال التناسب في سور القرءان الكريم.

لذلك كان لزاما علينا أثناء دراسة التناسب ووسائله في القرءان الكريم أن نقف على القصص القرءاني، من حيث تناسب البناء السرد في السورة، وتناسب سياق السرد مع سياق الموضوعات "ومن هنا يبدو أن التفكير في البناء الداخلي أو البحث في مكوناته وآلياته يظل مرتبطا بضرورة البحث في اتساقه، وهي خاصية لا يمكن تشخيصها نظريا، لأنها ترتبط بالملاءمة القولية أو الحجاجية في علاقتها بالبناء الداخلي، بما يعنيه ذلك من نظام لساني داخلي ونظام استعمالي خارجي"^٢، تتضح من خلاله أشكال التناسب في السور القرءانية ذات البنية السردية.

وفي هذا المبحث سنسلط الضوء على التناسب القصصي من جهتين:
الأولى تناسب مقاصد القصص مع مقاصد السورة .
والثانية : تناسب البنية السردية في كل سورة.

^١ (التصوير الفني، سيد قطب، ١٢٤)

^٢ (عبد السلام عشير، عندما نتواصل نتغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ١٤ ، أفريقيا الشرق ٢٠٠٦م.

المبحث الأول:

التناسب بين مقاصد السور والبنى
السردية

سورة الإسراء:

١- تناسب مقاصد السورة مع مقاصد القصص.

٢- تناسب البنى السردية في السورة.

أولاً تناسب مقاصد السورة مع مقاصد القصص:

تتناسب مقاصد سورة الإسراء مع مقاصد القصص الواردة فيها، حيث إن " القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه - كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق - إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية ^١، فالقصص القرآني منسجم أسلوباً وموضوعاً مع السور القرآنية.

وإذا كان المقصد العام للسورة هو إثبات صحة الرسالة ومحتوى القرآن، وتفضيل القرآن باعتباره المعجزة الكبرى على باقي المعجزات الحسية فإن " من أقوى المثل التي تصور لك هذا الرأي موقف القرآن من المعجزات فلقد كان الأقدمون من أهل الكتابين ومن مضى من الأمم السابقة لا يؤمنون بالنبوة ولا يدينون بالرسالة إلا على بينة من المعجزات وجاء القرآن فارفع بالعقل البشري درجات ودرجات. ارتفع به حين فصل بين المعجزات وبين الإيمان بالرأي ^٢ والتفكير والتدبر في أمور الخلق والخالق ، وهي بعض المقاصد الجزئية لقصص سورة الإسراء.

والقرآن حين يتطرق إلى قضية المعجزة فإنه يقف " موقف من لا ينكر المعجزة لكنه ينكر أن يتوقف الإيمان عليها أو يتعلق بها ، ولذا نراه يذكر المعجزات التي عرفت لمن سبق النبي عليه السلام من الرسل ، فيذكر معجزات موسى وعيسى كما يذكر ناقة صالح وإلقاء إبراهيم في النار... لكنه في الوقت نفسه يرى ألا

^١ (التصوير الفني ١٣٤)

^٢ (محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ٩٤، مع شرح وتعليق خليل عبد الكريم، مؤسسة الانتشار العربي، ط٤، ١٩٩٩م.

تعلق لهذه بتلك ، فالآيات لم تأت دائما لتكون الدليل وإنما جاءت تخويفا وإنذارا ومن هنا أصبحت قليلة النفع عديمة الفائدة"^١، وهذا مصداق قوله تعالى {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}.

وما مطالبة المشركين للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بإنزال المعجزات كما نزلت على الذين من قبلهم إلا لأن" القوم إنما نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين الكبر والحسد ، أما الكبر فلأن تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد ، وأما الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية"^٢، التي كانوا يأملون أن تؤتى لأحد من أشrafهم ، كي يستمر بها تكبرهم وتفاخرهم.

إن الاعتداد بالعقل والسمو عن الماديات هو أحد مقاصد القصص في السورة ، وهو من المبادئ التي جاءت بها الرسالة لتحارب المواريث الفكرية القديمة التي كانت سائدة عند العرب كما كانت سائدة عند غيرهم " فلقد كانت مكة منطلق الدعوة المحمدية هي موطن السادة من قريش الذين قد لا يخفى على ذكاء بعضهم أن ما يدعو إليه القرءان لا يقاس بما في عقيدتهم من سخف وسذاجة ، ولكنهم يدفعونه بكل ما يملكون من قوة ، لأنه يؤول بهم في النهاية إلى القضاء على سيادتهم وفوارقهم واعتزازهم بأنسابهم ومقوماتهم الموروثة"^٣ وهو ما عملت قصص السورة على معالجته وعرضه في سياق يتقاطع مع سياق السورة.

وأول القصص طرحا في السورة هي بني إسرائيل ، التي توضح أثر الاستقامة على طاعة الله في دورة حياة الأمم من الضعف والقوة ثم الانهيار {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي

^١ (الفن القصصي في القرءان ١٤١

^٢ التفسير الكبير، ٢ / ٢١

^٣ سيكيولوجية القصة في القرءان، ١١٢ ، ١١٣

إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ { ، وحيث يرتبط علو الأمم وانحدارها بطاعة الله وإقامة شرعه ، واستمرار هذه الدورة مطرد بتعاقب الأجيال وزيادة الإيمان ونقصانه في قلوب العباد وسلوكهم ، " إن بني إسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء " ^١ فسلط الله عليهم من أباد ملكهم وسفك دماءهم وسبى نساءهم ، فعادوا من بعد القوة ضعفا ومن بعد العزة ذلا ، ثم تشير الآيات إلى الكرة الثانية من دورة ملك بني إسرائيل ، حيث عادت لهم " الدولة والغلبة والرجعة ، وذلك بعد توبتهم " ^٢ وتبين الآيات أن أهم مظاهر قوة الأمم التي يمنحها الله تعالى لمن ارتضى من عباده هي الإمداد بالمال والبنين ، التي يتحتم على الأمم استغلالها في طاعة الله ، وفي تعمير الأرض ، ورفعة البشرية وليس في الإفساد والتكبر.

وفي تسليط السورة الضوء على هذا الجانب من دورة حياة الأمم بعرض نعم الله على بني إسرائيل من الأموال والبنين ، وما آتاهم من علو في الملك والمقام " وما فعله في حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم ، كان ذلك تنبيها على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ومعصيته توجب كل بلية وغرامة " ^٣ ، من أجل ذلك ناسب أن تتضمن السورة آيات تشريعية تنظم للمجتمعات علاقاتها مع الله تعالى ، ومع أفراد المجتمع.

^(١) التفسير الكبير ، الرازي، ج ٢٠، ص ١٥٥

^(٢) فتح القدير، ج ٣ م ٢٩٠

^(٣) التفسير الكبير، ج ٢٠، ص ١٦٠

القصة الثانية هي قصة إبليس مع آدم التي جاء عرضها في السورة موجزا كشأن جميع قصص السورة "والإيجاز ليس إيجاز كلمات وجمل فحسب، ولكنه إيجاز موضوع وكذلك الحال في الإطناب"^١، وتعد قصة إبليس وآدم من القصص التي تكررت في القرآن، وفي كل مرة كان التكرار يحمل مقصدا مختلفا تبعا للغرض الذي سبقت له القصة، ويتجلى تفرد غرض القصة في سياق سورة الإسراء في تفعيل بعض السمات الوظيفية التي تؤديها شخصيات القصة فـ "حضور بعض الوظائف أو غيابها يؤثر في تغيير الصورة التي تأتي عليها القصة في كل مرة"^٢، وأكثر السمات بروزا في القصة سمة الكبر التي تمثلت في شخصية إبليس على صعيدين: الأول: صعيد فعلي، حين عصى الأمر الإلهي ورفض السجود لآدم {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ}، والصعيد الثاني قولني تلفظي حين أعرب عن ترفعه عن السجود لمن يظن أنه أدني منه رتبة (قال ءأسجد لمن خلقت طينا)، وبذلك تفرد إبليس في ذلك المقام عمن حوله بما صدر عنه من قول إذ إن "ما يهم سيميائية الكلام أساسا هو إبراز المقطع التحدثي الذي يسهم في تفريد الفاعل وتمييزه عن بني جنسه"^٣، فالقصة في هذا السياق تطرح الخلاف الطبقي والتكبر الذي يطفئ على بعض النفوس على أساس معايير مادية، وإبليس يمثل شخصية المتكبر الذي يرى في نفسه الأفضلية على بقية الخلق "متخيلا أنه أكرم من آدم عليه السلام من حيث إن الفروع ترجع إلى الأصول، وأن النار التي هي أصله أكرم من الطين"^٤، فأخرجه بذلك كبره عن طاعة الله، ودفعه إلى طريق المعصية، بل تزيين المعاصي للآخرين من بني آدم

(١) محمود السيد حسن مصطفى، الإعجاز اللغوي في القرآن في القصة القرائية، ص ١١٤، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، ط ١، ١٩٨١م.

(٢) محمد شرف خضر، بلاغة السرد القصصي في القرآن، ص ٢٩، دار العواصم للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٤م.

(٣) سيميائية الكلام الروائي، ص ١٨١

(٤) نظم الدرر، ٤/ ٤٠٢

حسدا لما علم من تفضيل الله لهم { قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَاحْتَرَبْتُكَ دُرِّيَّةً إِلَّا قَلِيلًا } ١٢ .

أما قصة موسى مع فرعون فترسم صورة لشخصية المتكبر الطاغية ، الذي يبصر بعينية الحقائق ثم ينكرها ، وتعطي بذلك السورة دليلا على أن " خوارق العادات لا تنفع في إيمان من حكم عليه بالضلال ، وتوجب . كما سنه الله . إهلاك من عصى بعذاب الاستئصال " ١ ، فقد رأى فرعون تسع معجزات أتت بها موسى ولكنه جحد بها واعتبرها سحرا { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْنَبَىٰ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا } ١٠١ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا { ويستمر فرعون في كبره وجبروته ، وكما هي عادة " الطاغية يلجأ إلى قوته المادية " ٢ في الانتقام من أعدائه على الرغم من علمه بضلاله وهداهم ، فتكون نهايته كما سن الله تعالى لكل متكبر جبار أن يهلك ويكون عبرة لمن سواه { فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا } ١٠٣ .

والقصة لا تخرج عن مقاصد القصص التي سبقتها في بيان أثر التكبر والتجبر ونهايته.

(١) نظم الدرر ٤ / ٤٣٠

(٢) في ظلال القرآن، ٤ / ١٥ / ٢٢٥٣

ثانيا: تناسب البنى السردية في السورة:

١- البنية الدائرية:

تتميز بنية القصص في السورة بأنها " مركبات ذات نواة دلالية واحدة ، يشكلها نظام النص " ^١ والقصص عامة تتجه في بنيتها العميقة نحو البنية الدلالية الدائرية ، فهي تبدأ من حدث مركزي تتوالد عنه أحداث فرعية تكرر نواته الدلالية أو تتغلق عليه انتهاء.

تميزت قصة بني إسرائيل بأنها بنية سردية دائرية متوالية في الاستدارة فهي تكرر حلقات الحدث المبني على تكرار النتيجة بتكرار السبب ، فالعلو والغلبة مبني على طاعة الله والامتثال لأمره وتطبيق شرعه ، والضعف مرتبط بعصيانته والتجبر في الأرض ، ثم العلو مرة أخرى بعد التوبة والرجوع إلى الاستقامة مرة أخرى ، لتقر السورة قانونا إلهيا يسود حياة الأمم والشعوب في قوله تعالى {وَأِنْ عُدْتُمْ عِدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} . {٨} ، وفي ذلك نهاية للحدث الدائري حيث لا استمرار لأسبابه ونتائجه بعد زوال الأرض وفنائها ، بل النتيجة هي واحدة ، والمآل واحد: إما الجنة وإما النار.

ويحمل انتهاء الحدث بحصد النتائج يوم القيامة تعزيز " القاعدة التي لا تتغير في الدنيا ولا في الآخرة ، والتي تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل ثماره ونتائجه ، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف ، وتجعل الإنسان مسؤولا عن نفسه ، إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، ولا يلومن إلا نفسه حين

^١ (عبد الله العشّي ، بنية الدعاء ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة البحرين ، ص ٢٠٢ ، ٢٤ ، ٢٠٠٠ م)

يحق عليه الجزاء" ^١ . فلا انفصال بين الحياة الدنيا والآخرة ، بل الرابط بينهما وثيق ، وعمل الإنسان في الدنيا ليس يذهب هباء ، بل يدخر ليجزى به يوم القيامة .

أما قصة إبليس وآدم فبناؤها السردية بناء دائري أيضا ، لكنه غير متكرر الاستدارة كبناء قصة موسى ، بل هو بناء مستدير تلتقي بداية الحدث فيه مع نهايته التقاء زمنيا ، فالحدث منشؤه بداية الخليقة حين أمر الله تعالى ملائكته . وكان في جملتهم إبليس . بالسجود لآدم وتفرد إبليس بالكبر والمعصية ، والمشهد لم يتحول إلى مكان أو زمان مجاوز لما هو عليه بل يعرض الحوار بين الله تعالى وإبليس امتداد أثر المعصية ، ورسم صورة الصراع المستقبلي بين إبليس وأبناء آدم منتهاها بالمآل إلى جهنم { قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا } ^{١٣} ، فيلتقي بذلك نهاية الخلق مع بدايته في مشهد زمني ومكاني واحد ، تاركا في النفوس أثرا بليغا ، خصوصا مع بيان مجال الصراع الذي سيدور بين إبليس والبشر { وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتِطْعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } ^{١٤} وجاء التعقيب مقررنا قانونا إليها آخر وهو أن التوكل على الله والالتجاء إليه هو وسيلة المسلم في النجاة من كيد الشيطان وغوايته { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } ^{١٥} .

أما قصة موسى وفرعون فعلى الرغم من خروجها عن البنية السردية الدائرية ، القائمة على تكرار النتائج بناء على تكرار الأسباب ، فإنها تقدم نموذجا فرديا للطغاة ، غير أن بها تتم استدارة قصص السورة ، فالبنية العميقة للنص يمكن " تحويلها وتوليدها لبناء خطاب لغوي يمكن في النهاية أن نخترله لنرتد به إلى النواة الدلالية بوصفها المكون النصي للخطاب " ^٢ فبها ينغلق الطرف الأخير من قصة

^(١) في ظلال القرآن، ٤/١٥/٢٢١٥

^(٢) (بنية الدعاء، ص ١٩٥)

موسى مع فرعون حين مكن الله تعالى بني إسرائيل من الأرض بعد هلاك فرعون، ثم أنذرهم بأنهم مجموعون مع باقي الأمم ليوم لا ريب فيه، فبنية القصتين "تمثل دائرة متصلة الطرفين كالحلقة المفرغة" ترتبط بقوله تعالى {وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} ﴿١٠٤﴾ مع الطرف الأخير من القصة الأولى في السورة، حين توعد الله بني إسرائيل بعذاب جهنم إن هم استمروا في تماديهم وطغيانهم {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُذْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} ﴿٨﴾، ويقول سيد قطب في هذا البناء: "وهذا المثل من قصة موسى وبني إسرائيل يذكر لتناسقه مع سياق السورة وذكر المسجد الأقصى في أولها وطرف من قصة بني إسرائيل وموسى. وكذلك يعقب عليه بذكر الآخرة والمجيء بفرعون وقومه لمناسبة مشهد القيامة القريب في سياق السورة ومصير المكذبين بالبعث الذي صورته هذا المشهد".^٢

كذلك تتماثل البنية العميقة للقصتين التي تقوم على تسليط الضوء على مراوحة حال بني إسرائيل بين الشدة والضعف، بين العبودية والملك، وعدم تعاظمهم واعتبارهم في كل مرة، وجحودهم لفضل الله عليهم الذي أبدلهم بالذل عزة والضعف منعة وقوة.

إن معالجة القرءان للهلاك بالأسلوب الذي جاء في سورة الإسراء يحمل في مضمونه الأساسي التهيب من معصية الله تعالى، وإرشاد للناس إلى اتباع سبل الحق "فتهيب القرءان بقوة الله وجبروته من خلال روعة الأحداث التي يعرضها لا تثير في النفوس خوفا غامضا من المجهول، لأنها ليست غاشمة تخبط خبط عشواء كما يقال، ولكنها قوة مبصرة يقودها الحق والعدالة. لذلك ترى القرءان يتعقب

^(١) الأسس الجمالية في النقد العربي ص ٢٢٦.

^(٢) المرجع السابق ٢٢٥٢ / ١٥ / ٤

تلك الأحداث بما يبررها ، أو يفسر أسبابها أو يبرز موطن العبرة فيها ، حتى يكون لها وقعها في النفوس بما يستخدم في التعقيب عليها من أساليب التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقدير^١ ما يرشد الناس إلى اتباع سبل النجاة ، وتجنب سبل الغي والضلال.

٢- البنية المكانية الزمانية:

يغلب على قصة موسى وقومه الفضاء المكاني ، فالأرض وما عليها من بشر وشجر وأموال هي موطن الصراع وغاية المطامع البشرية ، ومن خلالها يكتسب المكان السمات النوعية التي تجعل منه أساسا في بنية القصة فـ " ظهور الشخصيات ونمو الأحداث التي تساهم فيها هو ما يساعد على تشكيل البناء المكاني في النص ، فالمكان لا يتشكل إلا باختراق الأبطال له ، وليس هناك ، بالنتيجة ، أي مكان محدد مسبقا ، وإنما تشكل الأمثلة من خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال ومن المميزات التي تخلصهم^٢ وما يمثله هذا الواقع من علاقات متشابكة تربط الإنسان بمصالحه مع المفردات المكانية ، لذلك يشيع في مرتكزات القصة الاتكاء على المكان باعتباره موقع الحدث ومجال الصراع ، ونهاية المآل (الأرض ، الديار ، المسجد ، جهنم) ، وقد تركت أحداث القصة للأماكن انفتاح الشخصيات للتحرك ، وحين تختم القصة ختاماً مكانياً بإظهار جهنم أنها النهاية تجعل لجهنم حالا وهو الحصر ، وفسر بعض العلماء الحصر بالسجن والمحبس^٣ ، وبذلك تضيق الحركة في ختام القصة لأن الخاصية المكانية التي كانت متسعة في بدايتها متمثلة في الأرض والمسجد والديار باعتبارها ساحة

^(١) سيكيولوجية القصة في القرآن ، ٣٥٩

^(٢) حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي الفضاء ، الزمن ، الشخصية ، ص ٢٩ ، المركز الثقافي العربي ،

ط ١٩٩٠ م

^(٣) فتح القدير ٢٩٢/٣

للصراع والغلبة والملك ، تحولت إلى جهنم التي تتسع للكافرين والعصاة الذين تضيق قلوبهم ونفوسهم فيها.

أما قصة إبليس وآدم فالغالب عليها البنية السردية الزمانية فالأحداث تبدأ من الأزل السحيق وترسل تمثلاتها عبر الواقع المعيش لتحل في الأمد البعيد. في دورة زمانية بديعة الصنعة لسرعة دوران عجلة الزمان فيها " فإن سرعة السرد تتفاوت أشكالها من كونها تبلغ أقصى مداها في الإضمار " الذي سيطر على باقي الأحداث المترتبة على الحدث الرئيس ليلقي الظلال على نتائجه فحسب، استنادا للغاية التي سبقت لها القصة وهي التقريع في التكبر وبيان أن مآله المعصية حتما والخروج من رحمة الله إلى غضبه، فحديث إبليس اختزل قصة أبناء آدم على وجه الأرض، منذ بدء الخليقة وحتى قيام الساعة لغواية ذرية آدم فتعالیه على مادة الطين التي خلق منها آدم إشارة إلى بدء خلق آدم، وتوعده غواية ذرية آدم إشارة إلى ما كان ويكون وسيكون على هذه البسيطة من صراع بين ذرية آدم وإبليس، وطلبه المهلة حتى قيام الساعة، إشارة إلى نتيجة الصراع الذي سيحسم بعد فناء الأرض، ووقوف الخلق بين يدي الله يوم الحساب.

وتلتقي قصة موسى الثانية مع قصة بني إسرائيل في وجه آخر من أوجه التكامل السردى بينهما وهو تناسب البناء المكاني، فكلتاهما تركز على المكان في انطلاق الأحداث وسيرورتها، وقد سبق أن بينا المرتكزات المكانية في القصة الأولى أما في القصة الثانية فالمرتكزات منها الظاهر مثل الأرض { فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا } ومنها المضمرة مثل البحر المفهوم من سياق الغرق، ففرعون أراد إخراج بني إسرائيل من أرضهم وتبعهم حين فروا ليقضي عليهم، فكان أن غرق هو في البحر، وورث بنو إسرائيل الأرض.

(^١) الخطاب القصصي في الرواية، ص ١٣٧

سورة الكهف:

١- تناسب مقاصد السورة مع مقاصد القصص

٢- تناسب البنى السردية في السورة.

سورة مريم

١- تناسب مقاصد السورة مع مقاصد القصص

٢- تناسب البنى السردية في السورة.

أولاً: تناسب مقاصد السورة مع مقاصد القصص:

تقصد سورة الكهف إلى تصحيح النظر إلى العقيدة وإثبات " أن حقائق الأمور الإلهية لا تنال بنظر العقل، بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليه " ^١ والسورة تتميز بأنها عبارة عن سلسلة من القصص المترابط وفق غاية معينة " والأساس الذي يحسن بنا أن نسير عليه في فهم الوحدة للقصة القرآنية إنما هو الأساس الذي جعله القرءان نفسه أساساً للمجموعات القصصية التي جمع بينها في السورة الواحدة ووجد فيها البناء والتركيب، هو المقاصد والأغراض والموضوعات الدينية لا الأسماء والأشخاص " ^٢، وقصص السورة تكمل ما شرعت فيه قصص السورة السابقة من بيان " أن الحقيقة لا ترتبط بالقيم الزائلة من الأموال والبنين، وإنما القيم الإنسانية الصادقة ما ارتبط بميزان العقيدة وكفى بهذا شعوراً باللامتناهي، ويطلق للفكر الخيال والحرية في مجالاتها المثمرة. وكلما تعمق إحساس الإنسان في ملكوت الله وعظمته وخفي أسرارُه ازداد إيماناً بالله وبقدرته الباهرة " ^٣ وهذا ما ختمت به السورة مطلعها {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ^٤ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا { ^٥.

والتصحيح في مفاهيم العقيدة يتطلب فهم الوسائل الموصلة إليها، فقصة أهل الكهف تعبر عن مجموعة قليلة من الفتية الذين خرجوا عما تعارف عليه قومهم من المعتقدات والقيم، وفروا بقيم التوحيد إلى كهف يحميهم، إن خروج الفتية عن قوانين قومهم يمثل رسالة إلى زعماء قريش فـ " العرب أخذ سلطان القبيلة بنواصبيهم، واستحوذت العصبية القبلية على نفوسهم، فخضع الضعفاء للأقوياء، ودان العبيد للسادة " ^٤، ومقاصد القصة تبرز في الحوار الدائر بين الفتية أنفسهم

^(١) أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص ١٢٠، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٣ م.

^(٢) الفن القصصي، ٢١٣.

^(٣) سيكيولوجية القصة في القرآن، ٤٩١.

^(٤) سيكيولوجية القصة في القرآن، ١٢٤.

فالفيتية ينكرون ما يقوم به قومهم لأن لا علم لهم به والتوحيد علم إلهي يعود لله {هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} ، ونجد أن هذا التصحيح لمفهوم العقيدة يتخلل القصة على شكل توجيهات ؛لأن " من أثر خضوع القصة للغرض الديني أن تمزج التوجيهات بسياق القصة، قبلها وبعدها وفي ثناياها كذلك " ^١ وبذلك ينجو الفيتية من فتنة قومهم، وهذا المفهوم الصحيح للعقيدة يتضح من خلال إغفال القصة أسماء الفيتية ومكانهم والتصريح بعددهم؛ لأن الغرض من القصص القراءاني العبرة وليس التاريخ " ونلاحظ أن القصة تحرص في بعض الأحيان على أن تبرز أشخاصا بأسمائهم، أو هيئاتهم، أو تبرز الأماكن كذلك بأسمائها أو صفاتها، وفي بعض الأحيان تهمل ذلك أو تجاوزه فلا تذكر شيئاً منه، فهي ليست رواية تاريخية لا بد لها من السرد الكامل، والتحديد الواضح للأشخاص والأماكن بالأسماء والصفات، إنما هي قصة ذات هدف، تأخذ من حقائق الأحداث الجانب الذي يحقق لها الغاية ويوصل بها إلى الهدف " ^٢ . فالفيتية نموذج للمستضعفين الذين لا جاء لهم ولا ناصر في قومهم، والذين هداهم الله بنور التوحيد، وأخرجهم من ضلالة الشرك التي يعمه بها قومهم فهجروا قومهم وفروا من بطش سلطانهم وجبروتهم، وبذلك تكون قصة أهل الكهف كمعظم قصص القراءان تهدف إلى " الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث وتثبيت أسس العقيدة الإسلامية في النفوس " ^٣ . وهذا المغزى من إغفال أسماء الشخصيات يتوافق مع مغزى إغفال أسماء الشخصيات أيضاً في قصة صاحب الجنتين ، التي الغرض من عرضها - باعتبارها من الأمثال القصصية - هو استقاء الحكمة من الأحداث القابلة للوقوع في كل زمان ومكان، نتيجة تشابه النزعات الإنسانية عبر الأزمان، لذلك نجد أن السمة الغالبة في " الأمثال القصصية في القراءان أنها ترد مبدوءة بلفظة " التمثيل " تنبيهاً على كون المضمون القصصي يحوي بين ثناياه أخباراً عجيبة ووقائع مثيرة فريدة ينبغي

(^١) التصوير الفني ١٦٨

(^٢) الإعجاز اللغوي في القصة، ١٥٣

(^٣) فضل حسن عباس، قصص القراءان الكريم ، ٤٤ ، دار الفرقان، ط١ ، ٢٠٠٠م.

للقارئ أن يقف على بديع أسرارها ويستتبط جوهر أغراضها، وقد عرفنا أن العلماء أطلقوا على المثل أنه القول المستغرب، يعنون الكلام العجيب المتضمن للحكم الماثورة^١، وقصة صاحب الجنتين تمثل النزعة المادية ذاتها والتكبر بالمال والولد، وتصور حال من اعتقد أن هذه هي مقومات القوة الحقيقية "وكان من الحكمة والتبصر ألا ينسى القوة المطلقة التي تسيطر على حظوظ الناس في الحياة، وأنه مهما بلغ من سعة الرزق والقوة والسلطان فليس بخارج عن مشيئة الله وملكوته، لأن قوته إذا لم تساندها قوة الله تحطمت وانهارت"^٢

وإذا كان صاحب الجنتين نموذجا لمن استغل نعم الله في التكبر والعصيان، فإن قصة موسى مع العبد الصالح تعد نموذجا لمن فضله الله على خلقه ولكنه تواضع لمن هو صاحب فضل في العلم، وإن كان أقل منه منزلة.

ثانيا: تناسب البنى السردية في السورة :

تميزت البنية السردية العميقة في سورة الكهف، بوحدة البنى الفرعية المتمثلة في البنى الآتية:

١- الشخصيات المبهمة :

أغفلت القصص أسماء الشخصيات بشكل عام، فالسورة لم تتطرق إلى أسماء فتية الكهف، ولا زمن حياتهم، ولا مكان وقوع أحداث القصة، كما أنها لم تتطرق إلى اسمي صاحب الجنتين وصاحبه، ولا لاسم غلام موسى أو العبد

(١) حمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن، ٣٨٩، المكتب الجامعي الحديث، مصر، ط١،

٢٠٠١م.

(٢) سيكيولوجيا الشخصيات، ص ٢٥٦

الصالح ، بل إن بعض المفسرين شكك في كون موسى الوارد ذكره في القصة هو موسى نبي الله^١ ، وربما تكون العلة في ذلك مراعاة المفسرين لسياق القصص التي جاءت بنوع من الإبهام فيما يخص أسماء الشخصيات ، كما نجد المفسرين يختلفون في تفسير معنى اسم ذي القرنين^٢.

وعلى الرغم من اهتمام القراءان الشديد بعرض أنواع متعددة من الشخصيات، وبيان تركيبها النفسي إلا أنه يغفل عادة أسماء الشخصيات لأغراض فنية تتمثل في التركيز على عنصر الحدث الذي يرجى منه العبرة والفائدة ، وليس سرد أحداث أو التعريف بوقائع وشخصيات تاريخية ، " أما من الوجهة الموضوعية ففي تمثيله بأشخاص غير معينين لم يكن لهم وجود بأسمائهم في واقع التاريخ، ولكن وجود أمثالهم في واقع الحياة ممكن، وذلك من حيث مواقفهم وتصرفاتهم التي تملئها نوازع نفسية راسية في شعور الإنسان لأنها من طباعه وفي غرائزه"^٣ ، فالقراءان لا يعنى ببعض الشخصيات لذاتها مادام سلوكها سلوكا إنسانيا متجذرا، تنطبق عليه سنن النفوس وتغيراتها باعتبار أن الطبيعة البشرية واحدة، لها نفس الأهواء والغرائز، وأن الشريعة جاءت لضبط الأهواء والغرائز من أجل إرشاد البشرية إلى طريق الهداية ، " وتكون الشخصية بمثابة دال من حيث إنها تتخذ عدة أسماء أو صفات تلخص هويتها ، أما الشخصية كمدلول فهي مجموع ما يقال عنها بواسطة جمل متفرقة في النص ، أو بواسطة تصريحاتها ، وأقوالها وسلوكها"^٤ التي تحدد الخصائص النفسية للشخصية ، ومن ثم تبين بواعث سلوكها ومبررات أفعالها ، فيفهم من خلال ذلك كله المقصد من الأحداث، والتفسير للنهايات.

^(١) انظر التفسير الكبير ١٤٣/٢١ ، فتح الباري ٢٨٢/٨ .

^(٢) المصادر السابقة

^(٣) سيكيولوجيا القصة ، ٢٤٧

^(٤) حميد الحميداني ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ، ص ٥١ ، المركز الثقافي ، ط ٣ ، ٢٠٠٠ م.

تميزت القصص جميعها ببنية سردية حوارية أكسبتها طابعاً يشيع فيه التوجيهات "وموضوعات الحوار في القصص القرائية هي الموضوعات الدينية في الغالب وهي الموضوعات التي بسببها قام بين النبي عليه السلام وقومه جدال عنيف وتلك من أمثال الوجدانية والبعث وكون الرسل من البشر وليسوا من الملائكة وإحداث الأمور الخارقة أو المعجزات للدلالة على النبوة وغيرها "، ونجد أن سورة الكهف يتركز فيها "عنصر الحوار والذي يقصد فيه القراء إلى بث الآراء والأفكار وتقرير الدعوة الإسلامية، ثم هدم العقائد الباطلة ومحو أثرها من النفوس" ^٢ وهو ما تمثل على لسان فتية الكهف من التوحيد {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ بِهِمْ سُلْطَانٍ بَيْنَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾} فحوارهم يدور حول توحيد الله في هذا المشهد، وأن الله واحد وأن ما يقوم به قومهم هو ضرب من الجهالة، التي لا علم لهم بأصلها. وفي مشهد ثان يركز حوارهم أيضاً على علم الله فيما جرى لهم {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٦﴾}.

أما الحوار الدائر بين صاحب الجنتين وصاحبه فيقوم حول حقيقة البعث وتأكيد وقوعه {وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾}

(^١) الفن القصصي في القرآن، ٣٢٢

(^٢) السابق ٢٩٦

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ { والبعث من أسس العقيدة الصحيحة التي يجب أن يسلم بها من يعبد الله.

أما الحوار بين موسى والرجل الصالح فيتمحور حول السلوك الإسلامي القويم ، والذي قد يرى ما ظاهره نقض لتشريعات الله المسلم بها ، ولكنه يخفي في طياته حكمة إلهية ، وتدييرا من لدنه ، فيهما صلاح للناس ، ومقاصد لا يدركها إلا من آتاه الله من فضله علما لدنيا. { قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿١٨﴾ } {فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿١٩﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٢٠﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٢١﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٢٢﴾ } " وأهمية الحوار أحيانا قد تضاهي أهمية السرد بل وقد يحل في بعض الحالات محل السرد ويصبح الدور كله منوطا به ، وهو دور مزدوج يفوق عبئه ذاك الذي يقوم به السرد المجرد ، إذ عليه من جهة أن يؤدي وظيفته الأولية كحوار ، وعليه من جهة ثانية أن يؤدي وظيفته الإضافية كسرد " وهذا ما أفاده الحوار في الجزء الثاني من قصة موسى والعبد الصالح ، حيث فصلت إجابة العبد الصالح في سرد الأحداث التي كانت ناقصة ، والتي كان يسأل عنها موسى في أول الرحلة { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَافِكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٢٣﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٢٤﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ

(^١) نجيب العوي ، مقارنة الواقع في القصة القصيرة المغربية من التأسيس إلى التجنيس ، المركز الثقافي العربي ، ط ١٩٨٧م ، ص ٥١٠

يُنْدِلُهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ {

وعلى الرغم من أن الآيات تعرض حديث الرجل الصالح في بنية تبدو في ظاهرها غير حوارية، إلا أنها في أساسها بنية حوارية، فحديثه مترتب على الأسئلة التي طرحها موسى أول القصة ولم يتلق الإجابة عنها، كما أن نسق كلام العبد الصالح قائم على أساس تداول الحديث بينه وبين موسى، فقول (أما السفينة / أما الغلام / أما الجدار) يقصد به (أما جواب سؤالك عن : السفينة / الغلام / الجدار) فتكون بذلك " الدلالة الموجلة أو المعلقة " التي اكتتفت أحداث الجزء الأول قد فسرهما مفهوم الحوار الأخير أو مفهوم كلام الرجل الصالح.

٢- الرحلة:

تميزت جميع القصص في السورة بهيمنة الظاهرة المكانية فيها، فالكهف والجنات وموقع الصخرة ، وملتقى البحرين ، والمواقع التي جابها ذو القرنين كلها أماكن كان لها دور بارز في إظهار مضامين القصص " فالمكان بهذا الاعتبار هو بمثابة العمود الفقري للنص، وبدونه تسقط العناصر والوظائف الأخرى في الفراغ، وتتلاشى من تلقائها وجوبا ومن هنا فقط تنجم مركزية وأهمية المكان في النص، أما بالنسبة للخصائص الدلالية والفنية للمكان، فهي من طبيعة ونوع الخصائص الدلالية والفنية للعناصر والمكونات الأخرى التي تتناضد وتتآلف فيما

(١) جبرار جينيت ، خطاب الحكاية بحث المنهج ، ص ٦٧ ترجمة محمد معتصم ، عمر حلمي ، عبد الجليل الأزدي ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ط ١ ، ١٩٩٦م

بينها مؤسسة بنية قصصية محددة^١، كما أن الوصف المحدود لبعض مظاهر المكان في القصة كان ذا "وظيفة توضيحية أو تفسيرية: أي أن تكون للوصف وظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكيم"^٢ فوصف الكهف واستدارة الشمس حوله كان للدلالة على تهيئة الله تعالى هذا الكهف بما يتلاءم مع احتياجات الفتية الطبيعية حماية وحفظا من الله لهم ، ووصف الجنتين كان لبيان ما منح الله صاحبهما من الخيرات والنعم وكيف يبذل الله تعالى النعم على من أنكر فضل الله عليه، كذلك وصف اتجاهات رحلة ذي القرنين كان لبيان ما أنعم الله عليه من الأسباب والتمكين ، فوظيفة الوصف في القصص هي إظهار إنعام الله تعالى على عباده وقدرته في التفضل والمنح.

وتميزت القصص جميعها ما عدا قصة صاحب الجنتين بظهور مفهوم الرحلة المرتبط بمدلولات المكان ارتباطا وثيقا، فالمكان "يمضي مع المعنى في سياق واحد إنه ناتج حتما عن تغيير موقف الإنسان من الواقع"^٣، فعندما يئس الفتية من قومهم فروا إلى كهف يحميهم من بطشهم وجبروتهم، وعندما طلب موسى العلم ذهب في رحلة يبحث فيها عن الرجل الصالح ليتخذه معلما، ثم انطلق معه في رحلة ثانية يعلمه فيها مما علمه الله ، أما ذو القرنين فكانت رحلته للإصلاح وتعمير الأرض، وشبيهه من ذلك قول البقاعي في ربط قصة ذي القرنين بموسى والرجل الصالح "لما فرغ من هذه القصة التي حاص لها أنها طواف الأرض لطلب العلم ، عقبها بقصة من طاف الأرض لطلب الجهاد ، وقدم الأولى إشارة إلى علو درجة العلم لأنه أساس كل سعادة"^٤ وكذلك أشار البقاعي إلى تناسب البناء في قوله "ومن المناسبات الصورية أن في قصة كل منهما ثلاثة أشياء آخرها بناء جدار لا

^١ (مقارنة الواقع في القصة القصيرة المغربية ، ص ١٤٩)

^٢ (بنية النص السردي ، ص ٧٩)

^٣ (السابق، ص ٦٩)

^٤ (نظم الدرر ، ٥٠١ / ٤)

سقف له ، وإنما هو لأجل حفظ ما يهتم به خوف المفسد " ^١ وعلى الرغم من أن هذه السورة من أول ما نزل من القرآن غير أنها ربما تشير إلى ما تنبه إليه البقاعي . لمحا دون تعمق - في تفسير سورة طه دون أن يتعمق فيه " أن مبدأ النصرة بالهجرة " ^٢ فتهيئ بذلك السورة الرسول ومن معه نفسيا إلى الهجرة عن مكة والتحول إلى مكان آخر ، يهيئ لهم فيه الله مقومات النصرة والغلبة .

وبالعودة إلى قصة صاحب الجنتين التي تفردت بعدم ذكر الرحلة فإن دلالة تغير المكان التي تفهم من مضامين الرحلة قد تمثلت في القصة من حيث تغير السمات الدلالية للمكان ، فالجنتان كانتا ملتقتي الأشجار كثيرتي الثمار يتوسطهما نهر ، وهذا الوصف يدل على الرغد والنعيم ، ثم تغيرت معالم المكان فأصبحت الجنتان خاويتين على عروشهما ، وقد غار النهر الذي بينهما .

وبذلك تلتقي الدلالات المكانية في قصص سورة الكهف وفي قصص سورة الإسراء باعتبار أن المكان الذي هو مكان المعاش والتمكين للبشر يتميز بالتغير والتحول ، والتداول بين العباد ، وهو مظهر من مظاهر الحياة الدنيا الزائلة .

٤- المفارقة:

تميزت القصص بالمحتوى العجيب والبناء الذي ساهم في زيادة هذا العجب ، فقصة الفتية تبدأ بإجمال القصة ثم تفصيلها " فكأن هذا التلخيص كان مقدمة مشوقة للتفصيلات " ^٣ ، وقد مهد للقصة بالنفي بطريق الاستفهام ، فما حدث لفتية

(^١) نظم الدرر ، ٥٠١ / ٤

(^٢) نظم الدرر ، ٤ / ٥

(^٣) من الوجهة الأدبية ، ١ / ١٢٩

الكهف وإن كان مما يثير العجب غير أنه مما يقره العباد من كونه لا يخرج عن قدرة الله تعالى.

وعلى الرغم من المضمون العجيب والمحتوى المعجز الذي تميزت به القصص غير أنها لم تفاجئ المتلقي، إذ إنه " من القواعد القصصية المعروفة أن القصة يجب ألا تفاجئ القارئ، فلا بد لكل حدث من تمهيد يسبقه، وأحسن ما يكون التمهيد إذا كان غير واضح، إذا التأم في نسيج القصة، بحيث لا ينبئ عما يمهده له " فقصّة موسى تمهد بإشارات عجيبة لمطلوب موسى وهو الوصول إلى مجمع البحرين دون أن تحدد القصة سبب تحديد المكان، أو سبب كون الصخرة علامة لمكان التقاء موسى بمن يطلب، وكثير من التفاصيل في بداية الرحلة لم تفسرها السورة، ولكنها أضفت جوا من العجائب اكتتف أحداث القصة، واشتد حين تكشف الأحداث عن عجائب ومفارقات في الأحداث تجلت شيئا فشيئا، فتلتقي بذلك أطراف الأحداث الغامضة منذ بداية القصة حتى تمامها، مما يخلق انسجاما في بنية القصة، ويحيطها بسياق واحد للمتلقي وهو سياق الغموض الذي يجعلنا نتقبل هذا الكم من الأحداث العجيبة شيئا فشيئا دون أن يثير فينا إحساسا بالمبالغة التي تسببها المفارقات الشديدة غير الممهدة لها في القصص التراثي العجيب. وقد يرى بعض النقاد " أنه كلما كان المشاهد على علم مسبق بما سوف يكتشفه ضحية المفارقة فيما بعد، كلما ازداد تأثير المفارقة في المشاهد نفسه " إلا أننا نجد جهلنا في فهم ما مر به موسى عليه السلام من مواقف يصعب على أي منا أن يقبلها، مشاركة من المتلقي لبطل القصة موسى عليه السلام في التعجب والدهشة فيصبح موسى عليه السلام وكأنه لسان حال المتلقي في نسيانه لما عاهد عليه العبد الصالح، وفي اعتراضه على ما يرى مما قد يبدو عليه أنه من منكرات الأمور، وتغدو حيرته حيرتنا، وقلة صبره هي ذاتها قلة صبرنا، ولهفته لمعرفة تفسير

(^١) ثروت أباضة، السرد في القصص في القرآن، ١٦ - ١٧، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ب.ت.

(^٢) خالد سليمان، المفارقة والأدب، دراسة في النظرية والتطبيق، ص ٢١، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٩م.

ما يحصل هي لهفتنا ، ثم تنتهي الأحداث بحسرتنا التي هي - بالتأكيد - حسرتة
على عدم صبره وانقضاء الرحلة سريعا وحرماننا من التمتع بباقي عجائب علم الله
وإحاطته بما يعجز الإنسان عن وعيه .

أولاً: تناسب مقاصد السورة مع مقاصد القصص:

سبق أن أشرنا في الفصل السابق إلى أن سورة مريم مقسمة إلى بنيتين الأولى بنية سردية ، والثانية بينة وصفية توجيحية. أما البنية السردية فتتلاحم فيها قصة زكريا وقصة مريم تلاحما شديدا ثم يفصلهما تعقيب قصير تتوالى بعده قصص مجموعة من الأنبياء بدءا بقصة إبراهيم عليه السلام ، ومن ثم سرد مجمل لذكر مجموعة من الأنبياء.

وحيث تقصد السورة إلى بيان قدرة الله تعالى وذكر ما هو معجز تدليلا على صحة الرسالة وصدق البعث فإن البنية السردية هي في مضمونها وبنائها تتحو نحو الإعجاز.

وتتجلى مظاهر الإعجاز المتعاضدة في السورة من خلال بدئها بالحروف المقطعة ، ومن ثم ربطها بالقصص العجيب الوارد فيها ، فقد سبق الإشارة إلى آراء العلماء في الحروف المقطعة وما تمثله من إحالات تحد للقوم الذين نزل عليهم القرآن ، أن هذا القرآن الذي لم يستطيعوا معارضته ما هو إلا نسيج من هذه الحروف التي تشكل لغتهم وكلامهم ، وهو إقرار بأن معجزة النبي هي معجزة بيانية تقوم على الإعلاء من شأن العقل وإعماله في التفكير والتأمل.

يعد ربط هذه الحروف بالقصص ضربا آخر من الإعجاز حيث " إنه كان معلوما من حال النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين ، وأقاصيصهم وأنبأهم وسيرهم. ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ، ومهمات السير ، من حين خلق الله آدم عليه السلام ، إلى حين

مبعثه^١ لذلك نجد جميع القصص تبدأ بقوله تعالى (ذَكَرْ أَوْ اذْكُر) وفي ذلك تأكيد " أن ورود هذه الأخبار في القصص القرآني إنما هو دليل النبوة وعلامة الرسالة وأنه لولا الوحي لما عرف النبي الأمي هذه الأخبار مع أنه لم يقرأ في كتاب ولم يتلمذ على من قرأ في كتاب^٢ فتلتقي الإحالات الإعجازية للحروف المقطعة مع إعلام النبي بقصص لم يكن ليحيط بها علما لولا وحي الله تعالى، مع المضمون المعجز لهذه القصص، لتكثف في السورة دلالات الإعجاز في اتجاهات متعددة.

أما المظهر الثالث من مظاهر الإعجاز فهو المحتوى المعجز ، فالقصص الواردة تسرد أحداثا معجزة ذات مدلولات تبرهن على وحدانية الله تعالى وعظم قدرته من جهة، وتخفف عنه تبعات الدعوة وما يلاقيه من أذى المشركين^٣ من جهة أخرى تثبيتا لفؤاده وأفتدة أصحابه بسرد واقع الأنبياء الذين لجؤوا بحاجاتهم إلى الله ، والذين عانوا مثل ما يعاني من صد قومه ومعاداتهم له. وقد سبق الإشارة إلى ما في مولد يحي وعيسى عليها السلام من عجب.

ثانيا: تناسب البنى السرجية في السورة:

سوف نجد أن القصص الواردة في سورة مريم تتكامل في بنيتها بالتحام قصتي زكريا ومريم ، ثم تشهد البينة تحولا موازيا للقصتين في قصة إبراهيم عليه السلام ، ثم تؤكد قصص الأنبياء المتتالية نمطا يتم بدوره مقاصد ثلاث القصص الأولى، وذلك عن طريق البنى المشتركة في قصص السورة، والتي تتمثل في البنى التالية:

^١ (أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن ، ص ٥٨ ، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٤ ، ب ت.

^٢ (الفن القصصي في القرآن ، ص ٥٨

^٣ (الفن القصصي في القرآن ، ٣٢٥

١- الخلوة:

كلتا القصتين تبدأ بخلوة؛ فقصة زكريا تبدأ بخلوته مع الله، يناديه ويبث إليه شكواه، وينزل فيه حاجته، وتعبير الآيات عن هذه الخلوة بقوله تعالى {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا} ونداء زكريا ربه يحمل دلالة خاصة تتلاشى معها آفاق المسافة البعيدة التي قد يظن البعض - جهلا منهم - أنها تفصل بين العبد وربّه، ويتبدد مع هذا النداء أوهام الأمنيات المستحيلة التي لا تعجز الله تبارك وتعالى " فصحيح أن الله لا يبعد عنه شيء والتباعد الملحوظ في النداء تباعد رتبة لا تباعد مكان، فالله هو العلي العظيم يعلو بسلطانه فوق مخلوقاته علوا كبيرا. فإذا نادى فليس لأن المنادى بعيد عنه في المكان، بل بعده هو انحطاط رتبته أمام قيوم السماوات والأرض " وإظهار الخضوع والتذلل من موجبات استجابة الدعاء، وفي قصة مريم تأخذ الخلوة بعدا آخر، فهي تتخذ من أهلها مكانا قصيا لتقضي حاجة ما {وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا { وتتطور الخلوة في قصة إبراهيم لتتحول إلى الهجرة والاعتزال {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي خَفِيًّا} وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا}.

وتفسير التحول الذي شهده مفهوم الخلوة إلى الهجرة، هو اختلاف السياقين " إذ ينتقل الخطاب من مستوى بنيوي إلى مستوى آخر تبعا لتوالي المستويات العقدية " فسياق قصة زكريا ومريم هو سياق الرحمة والموهبة، أما قصة إبراهيم

(١) عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، مناهج تطبيقية، ص ٢٥٧،

مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٦م

(٢) بنية الدعاء، ص ٢١٣

فتؤسس لسياق جديد وهو سياق الأذى الذي يلاقيه الأنبياء ليس من أقوامهم
فحسب بل من أقرب أهليهم.

٢- التعجب:

إن اقتران قصتي زكريا ومريم اقتران ذو دلالة نفسية والاقتران " هو من قوانين
التداعي لوجود حالتين نفسييتين معا في الشعور تذكر إحداهما الأخرى " ^١ ،
فكلتا القصتين حصل من شخوصها العجب أمام ما واجهها من أحداث، فعلى
الرغم من أن زكريا عليه السلام قد بادر بدعاء الله طلبا للولد، فإن تفاجؤه
بالإجابة ليس من قبيل إنكار أمر من أمور الله، وإلا لناقض نفسه في المبادرة
بالدعاء، وإنما هو " استفهام مراد منه التعجب، قصد منه تعرف إمكان الولد،
ولأنه لما سأل الولد فقد تهيأ لحصول ذلك، فلا يكون قوله (أنى يكون لي
غلام) إلا تطلبا لمعرفة كيفية ذلك على وجه تحقق له البشارة، وليس من الشك في
صدق الوعد، وهو كقول إبراهيم (ليطمئن قلبي)، فأجيب بأن الممكنات داخله
تحت قدرة الله تعالى وإن عز وقوعها في العادة " ^٢ .

أما تعجب مريم فهو تعجب المذهول من الأمر إنها دهشة من تدخل القدر في
حياته خارج سنن الكون وكان تساؤلها صادقا عن هذا الأمر {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ
لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} 

^١ (سيكيولوجيا القصة ، ٤٦٦)

^٢ (التحرير والتنوير ٢٤٢/٣/٢)

٢- وحدة الإجابة:

نتج عن مفاجأة زكريا ومريم بتبشير الله لهما بالغلام الصالح تساؤل عن كيفية حدوث هذا الأمر، وقد بينا سابقا دلالات هذا التعجب والاستفسار، أما الإجابة فقد جاءت واحدة لكلا التساولين {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} ١ {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلَنَجْعَلُكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} ٢ فالآيتان السابقتان بدأتا متشابهتين واختتمتا بما يتناسب مع كل حدث على حدة، فبرهنت الآية الأولى لزكريا على قدرة الله تعالى على وهبه الولد بالخلق الأول من العدم، وسأقت الآية الثانية لمريم الحكمة في خلق عيسى ابنا لها من دون زوج.

كما أن من علامات وحدة الإجابة وحدة الأمر بالصيام فقد أمر الله تعالى زكريا بالصيام عن الكلام مع قومه {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} ٣ وقد فسر العلماء أمر زكريا بالصيام عن الكلام لأن " الصمت من صنوف العبادة في الأمم السابقة "١.

وأمر الله تعالى مريم عليها السلام بالصيام عن التحدث مع الناس {فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} ٤ وأمرت حين تسأل عما تحمل بالإشارة إلى الغلام {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} ٥ ويعزى إحالة الجواب عن سؤال القوم إلى عيسى إلى "٢ أن كلام عيسى عليه السلام أقوى في إزالة التهمة من كلامها" كما أن الله تعالى جنبها الحديث معهم " كراهة

١ (التحرير والتوير ٧ / ١٦ / ٧٤

٢ (التفسير الكبير ٢٠ / ٢٠٧

مجادلة السفهاء" ، فأمر زكريا ومريم بالامتناع عن الكلام هو توجيه لهما بترك المجال أمام الأحداث الكبرى الواقعة لتفرض نفسها ، وليعبر الواقع الجديد عن نفسه للناس ، لأنه بواقعيته وباستوائه كحدث أمام الأعيان ، أقدر على قطع باب المجادلة والخصومة مع القوم الذين قد يبدر منهم العناد أو التكذيب.

وفي أمر زكريا ومريم بالصيام من باب العبادة والطاعة تناسب في الأحداث جعل من القصتين متساويين في أهم البنى السردية.

٤- الابن:

اشتركت قصتا زكريا ومريم في نعمة هبة الابن للمتقين باعتبار أن الذرية الصالحة " يرجى منها خير الدنيا والآخرة بحصول الآثار الصالحة النافعة " ، وترسم السورة ملامح مشتركة لكلا الولدين يحيى وزكريا {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} ١٢ {وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا} ١٣ {وَبَرًّا بِوَالَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا} ١٤ {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا} ١٥ ، {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} ٣٠ {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} ٣١ {وَبَرًّا بِوَالَدَتِي وَلَمْ يَجْعَلَنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} ٣٢ {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} ٣٣ { وهذه الصفات هي المرجوة من الابن البار والتي فيها صلاح الدنيا بطاعة الله تعالى وبر الوالدين ، وصلاح الآخرة لما سوف يترتب على طاعة الله وبر الوالدين من رضوان الله تعالى وحسن مجازاته.

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٨/٣/٢

ثم تجسد السورة هذه الخصال في شخصية إبراهيم عليه السلام، حيث تشهد القصة تحولاً من نوع آخر، ففي حين أن زكريا ومريم من المتقين ويحيى وعيسى من الأبناء البارين، فإن إبراهيم نموذج لشخصية الابن البار المولود لأب عاص، ويظهر ذلك في دعوة إبراهيم لأبيه وما اكتنفها من حنو وعطف {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۚ} ونظن أن هذه الآيات بينة المعاني، ولكن جدير بنا أن ننظر إلى التدرج الذي تدرج به إبراهيم عليه السلام مع أبيه في هذه النداءات التي تمتلئ عطفًا وحناناً^(١)، وإبراهيم ينتهج أسلوباً دعوياً قوياً، فهو يبدأ دعوته لأبيه باستفهام تعجبي يحث فيه والده على التفكير في أمر الأصنام التي لا تعي شيئاً، ولا تنفع ولا تضر، ثم يُعلمه بصدق دعوته، وأن ما يدعو إليه ليس من عند نفسه، بل إنه قد جاءه من مصدر حق هو الله تعالى، وأن إبراهيم لا يبغي من وراء هذه الدعوة إلا هداية أبيه إلى الخير والرشاد، ثم يبدؤه بالنصح بأن ما يعبد إنما هو عبادة للشيطان، لأنها طاعة للشيطان، وأخيراً يعلمه بالنتائج الوخيمة التي قد يجنيها الأب في حال عدم اتباعه لإبراهيم، ويتجسد حنو إبراهيم على أبيه في الخطاب، حيث إن بواعث الدعوة ونتائجها تخلو من الأغراض المادية أو النفعية، بل يبين إبراهيم أن الخير في اتباع الدعوة يعود على الأب فحسب.

ثم تعود السورة إلى السياق السردى السابق في هبة الابن البار للأبء الصالحين، فيكافأ إبراهيم عليه السلام بالولد الصالح الذي رزقه الله به بعد أن بلغ من الكبر عتياً فيتناسب البناء بين ثلاث القصص الأولى في السورة. {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ}

(١) قصص القرآن الكريم ، ٢٧٩

إن القصص تتركز في بنائها العميق على هبة الولد الصالح وبذلك تعد " النواة الدلالية والبنوية، فنقيس المركبات الأخرى عليه ، بوصف البنية الأولى بنية مجردة، والمركبات الأخرى بنيات مجسدة، ومبينة تشكلت داخل السياق " ، وقصص باقي الأنبياء جاءت تحمل دلالات الهبة والرحمة ، سواء بهبة الابن أو النبوة، فموسى وهبه الله أخاه هارون معينا له في دعوته {وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١} وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣} ، ثم تورد السورة ذكر باقي الأنبياء في سياق إنعام الله عليهم وتفضيله لهم على ذرية آدم (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ٥٨) وهذه القصص جميعا جاءت لتثبت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وتثبت قلوب أصحابه ببيان تفضيل الله تعالى لأنبيائه ورحمته لهم ونصرته، وعرض بعض ما لا قاه هؤلاء الأنبياء من صعاب.

(١) بنية الدعاء، ٢٠٢

المبحث الثاني:

تناسب سياق سور الحتاق الأول

تمهيد

وردت القصص التي تناولناها في سور العتاق الأول محاطة بسياق من الآيات متعدد الأساليب ، فمنها التشريعي ومنها الوصفي المتمثل في مشاهد يوم القيامة ، ومنها ما يندرج تحت أنواع الخطاب ، سواء الخطاب المباشر لشخص النبي صلى الله عليه وسلم ، أو الخطاب الموجه للمؤمنين ، أو الكافرين ، وكل هذه السياقات ذات علاقة بمضمون القصص ومبناها.

ودراسة السياق من أهم المباحث المرتبطة بالتناسب ، حيث إن "السياق يعني في دلالاته الأولى البنية اللغوية في اتصالها بما قبلها وما بعدها ، وهو ما نطلق عليه السياق اللغوي أو المقالي. ويعني في دلالاته الأخرى الظروف والملابسات التي تحيط بالحدث اللغوي أو غيره وهو ما ندعوه بالسياق غير اللغوي أو المقامي"^١ ، وهو بذلك يختزل في آليات دراسته جميع الآليات اللغوية والفنية المستخدمة في فهم التناسب في النصوص ، وتحليل أساليب الارتباط فيها.

وبذلك نجدنا نهتم في دراستنا للسياق في السور القراءانية ، بدراسته على مستويين ، الأول: دراسة البناء اللغوي للسورة ، فـ "إن ما يجعل السياق سياقاً مترابطاً إنما هي ظواهر في طريقة تركيبه ووصفه ، لولاها لكانت الكلمات المتجاورة غير آخذ بعضها بحجز بعض في علاقات متبادلة تجعل كل كلمة منها

(١) سالم عباس خداده ، النقد والسياق ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة البحرين ، ص ١١٣ ، ع ٢ ، ١٩٩٩م

واضحة الوظيفة في هذا السياق" ^١ ، وتجعل البنية الداخلية للنص واضحة ، من خلال كشفها عن التعلقات اللغوية في النص.

أما المستوى الثاني: فهو دراسة السياق المقامي الذي نتوصل إليه "بواسطة عمليات ذهنية استدلالية تشغل كل الإمكانيات التي يتوفر عليها الذهن البشري، من ذاكرة وقواعد منطقية وهواجس نفسية وسياقات اجتماعية ، تشمل ما يرتبط بها" ^٢ ، وهذا المستوى يكشف لنا بجلاء عن البنية العميقة للنص التي تتشكل على إثرها البنية الخارجية وتتفرع فيما بعد لبنى متعددة، مما يكسب النص بعدا تناسيبيا يتجاوز فيه التناسب الداخلي للمعاني إلى التناسب الخارجي، الذي يضيف على التراكيب والأساليب دلالات مضاعفة.

والقصة القرائية تعد من الأساليب الفنية المتنوعة التي يتخذ القراءان منها أداة بيانية في السورة الواحدة "فقد صرف هذه الأساليب وفق نظام بديع يقتضيه المقام ويطلبه السياق، فهو تنزيل من حكيم حميد. والقراءان حينما يصرف هذه الأساليب لم يقصد بذلك أنه جاء بالاستعارة لأنها استعارة أو بالمجاز لأنه مجاز، أو بالكناية لأنها كناية، أو ما يطرد مع هذه الأسماء والمصطلحات، وإنما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه وارتباط معانية ، فهو يستعير حيث يستعير ويتجاوز حيث يتجاوز ويطنب ويوجز ويؤكد ويعترض إلى آخر ما أحصى في البلاغة ومذاهبها" ^٣ ، وهذا التعدد والتنوع هو الذي يشحذ الهمم لتحليل الأساليب القرائية المتعددة، وتفسير الدلالات الجمالية فيها " إن أساليب القراءان الكثيرة تثير هذه الملكات النفسية أو جميعها عقليةً ووجدانيةً، قراءتها أو سماعها، واستشراق الغلماء إلى القراءان وبلاغته، إنما هو رصد لما ينعكس على مرآة قلوبهم. وتتفعل به طاقاتهم حساً وخيالاً وقلباً وعقلاً وما لا تعرف مما أودع الله في الإنسان من

^١ (تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ٢٠٣، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م.

^٢ (عندما نتواصل نغير ٥٠

^٣ (بلاغة تصريف القول، ٩٢٩

حواس وملكات تستجيب للجمال وتهتم به.^١ كما أن دراسة تعدد الأساليب في القرآن، هو الذي يصل به إلى الرؤية المتكاملة للقرآن الكريم باعتباره بنية واحدة متماسكة.

وفي الفصلين السابقين تم التطرق إلى بعض جوانب التناسب السياقي في السورة، خصوصاً في مبحث البنية، ولكننا في هذا المبحث سنركز على تناسب السياق السردي مع السياقات المتعددة المحيطة به، سواء السياق التشريعي، أو السياق الوصفي المتمثل في عرض مشاهد يوم القيامة، أو سياق الخطاب، لأن القصص كما هو معلوم لم ترد لذاتها، ولم ترد كعرض لأسلوب فني رفيع، ولم ترد في سياق السورة من باب الوعظ والعبرة، بل هي في الحقيقة مجموع كل ذلك، لذلك كان لا بد من فهم السياق اللغوي والمقامي المحيط بها، والذي جاءت بصدد.

وربما يقلُّ اعتناؤنا في هذا المبحث بالسياق المقامي، بسبب تسليط الضوء عليه بما يكفي في الفصل السابق.

(١) مصباح عبيد دراز، في البلاغة القرآنية، أسرار الفصل والوصل، مطبعة الأمانة ط١ / ١٩٩٦م

سورة الإسراء:

سياق الصلاة:

١. سياق الأنبياء.

٢. سياق الترف.

٣. سياق الكبر.

تتعدد السياقات في سورة الإسراء، ويمكن تقصي كل سياق على حدة حسب مقاصد السورة، وجميع السياقات تتلاقى وتتكامل لتكون سياقاً موحداً يشد من ترابط السورة. ولكننا سوف نركز على سياق واحد نموذجاً لدراسة بنيته وتفرعاتها، ومن ثم فهم دوره في تناسب مضمون القصص مع مضمون باقي بنية السورة.

أولاً: سياق الهلاك:

يعد سياق الهلاك من أكثر السياقات اتساعاً في السورة، حيث إن القصص الواردة في السورة تقصد - كما سبق الإشارة - إلى فناء الكون وما فيه ومن فيه، وبالتالي التأسيس لقضية البعث، كما أن الألفاظ الدالة على الهلاك والفناء منتشرة في آيات السورة.

وسياق الهلاك يتفرع إلى ثلاثة سياقات تتداخل فيما بينهما لتشكّل نسيجاً متشابكاً من البنية المتماسكة " فالسياق ديناميكي متحرك " ^١ هذه السياقات هي سياق الأنبياء، سياق الترف، سياق الكبر.

(^١) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ٢٩٦، عالم الكتب، ط ٤، ٢٠٠٤م.

١- سياق الأنبياء:

ورد ذكر الأنبياء مرتبطا بسياق الهلاك ارتباطا وثيقا، فجميع الأنبياء المذكورين تحمل الآيات مضمون هلاك أقوامهم، سواء بتفصيل القصص كما في قصتي بني إسرائيل وموسى، أم بالإجمال كما سنبين في سير باقي الأنبياء.

وأول الأنبياء ذكرا هو نوح عليه السلام، وقد ورد ذكره تمهيدا لقصة موسى الأولى {وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا} ٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} ٣ ثم ذكر مرة أخرى في التعقيب على قصة موسى {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} ٤.

ولنا أن نرى الدلالة الكثيفة التي يعطيها ذكر اسم نوح في سياق القصة، فمن حيث هو اسم علم فهو يحمل دلالات تاريخية نفهمها من الخلفيات المعرفية التي تقتزن بصفات أعلام المشاهير التي يستحضرها المقام عن طريق ارتباط أسمائهم بأحداث معينة متى ما "خطر العلم في ذهن أحدنا، وخطرت معه مجموعة من الصفات المعينة، التي ترتبط في أذهان كل من عرفوا صاحب هذا العلم أو اتصلوا به في تجارب سابقة وهنا يمكن أن نتصور أن هذا العلم ينتقل إلى وصف من أوصاف اللغة، متى أطلع دعا معه في ذهن الناس تلك المجموعة من الصفات." ١ واسم نوح عليه السلام ارتبط في أذهاننا بطول الدعوة مع شدة العناد من قومه، فقد لبث فيهم ما لم يلبثه نبي في قومه، كما أن الله تعالى "خص نوحا عليه السلام لأنه ما أملى لأحد ما أملى لقومه ولا أمهل أحدا ما أمهلهم، ثم أهلكهم أجمعين" ٢، فيتناسب اقتران ذكر نوح عليه السلام مع قصة بني إسرائيل،

(١) إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ٢٤١، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٨، ٢٠٠٣م.

(٢) نظم الدرر ٣٢٥/٤

لالتقائهما في سياق الهلاك ، إن اسم نوح يختزل قصة الطوفان كاملة ، وهي قصة الهلاك الأعظم الذي شهدته البشرية ، وعلى الرغم من عدم سرد أي حدث من أحداث قصة نوح عليه السلام مع قومه ، فـ " إن ما يساعد المتكلم على إبلاغ أكثر من المحتوى الحرفي للقول هو وجود خلفية من المعطيات السياقية المشتركة المتعددة والمعقدة والتي ليست في وعينا دائما ، ولكننا قادرون على استنتاجها بوسائل مختلفة " ^١ ، ومنها دلالات اسم العلم وارتباطه بالأحداث التاريخية والدينية كما وجدنا في اسم نوح عليه السلام.

فكان ذكر نوح في المرة الأولى لتذكير بني إسرائيل بالطوفان والهلاك السابق لخلقهم ، وذكره في المرة الثانية لتبئيرهم أن الهلاك سنة من سنن الله مستمرة حتى بعد قوم نوح ، فيكون هذا التذكير والتبئير من باب التقرير ببني إسرائيل الذين غرهم تقلبهم في البلاد ، واشتداد ملكهم وعلوهم في الأرض دون أن يذكروا فضل الله عليهم.

وهذا الأسلوب في طرح اسم نوح عليه السلام في سياق يتسم بالمرآحة بين التذكير والتحذير يتناسب مع سياق القصة التي تميزت بنيتها في المرآحة بين الغلبة والهزيمة.

وأما قصة موسى وفرعون فهي بمثابة المتممة للقصة الأولى في السورة على الرغم من وجود فاصل طويل نسبيا من الآيات ، فموسى صاحب أكثر المعجزات عددا لما أبداه فرعون وبنو إسرائيل من تكبر وعناد ، وهذا السياق يعيدنا لذكر نوح عليه السلام ، فإذا كان نوح أطول الأنبياء مكوثا في قومه للدعوة ولم يؤمن معه إلا القليل ولاقى ما لاقى من العناد والكفر ، فإن موسى أكثر الأنبياء معجزات ، ولم يؤمن من قومه إلا القليل ، وسياق الآيات السابقة للقصة يبين أن

^١ (عندما نتواصل نغير ، ص ٥٠)

المشركين طلبوا من محمد صلى الله عليه وسلم المعجزات ذاتها التي أوتيها موسى . كما يرى الرازي - { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ^{٩٠} } أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ^{٩١} } أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ^{٩٢} } أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ^{٩٣} } " واعلم أن المقصود من هذا الكلام أيضا الجواب عن قولهم (لن نؤمن لك) حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة فقال تعالى (إنا آتينا موسى) معجزات مساوية لهذه الأشياء التي طلبتموها ، بل أقوى منها وأعظم ، فلو حصل في علمنا أن جعلها في زمانكم مصلحة لفعلناها كما فعلنا في حق موسى فدل هذا على إنا إنما لم نفعلها في زمانكم لعلمنا أنه لا مصلحة في فعلها ^١ ، وبذلك يربط سياق السورة بين سرد قصة بني إسرائيل ، وبين من يماثلهم من مشركي قريش المعاندين ، فيلتقي السياق المقالي في السورة مع السياق المقامي للواقع الذي نزلت فيه السورة .

وإذا عدنا إلى تناسب ذكر نوح عليه السلام فإننا سنجد علاقة أخرى تناسب ارتباط ذكره بموسى - عليه السلام - في هذا السياق وهو أن كليهما كان الفرق وسيلة استئصال عدوهما ، فالتقي الشخصيتان فيما يمكن أن نسميه - إن صح التعبير - سياق الهلاك المائي .

ويرد في السورة ذكر داوود عليه السلام في قوله تعالى { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ^{٥٥} } فالآيات لم تفصل في سيرة داوود عليه السلام سوى ما وهبه الله تعالى من كتاب ، غير " أن السبب في تخصيصه بالذكر أنه تعالى كتب في الزبور أن محمدا خاتم النبيين وأن أمته خير الأمم قال تعالى { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ

^(١) (التفسير الكبير ، ٢١ / ٦٤)

الدُّكْرُ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥] وهم محمد وأمته ^١ ، فكتاب داوود يشير إلى أن الكافرين مهما تقلبوا في البلاد ومهما طغوا وحكموا العباد فإن الله ناصر عباده ومعلي رايته ، وهو تأكيد لمقصد قصة موسى الأولى التي تضمنت أن تقوى الله وطاعته سبب من أسباب قوة الأمم وعصيانه سبب في دمارها ، وهذه بشرى لأمة محمد ، بأن دولة المشركين سوف يهلكها الله كما أهلك دول بني إسرائيل ، وسوف تملو دولة الإسلام التي يقوم ملكها وحكمها على إقامة شرائع الله التي فصلت الآيات [٢٢ - ٣٨] .

وآخر الأنبياء ذكرا هو صالح عليه السلام ، فعلى الرغم من أن الآيات لم تشر إلى اسمه واكتفت بذكر قومه ، فإن معنى الهلاك مصرح به في الآية {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} ^{٥٩} ، وقد سبقت الإشارة إلى أن آية صالح كانت آية استئصال ، حيث إن من يطلب المعجزة ثم ينكرها يجازى بالهلاك ، وقد طلب المشركون - كما بينت الآيات - من النبي آيات محددة .

إن توالي ذكر الأنبياء المختلفة قصصهم في سياق واحد يؤكد على " ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد ، وقد كان المشركون في عصر النبي يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنبياء مع تباين أنواع النظم وبيان وجوه التأليف فعرفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية ولا يقع على كلامه عدد ^٢ ، فجميع هؤلاء الأنبياء تتداخل سياقات قصصهم المفصلة أو الموجزة أو المضمرة لتتذر المشركين وتخوفهم من وقوع عقاب الله عليهم .

^١ (التفسير الكبير ٢٠ / ٢٢)

^٢ (البرهان ٣ / ٣٢)

إن دلالات ذكر الأنبياء السابقين تحيلنا إلى السياق المقامي للسورة لأن "المقتضيات المقامية تكون حاضرة في النص، حيث تلعب دورة الملازمة بين السياق الداخلي والمقام الخارجي"^١ فالمشركون أعرضوا عن قبول الإسلام رغم ما رأوا من دلائل ومعجزات تدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وطلبوا معجزات تتناسب وأهواءهم، فنزلت الآيات تبين مصير الأقوام السابقين الذين جاءهم أنبياءهم بالمعجزات المتعددة فعصوهم.

٢- سياق الترف:

سبقت الإشارة إلى أن قصة موسى وقومه ذات بنية دائرية تبدأ بضعف الأمة ثم استقوائها وإغداق الله تعالى عليها بالمال والبنين والغلبة، ثم بمعاصي الأمم وإفسادها تتعرض إلى الانهيار والهلاك بالمعاصي والفساد، ومن ثم إثبات هذه الدورة وتأصيلها في سيرورة الحياة.

بدأت القصة بأمر بني إسرائيل بالتوحيد والتوكل على الله وتذكيرهم برحمة الله تعالى ومنته على البشرية بعد أن نجاهم من الهلاك في الطوفان، حين حمل من حمل من عباد الله الصالحين في سفينة نوح.

ويشيع في القصة سياق الترف حيث بينت القصة أن من يتقي الله يمدده بأموال وبنين {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} وفي التعقيب على القصة تبسط الآية الحديث عن الهلاك، موضحة أن الترف من أسبابه وأنه سنة تجري على من جاء من بعد قوم نوح كما جرى عليهم الطوفان {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا} {١١} وإنما خص المترفين بذلك الأمر، لأن المترف هو المتنعم

^(١) عندما نتواصل بتغير ٧٣

ومن كثرت نعم الله عليه كان قيامه بالشكر واجب، فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى مع أنه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق، فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبا^١ عقابا لهم على جحودهم النعم، وإعراضهم عن شكرها.

إن مضمون قصة موسى مع قومه والبنية الدائرية القائمة على تكرار النتيجة بتكرار السبب ناسب السياق الانفعالي الذي أحاط بها فالخطاب جاء توجيهيا وإرشاديا قائما على العلاقات المنطقية: السبب والنتيجة، والإقرار بالنتائج، فأيات التشريع ربطت كل تشريع بنتائجه المترتبة عليه { لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا }^{٣١} وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا^{٣٢} وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا^{٣٣} وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا^{٣٤} وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا^{٣٥} وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا^{٣٦} وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا^{٣٧} كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا^{٣٨} ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا^{٣٩} {

هذه البنية الدائرية تتطبق عليها سنن الكون، كتعاقب الليل والنهار وتوالي الأيام والسنين وانتهائها { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوُنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ

^(١) (التفسير الكبير، ٢٠ / ١٧٦)

النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَقْضِيًّا ﴿١٣﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْتَاهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٤﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٥﴾

"ومعلوم أن الزمن تقسيم إنساني محض يلائم وجود الإنسان وفناءه عن هذه الأرض المحدودة بمادتها وأجلها"، إن هذه الدورة هي دورة النعيم والترفع في الحياة كما مثلتها قصة موسى وكما هي واقع مرئي للجميع.

والترفع ليس دليلا على رضا الله على من أنعم، عليه بل هو استدراج في الدنيا وسوء عاقبة يوم القيامة (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا تُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾). والنعيم كذلك موضع اختبار للعبد فأشأه ينسى العبد ربه ، وحين يحتاجه ويمسه الضر يتذكره {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا ﴿٨٣﴾}. وليس العطاء والكرم إلا صفة إلهية يفتقرها الذين طلبوا من الأنبياء المعجزات المادية {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾}.

٢- سياق الكبر:

قصة إبليس وآدم ، هي قصة لبداية الحياة عند الملكوت الأعلى ، حين خلق الله تعالى الملائكة وآدم وإبليس ، ولكن إشاراتنا تتوجه نحو النتائج النهائية

^(١) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٩٢ ، دار الكتاب العربي ، ٢٠٠٣ م.

للحياة، حيث تشير القصة إلى أول معصية يعصى بها الله وهي الكبر من قبل إبليس ثم تشير إلى توطين إبليس نفسه على إضلال أبناء آدم حتى قيام الساعة {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَرِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾} ومن ثم تدخل البشرية في صراع مع إبليس، ومجال الصراع هم الأموال والأولاد، ومضامين القصة يحيط بها السياق اللساني ذاته فالآية {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾} تشير إلى لب الصراع بين البشر وإبليس وأدواته، فالشيطان ينزغ بينهم و"نَزَعُهُ مِثْلَ نَسْفَةٍ إِذَا طَعَنَهُ وَنَخَسَهُ وَمِنَ الْمَجَازِ نَزَغَهُ الشَّيْطَانُ كَأَنَّهُ يَنْخَسُهُ لِيَحْتَهُ عَلَى الْمَعَاصِي، وَنَزَغَ بَيْنَ النَّاسِ أَفْسَدَ بَيْنَهُمْ بِالْحَثِّ عَلَى الشَّرِّ" ^١ عن طريق المشاركة في الأموال والأولاد الذين هم مجال التكبر والتفاخر بين الناس في الحياة الدنيا، "والتعبير يصور في عمومته شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة" ^٢، وهنا يلتقي سياق الترف مع سياق الكبر عن طريق وسائل الكبر التي يستخدمها الشيطان لحث الناس على المعاصي، وإغوائهم بجعلها معيارا للتفاضل بين الخلق.

وقد ورد في الآية المفردات المركزية للقصة (الشيطان / عبادي) وهما أهم الكلمات التي تشكل سياق الكبر إذ اكتسبت كلمة (الشيطان) دلالة الكبر من السياق الدلالي لأحداث القصة ف" السياق هو المكان الطبيعي لبيان المعاني الوظيفية للكلمات" ^٣، في حين تدل كلمة عبد على التذلل والخضوع من معناها المعجمي، لأن "العبادة تجمع بين أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب

^١ (الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٧٤٦، دار إحياء التراث، ط ١، ٢٠٠١م.

^٢ (في ظلال ٢٢٣٩/١٥/٤

^٣ (مناهج البحث في اللغة، ص ١٩٩

تقول طريق مُعَبَّدٌ أي مذل، والتَّعَبُّدُ: التذلل والخضوع^١ "لله تعالى الذي تتجلى فيه دلائل الطاعة وتتجلي عنه علامات الكبر.

والمعصية الثانية التي اقترفها إبليس بعد أن رفض السجود، هي التجاوز في القول الذي وقع فيه ودل على التكبر والتعجرف وهو ما نهت عنه الآية {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا} ﴿٥٣﴾

وبما أن القصة تحمل تكبر إبليس وتعالیه على البشر فإن الآيات بينت تفضيل الله تعالى للبشر في سياقات متعددة وهي سياقات مقابلة لسياق الكبر المتعلق بسلوك إبليس وسلوك المشركين ، فاستخدمت الآيات لفظة عبادي قبل القصة في الآية (٥٣) وفي نهاية القصة {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} ﴿١٥﴾ وما تحمله هذه الآية من دلالات الرحمة التي تسير في سياق الآيات إلى قوله {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} ﴿٧٠﴾ .

وبذلك نجد أن السياق المقالي يكرر مجموعة من الألفاظ المعجمية بعينها ، ويعيد تركيبها في سياق القصة والسياق المحيط بها ، ليشد بها وشائج الربط بين قصة إبليس وآدم وقصة موسى وقومه عبر تكرار لفظتي (الأموال والأولاد) من جهة - ويشد بها وشائج قصة إبليس وآدم مع المحيط النصي به عبر تكرار (عبادي / الشيطان) ، وكما هو معلوم فإن الأموال والأولاد هما وسيلتا التكبر التفاخر بين الناس، من أجل ذلك استخدمهما إبليس للإيقاع بين البشر.

(^١) مدارج السالكين، ٦٦/١

وفي سياق قصة موسى وفرعون يولد السياق سياقاً مضاداً لكبر فرعون يقوى به سياق الكبر، وفرعون رأى من الآيات الكثير، وموسى في دعوته لفرعون يلفت انتباهه إلى أن الله خالق السماوات والأرض، وفرعون بتكبره يهدد موسى وقومه بإخراجهم من أرض الله ويتبعهم ليقضي عليهم في رحلة فرارهم، فيهلكه الله، ويورث موسى وقومه الأرض وما فيها.

والبنية العميقة للقصة تعيدنا لقوله تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا} ^(٧٦) سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا { حيث تقرر هذه الآية قانوناً إلهياً يحدد مصير المهتد والضال، ثم تأتي القصة بما ي مضمونها من الهلاك لنستشرف نهاية كل ضال. وبذلك يمكن اعتبار القصة بنية تفسيرية لمحتوى الآيتين (٧٦ ، ٧٧)، ولذلك سبقت القصة بقوله تعالى {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكَمًّا وَصَمًّا مَّا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كَلَمًا خَبَتْ زِدَانُهُمْ سَعِيرًا} ^(٩٧)

والقصة ذات بنية دائرية أيضاً، فهي تبدأ بإرسال الآيات لفرعون يوم كان بنو إسرائيل مستضعفين وفرعون متسلط عليهم، فبكبره دارت عليه دورة الحياة، فيغرق الله فرعون ويرث بنو إسرائيل ملكه، ثم يهلك بنو إسرائيل ومن سيجيء بعدهم ويرث الله الأرض ومن عليها، وهي نفس البنية العميقة للقصص السابقة:

ضعف ← قوة ← ضعف ← الآخرة

والسياق السابق للقصة سياق مكاني، والمجال فيه مجال بصري، فالمعجزات التي طلبها المشركون من الرسول أطرت بفضاء مكاني (الأرض، الجنات السماء..) وهي سياقات ذات طابع مادي تعبر عن النزعة المادية عند المشركين، وغالبا ما تكون هذه النزعة من مداخل الكبر الذي أبدوه في معاندة النبي صلى الله عليه وسلم، والذي اتضح ذلك جليا من قولهم { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ

لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ ، وجاء التعقيب على هذه المطالب المادية المكانية تعقيبا مكانيا مجملا {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩١﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَثُورًا ﴿٩٢﴾} ، والقصة تتحدث عن إرث الله تعالى للأرض ، وسعة ملكه ، وتوازنهما بشح المشركين ، الذين يتتبعون بالمطالب فحسب.

ويرتبط سياق الكبر عند المشركين بسياق قصة موسى وفرعون الثانية ، حيث تلتحم القصة بالروابط المكانية التي فيها إشارات إلى ملك الله وعطائه ، والتي نبه بها موسى فرعون حين بين له أن الله هو خالق السماوات والأرض ، والقادر إهلاك كل شيء ، { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْذَنَّا بِنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاحِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ } فقد ادعى فرعون ملك الأرض والأنهار ، فكان هلاكه هلاكاً مرتبطاً بالمكان { فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ } وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا { وهذا يحيلنا مرة أخرى إلى ذكر داوود عليه السلام الذي أشرنا إلى محتوى كتابة أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون.

سورة الكهف:

١- سياق العلم.

٢- سياق البحث.

أ- سياق الهلاك.

ب- سياق الزينة.

إن السياقات اللغوية المحيطة بالقصص هما سياقاً العلم والبعث، وهذان السياقان - كما في سياقات سورة الإسراء - يرتبطان فيما بينهما بعلاقات تركيبية ومقامية متكامل لتكون نسيجاً متشابكاً " والعلاقات والملابسات من أجل المباحث وأطرفها في دراسة الأساليب، لأنها تعني ببيان ما بين الأشياء من صلات ووشائج، وكيف يتصورها الذهن والخيال متقاربة حتى يصح أن يدل بعضها على بعض"^١

أولاً: سياق العلم:

بدأت السورة قصة فتية الكهف بقوله تعالى { مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا } {٥} وتتكشف توجيهات العلم ومدلولاته في القصة في استنكارهم اتخاذ قومهم آلهة من دون الله جهلاً وكذباً على الله { هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } {٦} وحوار الفتية أنفسهم في جهلهم مدة نومهم { وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا } {١٩} وتختتم القصة بعرض جدل المشركين في عدد الفتية ومدة لبوثهم في الكهف { سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا } {٢٢} { وَلْيَبْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا } {٢٥} وتختتم آيات الجدل بالتوجيه الإلهي { قُلِ اللَّهُ

^(١) خصائص التركيب ، محمد أبو موسى ص ١١٥

أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢١﴾ ويتخلل هذين الاضطرابين في العلم البشري
والفرق في الجدل توجيه من الله تعالى حول محدودية الإنسان في العلم الغيبي (قُلْ
رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ
مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ
رَبَّكَ إِذَا نُسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ "والذي يتتبع
قصص القرءان يجد عقب كل قصة تعقيبا دينيا يناسب العبرة فيها، وهكذا لا
يسير سياق القصة إلا وفي شأيا تلك التوجيهات زيادة على المغزى الذي تؤدي إليه
بحوادثها دون توجيهاتها "فتسجم بذلك الوسائل الفنية المتمثلة في القصص،
والتوجيهات الدينية المتمثلة في أعراض القصص والتعقيبات التالية لها.

وفي هذا الصدد نؤكد على أن بنية قصة أهل الكهف قد جاءت في غاية
الدقة والنظام وهو ما يخالف الرأي الذي جاء به محمد أركون نقلا أو فهما عن
بلاشير والذي يزعم فيه "أن نص الحكاية قد تعرض لتحويلات أو لتغييرات،
كان ريجيس بلاشير قد كشف بوضوح بواسطة التنضيد الطباعي عن نسختين
متوازيتين للآيات من (٩ إلى ١٦). يضاف إلى ذلك أن الآية (٢٥) تجد مكانتها
بالأحرى بعد الآية (١١) لولا أنها تنتهي بالقافية "عا" في حين أن مجمل الحكاية
تشتمل على آيات مقفاة بـ "دا" "و" وعلى الرغم من أن أركون لم يحدد ماهية
التحويلات والتغييرات التي تعرضت لها قصة أصحاب الكهف من الآية ٩ إلى الآية
١٦، عدا حديثه عن تأخير الآية ٢٥ التي هي قوله تعالى (ولبثوا في كهفهم ثلاث
مائة سنين وازدادوا تسعا) عن إلحاقها بالآية : ١١ التي هي قوله تعالى { فَضَرَبْنَا
عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ }

(١) من الوجهة الأدبية ، ١ / ١٣٤

(٢) محمد أركون، القرءان من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ١٤٨، ترجمة هاشم صالح،
دار الطليعة ، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.

فهذا الرأي يخالف البنية التي وردت على نسقها القصة ، فالآيات (٩ - ١٢) سرد لمجمل القصة . كما سبق توضيحه . ، وبيان عدد سنوات بقائهم في الكهف من التفاصيل التي يؤثر ذكرها سلبا في هذا السياق على الأثر النفسي والذهني المطلوب إيصاله للمتلقي. أضف إلى ذلك أن الآية [٢٥] سوف تخترق اتصال الآية [١٢] التي هي قوله تعالى {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} ١٢ بالآية التي سبقتها لتزرع تركيبا ركيكا يتسم بتراكم تفاصيل خبر واحد يفقد أي أسلوب سردي انسيابية توالي الأحداث ، فسياق قوله تعالى {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} ١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} ١٣ يدل بوضوح على ادخار الآيات ذكر عدد سني بقائهم في الكهف إلى سياق آخر مناسب دلاليا.

كما أن قوله تعالى {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا} ٢٥ جاءت في ترتيبها من سياق موضوع من موضوعات جدال المشركين في قصة أهل الكهف ، وجاء بعدها توجيه للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يرجع القطع في مدة بقائهم في الكهف لعلم الله الذي وسع كل شيء علما {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلََّا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} ٢٦ ، فبان نزاع الآية [٢٥] عن سياق الآيات التي تتوسطها يحدث خلل في بنية الجدال في هذا المقطع إذ إن هذا المقطع يطرح ثلاث توجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم تتعلق بحقيقة العلم:

الأول: ترك الجدال في عدد فتية الكهف.

الثاني: عدم ترك المشيئة مع العمل

الثالث: عدم الجدال في مدة بقاء الفتية في الكهف.

وكل واحد من هذه التوجيهات سبق بطرح الحقيقة أو الأصل في موضوع التوجيه ، فقد بينت الآيات أولا الأعداد التي تجادل المشركون في نسبها للفتية ، ثم التوجيه بترك الجدل في هذا الأمر ، ثم نهت الآيات النبي عن الجزم بما سيفعله في المستقبل ، ثم طرحت الآيات صيغة المشيئة ، فكان من باب التناسب في البنية أولا ، ومن ضرورات تلازم المعاني أن تذكر الآيات شيئا متعلقا بعدد سني بقاء الفتية في الكهف قبل أن يصدر التوجيه بترك المراء في هذا الأمر. فيكون نسق بنية آيات الجدل في القصة قائم على طرح مجادلة المشركين ، ثم التوجيه بترك الجدل ، ثم إقرار الحقائق الإلهية.

وبذلك يتبين لنا جليا أن إلحاق الآية [٢٥] بالآية [١١] أو انتزاعها من موضعها وسياقها ونقلها لأي موضع آخر يحدث خلاا تركيبيا وفنيا في القصة ، يضعف من مزايا الجمال فيها.

أما ما تعلل به أركون من أن عملية التأخير حدثت لمراعاة الفاصلة القراءانية* في بنية الإيجاز فلا أصل له ، إذ أن آيات لم تلتزم بفاصلة واحدة على امتداد الحكاية ، اللهم إلا التزامها بإطلاق الحرف الأخير من الفاصلة في كل آيات السورة ، ثم إن الموضع الذي وردت فيه الآية [٢٥] تسبقه آيات تنتهي بالفاصلة " دا " على امتداد آيات أكثر من الآيات التي جاءت في بنية القصة الموجزة ، فإذا كان اعتماد أركون على الفاصلة في تحديد مواضع الآيات فما وجهة تغيير موضع آية مختلفة في فاصلتها من سياقين كلاهما تتشابه فاصلته!!**

* استعمل المترجم مصطلح القافية بمعنى الفاصلة القراءانية ، ونحن استخدمنا في عرض الموضوع المصطلح الذي اتفق عليه علماء القرآن ، لا مصطلح المترجم.

** يشير أركون إلى وجود " شذوذ لغوي في كلمة (سنين) الواردة بعد عبارة (ثلاث مائة) بدلا من سنة (ولبنوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) ويضيف نقلا عن بلاشير " وهذا ما يجعلنا نفترض العديد من الفرضيات حول شروط أو ظروف تثبيت النص " ص ١٤٨ ، وقد أجاب النحاة عن الخلاف الإعرابي في الآية بتفسير إعراب قراءتين للآية. الأولى : من قرأ (مئة) مضافة إلى (سنين) فأوقع الجمع موقع المفرد كقوله (بالأخسرين أعمالا) يعني أنه أوقع أعمالا موقع (عملا) ، وأما القراءة الثانية فنونوا (مئة) ولم يضيفوها إلى (سنين) وجعلوا (سنين) بدلا من (ثلثمئة) أو

كما أن علوم القرآن والحديث النبوي لا يؤخذان إلا عن العلماء المسلمين الثقة ، الذين درسوا أصول الدين مما صح من المصادر ، وما اتفق عليه العلماء في علوم اللغة والشريعة ، أما المستشرقون وتلامذتهم الذين يصرحون ، أو يلمحون إلى أن القرآن نص بشري ، خضع للملابسات خاصة في إنتاجه ، وطرأ عليه من التطور في الأسلوب والمضمون ما انسجم مع التغير البيئي والثقافي الذي واكب حياة النبي ودعوته ، فإن كلامهم هذا ليس إلا كرماد اشتد به الريح في يوم عاصف ، فالقرآن كلام الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد عجز جهابذة البلاغة عن معارضته قديما وحديثا .

وقصة موسى التي تحت على طلب العلم وتركز على مدلولاته ، سبقت بكون القرآن يشمل كل العلوم { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا }^(٥٤) وضمت في ثناياها مدلولات العلم {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا }^(١٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا^(١٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا^(١٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا^(١٨) ، وبتتبع القصة التي في مضمونها تشير إلى علم من نوع خاص لا يصل إليه إلا من صفا قلبه لله ، واصطفاه الله لينير قلبه بالعلم اللدني ، وباقتفاء ما صدر عن موسى عليه السلام من عجز عن الصبر واستنكار في بعض الأحيان لما بدر من العبد الصالح فإن " الأمر في المسألة من الوجهة النفسية يرجع إلى أن الإنسان يفسر ظواهر الوجود بما يعرف ، ومن أفكار وآراء ، إذ هو يربط ما يحس بما يعرف أو يربط غير المفهوم بالمفهوم ، ومن هنا تتقارب التفسيرات وتتشابه عند الذين يدينون بآراء واحدة أو متشابهة ،

عطف بيان ، ونقل أبو البقاء أنه بدل من (مئة) . انظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، للسمين الحلبي ، ٧ / ٤٧٠ . ٤٧١ ، تحقيق أحمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩١ م .

وتختلف اختلافا كبيرا حين يتباين ما في أدمغة الناس من أفكار وآراء^١ ، إن في هذه الحياة ما قدر الله تعالى ألا يحيط بتفسيره أحد ، وإن من الظواهر ما يحمل في باطنه ما يخالف ما تراه الأعين ، حتى إذا ما كشف الله لعباده حجب الحقائق وأطلعهم على جواهر الأمور ، تأكد للخلق أن علمهم ليس إلا أقل من قطرة ماء في البحر الواسع {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} .

ثانيا : سياق البحث :

يتكون سياق البعث الرئيس من سياقين فرعيين هما : الهلاك ، والزينة .

١- سياق الهلاك :

سنجد هذا السياق مرتبطا أشد الارتباط بسياق التوحيد حيث " وجه القرآن الكريم عناية بالغة إلى البعث والجزاء ، وبخاصة في السور المكية منه ، باعتباره ركنا أساسيا من أركان العقيدة الإسلامية ، إذ يقرنه بالتوحيد أحيانا ، ويقرنه أحيانا أخرى بالنبوة والرسالة^٢ ، وقصة فتية الكهف تشير بوضوح إلى موضوع البعث فما النوم الذي نامته الفتية إلا تمثيلا للموت وضرب مثل لقدرة الله تعالى على بعث من في القبور" وهذه القصة بالإضافة إلى ما فيها من إثبات التوحيد ، فيها دليل على البعث ، وقد تضمنت هذه القصة مشهدين ، فالمشهد الأول فتية آمنوا بربهم ، وزادهم الله تعالى هدى ، وقد فروا من الوثنية إلى الوجدانية ، ومن الوثنيين إلى جوار ربهم ، وقد ربط الله على قلوبهم فاستمسكوا بإيمانهم ، واعتصموا بربهم ، وأما المشهد الثاني : فبعثهم ، وقد اختلف في أمر المدة التي بقوها

(^١) الفن القصصي في القرآن ، ص ١٠٩

(^٢) بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، ٥٧١/٢

في الكهف، وقد مرت أجيال وهم يحسبون أنهم أيقاظ، وقد لبثوا كما ذكر
القرءان ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا^١، وقد بينت الآيات في سياق القصة أن
الغرض من نوم الفتية والعثور عليهم هو إثبات صدق وعد الله بإقامة الساعة
والبعث {وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ
يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} .

وقصة صاحب الجنتين والتي تعد من التمثيل البياني في القرءان الكريم ،
جاءت لتمثل بمشهد متكامل زوال الأرض وما عليها من زينة وملك "فإن من
التمثيل البياني من القرءان ما يقرب الحقائق إلى الأذهان، ويضفي عليها لونا من
البيان فيجليها. وما ابتدع التمثيل لرسم الأشكال والألوان فقط. وإنما ابتدع لنقل
الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس، ولتقوية الشعور وعمقه ونفاذه
٢٣ فالقصة تحوي وصفا رائعا لجمال تلك الجنتين وما منحهما الله تعالى من
الخضرة والماء {وَأَضْرَبَ لَهُم مِّثْلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ
وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا}  كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ
شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا}  وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا
أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}  ، ثم تسرد الآيات تكبر صاحب الجنتين
وتصلفه، ثم تصف مشهدا مختصرا وكئيبا لهلاكهما يوازي وصف جمالهما
لكنه يقابله في المدلول {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا}  وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ
يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا}  قد سبقت القصة بمشهد ليوم
القيامة يماثل في بنائه بناء القصة وسياقها فالمشهد يتكون من مشهدين فرعيين
الأول لأصحاب النار، والثاني لأصحاب الجنة ،وتلا القصة مثل قرءاني آخر يختزل

^١ (السابق ، ٨٩٩/٢

^٢ (سيكيولوجية القصة ٢٤٦

مآل الحياة ونهايتها " وتظهر مدى التلاؤم بين الصورة المحسوسة، والمعنى الممثل ^١ وهو الهلاك الذي يقرب مفهوم البعث إلى أذهان المتلقين . ويتخلل معظم القصص مشاهد يوم القيامة، التي لها ترتبط ارتباطا كبيرا بقضية البعث، فقد أثبت التصريف القرآني ذلك اليوم وتحققه عن طريق مشاهد القيامة المتعددة ، موزعة على سورة ولأسيما المكية . كما قلنا فيما سبق - إذ نجد القرآن الكريم في إثباته لهذه القضية يقيس البعث على الخلق الأول، وتارة يقيس إخراج الموتى على إخراج النبات وإحياء الأرض، وإنزال الماء من السماء إلى غير ذلك مما صرف القرآن بيانه بقصد تقريب البعيد إلى أذهان المنكرين للبعث والجزاء، وغيرهم ممن يطلبون معرفة ذلك اليوم وجعل الصعب سهلا ميسورا، إذ إن تلك الأشياء التي قاس عليها المولى - سبحانه وتعالى - معلومة عندهم غير مجهولة ^٢

١ - سياق الزينة:

بينت الآيات أن ما على الأرض لم يخلق للبقاء وإنما هو زينة مصيرها الفناء {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ^(٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ^(٨) { وبعد أن تعرض السورة قصة أهل الكهف واعتزالهم قومهم ولجوئهم إلى كهف يعصمهم من بطش قومهم وكفرهم توجه الآيات النبي ومن معه إلى التزام من هم على شاكلة الفتية، الذين تركوا زينة الحياة الدنيا وتوجهوا إلى الله {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} ^(٢٨) .

(١) التصوير البياني ، محمد أبو موسى ٩٨

(٢) بلاغة تصريف القول ، ٥٧٤ / ٢

وبعد عرض قصة صاحب الجنتين تفسر الآيات معنى الزينة {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} {٤٦} "ومن
هنا كان الفقراء أقرب الناس استجابة لدعوات الرسل ، والمترفون أشدهم بعدا
عنها ، بل مقاومة لها ، لاغترارهم بثروتهم وقوتهم المادية ، واستكبارهم على
الهدى ، وخوفهم من تغيير حياتهم"^١ ، وبذلك تلتقي سياقات سورة الكهف مع
سياقات سورة الإسراء في سياق الترف والزينة ، وهو ما يجعل من سور العتاق الأول
نسيجاً واحداً تتداخل خيوطه مع تعدد ألوانه.
ثم تجيء مشاهد يوم القيامة لترسم صوراً متعددة لفناء الزينة على الأرض
وهلاكها.

^١ (سيكولوجية القصة في القرآن الكريم ٢٠٦)

سورة مريم:

أولاً: سياق الرحمة.

١. أسماء الجلالة.

٢. سياق النبوة.

٣. سياق البنوة.

ثانياً: سياق العذاب.

تختلف بنية السياقات في سورة مريم عن بنية السياقات في السور السابقة حيث جاءت متتالية أكثر منها متداخلة، وذلك أن جميع النصوص "إنما تسلك سبيلا خاصا بها يميزها عن غيرها، وتستمسك به في هندسة الكلام"^١ ولا تختلف سور القرآن في ذلك حيث توصل السور مضامينها ومقاصدها بالأسلوب الفني الذي يجعلها متفردة في الحسن والبيان.

وأكثر السياقات انتشارا في السورة هما:

١. سياق الرحمة الذي يشمل سياق أسماء الجلالة وسياق النبوة، وسياق النبوة.
٢. وسياق العذاب الذي يشمل سياق الهلاك، وكلا السياقين يرتبط بسياق القدرة.

أولاً: سياق الرحمة:

"التعلقات هي أساس التركيب"^٢ فجميع آيات الرحمة الخاصة بذكر الأنبياء تتعلق بقصة زكريا الأولى التي وصفه بأنها رحمة، وسوف نجد أن لفظة «رحمة» قد تعرضت لتغير دلالي عبر سياقات الآيات لأن "التراكيب تتعرض بسبب السياقات اللفظية والمقامية لألوان من التغير الدلالي"^٣ فتأتي الرحمة تارة بمعنى استجابة الدعاء، وتارة بمعنى النبوة، وتارة تأتي بالمعنى المجمل المفهوم من مقصد القصة، ويتبين المعنى السياقي للكلمة "بواسطة تخلص الكلمة من سماته المتعددة، وتنشيط السياق للسمات المنسجمة مع سمات الكلمات المجاورة، ويستطيع السياق التركيبي ضبط هذا الالتباس إذا أضيف إلى البنية السابقة تمييزاً أو ما يشبهه في التخصيص"^٤ فتفسير الرحمة في قوله تعالى ﴿ذَكَرْ رَحْمَةً

^١ (من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، ص ٢٥٢)

^٢ (خصائص التراكيب، ص ١١٦)

^٣ (النقد والسياق، سالم عباس خدادة، ص ١١٦)

^٤ (بنيات المشابهة في اللغة العربية ص ٩٠)

رَبُّكَ عَبْدُهُ زَكِيًّا ﴿٢﴾" المعونة من الله والإجابة والإيصال إلى المراد "، وهو تفسير روعي فيه سياق الحكاية الذي يتضمن الدعاء.

وفي سياق ذكر إنعام الله تعالى على أنبيائه ورحمته لهم، يشير تعالى إلى إنعامه على إبراهيم بإسحاق ويعقوب ووهبهم جميعا النبوة {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾} وقد أنعم الله عليهم نعمًا كثيرة، وظللهم برحمته، و"وهب لهم من رحمته، أي وهب لهم من النبوة ما وهب، ويدخل فيه المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة".^٢

كما أن سياق جميع القصص سياق الرحمة، فكل القصص فيها منن من الله تعالى على أنبيائه واصطفائهم وتفضيلهم على جميع الخلق.

١- أسماء الجلالة:

تبدأ السورة بذكر الرحمة منذ مطلعها {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكِيًّا ﴿٢﴾} وينتشر فيها المفردات المشتقة من جذر (رحم)، فقد وردت كلمة (رحمة) في السورة مرتين في الإشارة إلى منح الابن في قوله تعالى في شأن زكريا {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكِيًّا ﴿٢﴾} وفي وصف عيسى عليه السلام {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٣١﴾}، وفي السياق نفسه ترد كلمة (رحمتنا) في إكرام الله تعالى لإسحاق ويعقوب {وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾}.

(^١) نظم الدرر، ٥٢٠/٤

(^٢) التفسير الكبير ٢١/٢٣٠

كذلك تعد سورة مريم من أكثر السور في القرآن الكريم التي يرد فيها اسم الرحمن حيث تكرر فيها سبع عشرة مرة^١، وعلى الرغم من دلالات الاسم التي تعنى مبالغة الرحمة من فعلان، فإن آيات العذاب جاءت مقترنة باسم الجلالة الرحمن بل إن الآيات التي جاءت لتعبر عن غضب الله تعالى وتفاعل الطبيعة مع هذا الغضب جاءت بلفظ الرحمن {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا} ^{٩٠} أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ^{٩١} وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ^{٩٢} إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ^{٩٣} {

وإذا ربطنا دلالات ألفاظ الجلالة الواردة في السورة فإن اسمي الجلالة الوحيدين الواردين في السورة هما «الرحمن» وهو "علم مختص بالله تعالى لا يشاركه فيه غيره فليس هو كالصفات التي هي العليم القدير والسميع والبصير، ولهذا تجري على غيره تعالى"^٢ وسبق الحديث عنه، وعن «الله»، "والأشبه أنه كأسماء الأعلام موضوع غير مشتق، ومعناه القديم التام القدرة فإنه إذا كان سابقا لعامة الموجودات كان وجودها به، وإذا كان تام القدرة أوجد المعدوم، وصرف بوجوده ما يريده، فاختص لذلك باسم الإله"^٣ وهذه القدرة هي التي يرحم الله بها خلقه، فالرحمة ليست رحمة ناجمة عن عجز أو عن غلبة الخصم، أو الخضوع لما يجد الآخر في نفسه من منزلة ومكانة، بل إنها رحمة مقدرة، وإنعام كريم، وإمهال حكيم، وقد ورد لفظ الجلالة «الله» سبع مرات في السورة، وورد لفظ الرب إحدى وعشرين مرة^٤، "فاسم الرب له الجمع الجامع

^١ (محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٣٧٦ - ٣٧٧، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م)

^٢ بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ٢٧/١

^٣ (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي النيسابوري الخسروجري، كتاب الأسماء والصفات، ص ٣٤، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ب ت)

^٤ (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ٣٥٢، ٣٥٥)

لجميع المخلوقات. فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في الأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره^١ وكلها أسماء حملت تفسير دلالات الرحمة في السورة.

٢- سياق البنية:

كما وردت في السورة ألفاظ تدل على الرحمة جاء أغلبها في سياق القصص، فعندما من الله تعالى على زكريا بالولد استخدم لفظة بشرناك، والبشرى هي الخبر السار {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} {٧} في حين قال تعالى لمريم لأهب لك {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} {١٩} والفرق بين السياقين أن زكريا كان متلهفا في انتظار الولد عن طريق دعائه، أما مريم فقد تفاجأت بالولد لأنها لم تكن متزوجة، ولأنه نبي ورحمة لأمته فقد كان هبة لها، ثم جاء التعقيب على استنكارها الأمر إجابة بحمل معاني الرحمة {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا} {٢١}.

وتتجلى الرحمة في صفات الأبناء في قوله تعالى عن يحيى {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} {١٢} وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا} {١٣} وَبِرًّا بَوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا} {١٤} فالصفات المضافة إليه هي صفات التقوى، والحنان، ونزع منه التجبر والعصيان، وكذلك في وصف عيسى لنفسه {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْمَلِ صَبِيًّا} {٢١} قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} {٣٠} وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} {٣١} وَبِرًّا بَوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} {٣٢}

(١) مدارج السالكين ١ / ٣٦

فيعسى تتمثل التقوى في صفاته في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وكذلك نزع منه الجبروت والشقاء، وأمر بالبر بوالدته كما أمر يحيى ببر والديه. وكلها سياقات مقالیه تدل على رحمة الابن البار بوالديه الصالحين (حنانا / برا / لم يكن جبارا عصيا / ... مباركاً / برا / لم يجعلني جبارا شقيا) "إن نظرة البنائية المعاصرة للشخصية مستمدة في مجموعها من مفهوم الوظائف في اللسانيات، وذلك أن الكلمة في الجملة لم ينظر إليها على أنها تحمل دلالة ما خارج السياق، بل إنها لا تأخذ دلالتها إلا من خلال الدور الذي تقوم به وسط غيرها من الكلمات ضمن النظام العام للجملة"^١، وشخصيتا يحيى وزكريا تؤديان معنى متكاملًا داخل السياق وهو معنى الابن البار.

وتجدر الإشارة إلى ما صاحب مشهد وضع مريم عليها السلام لعيسى من رحمة من الله تعالى وعطف، فعلى الرغم من قسوته عليها جسمانيا ونفسيا، وهو ما عبرت عنه أثناء مقاساتها آلام المخاض {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَمِيئًا} (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا { (٢٣) إلا أن الله اكتنفها برحمته وسخر لها نهرا يجري من تحتها ونخلة تساقط عليها الثمر جنيا {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا} (٢٤) وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا { (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا { (٢٦).

أما قصة إبراهيم ففيها صورتان من صور الحنان، حنان الابن البار وإشفاقه على أبيه العاصي من أن يدعو من دون الله ما لا ينفع ولا يضر "يأتي الدعاء - أحيانا - في القرآن المراد به الاستعانة بغير الله أو عبادته، ومنهج القرآن فيه إما الحكاية عن بعض المشركين، أما النهي عنه - ابتداء - من غير حكاية"^٢ {وَاذْكُرْ

^١ (بنية النص السردي، ٥٢)

^٢ (دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص ٢٥٧)

فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ { ، وعلى الرغم من عصيان والده وغلظته في خطابه إلا أن إبراهيم لم يبادل الغلظة بالغلظة بل وعده بالدعاء له والاستغفار { قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ } وتوضح الآيات رحمة الله بإبراهيم بعد أن هجر قومه فكان من رحمته أن رزقه الذرية الصالحة { فَلَمَّا اعْتَرَزَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥١﴾ } .

٢- سياق النبوة:

يتداخل سياق النبوة مع سياق النبوة، حتى يكاد يكون في بعض الآيات هو هو، لأن جميع الأبناء السابق ذكرهم هم في الحقيقة أنبياء، كذلك جاءت ألفاظ الرحمة والموهبة مقترنة في سياق ذكر الأنبياء في قوله تعالى عن إسحاق ويعقوب { فَلَمَّا اعْتَرَزَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥١﴾ } فقد كانا هبة لأبيهما، وحين كبرا وهبهما الله النبوة، وفي ذكر موسى عليه السلام بين الله تعالى أنه وهبه أخاه هارون وآتاه النبوة { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ } " قال ابن عباس: كان هارون عليه السلام أكبر من موسى عليهما السلام، وإنما وهب الله له نبوته لا شخصه وأخوته وذلك إجابة لدعائه في قوله (واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به

أزري) فأجابه الله بقوله (قد أوتيت سؤالك يا موسى) وقوله (سنشد عضدك بأخيك)^١.

والآيات تبين أن النبوة هي موهبة من الله تعالى ورحمة ودرجة عالية يفضل الله بها تعالى خلقهم على بعض ، يقول الأصفهاني في تفسير كلمة النبي "هو من النبوة أي من الرفعة وسمي نبيا لرفعة محلة عن سائر الناس المدلول عليه بقوله (ورفعناه مكانا عليا)"^٢ ، وجميع الآيات التي ذكرت الأنبياء وصفت النبوة بأنها موهبة وبأنها نعمة عظيمة^٣ {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}  فبذلك تكون النبوة درجة عالية وتكريما ، للنبي وهو من باب التسليية والتخفيف عنه مما يلاقي من أعباء النبوة ومشاق الدعوة.

ثانيا سياق العذاب:

سبقت الإشارة إلى أن سياقي السورة المتمثلين في سياقي الرحمة والعذاب يتميزان بالتعاقب ، ففي قوله تعالى {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا}  تحول من سياق الرحمة إلى سياق العذاب ، لأن

^(١) (التفسير الكبير، ٢٣١/٢١

^(٢) (الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ، ص ٤٨٢ ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت.

وقد فرق العلماء بين النبي والرسول في مصنفات عدة اعتمدنا منها قول شيخ الإسلام " فالنبي: هو الذي ينبئه الله وهو ينبي بما أنبأ الله به فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول وأما إذا كان إنما يعمل بالشرعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول" النبوات ، ابن تيمية ، ١ / ١٨٤

^(٣) انظر التفسير الكبير ٢٣٣/٢١

الحديث فيها تغير من الحديث عن الأنبياء إلى الحديث عن أقوامهم الذين اختلفوا بعد الدعوة وبدلوا دينهم وأنكروا البعث.

والسياقان متقابلان بجميع مكوناتهما التركيبية، والانفعالية والإيقاعية، فهما يتناولان الموضوعات ذاتها، بأسلوبين مختلفين، حيث يتناولان موضوع التوحيد، وموضوع الخلق والبعث ويربطانهما بموضوع القدرة في سياقات متعددة.

يستكمل سياق العذاب تناول موضوع توحيد الله تعالى انطلاقاً من قصة عيسى عليه السلام، حيث تبين الآيات بشريته بأسلوبين مختلفين: الأول على لسانه {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} ^(٣٠)، ثم عقيبت الآيات على قوله عيسى {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} ^(٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ^(٣٥) " فصله المسيح عليه السلام بالله من حيث الخلق والتكوين كصلة أي مخلوق سواء بالله سبحانه وتعالى، ولا يؤثر في هذه الصلة التكوينية أنه عبد ممتاز. وأنه رسول من رب العالمين، وإن كانت طريقة تكوينه أنه وجد من غير أب، فإن ذلك لا يجعله إلهاً أو ابن إله "، ثم بعد ذلك يسترسل السياق في عرض موضوع التوحيد بأسلوب يتجه نحو تقريع من ادعى أن لله ولدا {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا} ^(٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ^(٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطُّنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ^(٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ^(٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} ^(٩٢) " وسوق الأدلة على التوحيد في سياق القصة يجعله يسري في النفس من غير مقاومة، وتكراره يجعله يخطط في النفس خطوطاً، وتعمق الخطوط فيكون الإيمان ^(٢).

وسوف نجد أن الآيات السابقة توسطت مشاهد يوم القيامة، الأمر الذي يشهد معه السياق الانفعالي الذي يعبر عن السخط والغضب لعظم ما يتفوه به

(١) المعجزة الكبرى، محمد أبو زهرة، ١٩١

(٢) المعجزة الكبرى، محمد أبو زهرة، ١٩٠

المشركون جهلا من عند أنفسهم، وينسجم هذا السياق الانفعالي مع السياق الإيقاعي، حيث يتحول السياق من الهدوء والرحمة اللذين لازما المقاطع الأولى من السورة إلى الشدة التي تعلو كلما اتجهت الآيات إلى طرح آراء المشركين الباطلة. "وتعتبر هذه الموسيقى إشعاعا للنظم الخاص في كل موضع في كتاب الله، وتابعة لقصر الفواصل وطولها، كما أنها تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة والانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة"^١ ومن ثم الانسجام مع المعنى ومع الجو النفسي، ويتضح ذلك جليا من خلال المفردات شديدة الإيقاع، والمؤثرة في خيال المتلقي (تؤزهم أزا/ عدا/ نسوق/ يتفطرن / تتشق/ هدا/ ركزا) فـ "هناك نوع من الألفاظ يرسم صورة الموضوع ولكن لا بجرسه الذي يليقه في الأذان، بل بظله الذي يليقه في الخيال، وللألفاظ كما العبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير، حينما يوجه إليها انتباهه وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية"^٢.

وعلى الرغم من أن السياق في هذا لمقطع ليس سياقاً قصصياً، غير أنه استدعى بعض آيات القصة تناسباً مع المقطع الأول، فالآيات تعرض بعض مزاعم المشركين مما يعطي المقطع حيوية العرض القصصي، كما في مقطع التوحيد السابق كما في الآيات التي تبدأ بقوله تعالى (ويقول الإنسان/ قالوا اتخذ الرحمن ولداً، أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال) وعرض الأقوال على هذا النحو في "الغالب يعتمد على الألفاظ السهلة اللينة التي تشبه الأحاديث العادية المألوفة."^٣ التي تبين مدى استخفاف الآيات بعقول المشركين وأقوالهم التي ثبت بطلانها بالحجة والمنطق.

وبينما يفصل المقطع الأول قصة زكريا ومريم اللذين رزقهما الله الذرية بالخلق العجيب الذي تجلت فيه عظام قدرته، نجد السياق المقامي يحيلنا إلى

^١ (الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، ٧٥)

^٢ (الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، ٧١)

^٣ (من الوجهة الأدبية ١٣٨/١)

قصة العاص بن وائل - التي تم تفصيلها في الفصل السابق - والتي يزعم فيها أن الساعة إذا قامت فسيكون له من الأموال والبنين كما له في الحياة الدنيا " وكلما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحاً في النهاية حين تصبح كل عبارة من عبارات النص واضحة بما يجليها من القرائن الحالية والتاريخية والقرائن المقالية التي في وصف المقام " حيث يقول تعالى فيه { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ^{٧٧} أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ ائْتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ^{٧٨} كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ^{٧٩} وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ^{٨٠} }

^١ (اللغة العربية معناها ومبناها ، ٣٤٦)

خاتمة

وبعد أن تناولنا موضوع التناسب بالدراسة والتحليل، وسلطنا الضوء على وسائل البحث فيه من زوايا عدة، فما زال علم التناسب - عامة، وفي القراءان خاصة - قابل للدراسة بأكثر مما قدمنا، والنص القرءاني يمتلك من أشكال البنى المتناسبة أكثر مما استطعنا الوصول إليه.

إن تعدد الموضوعات هو الأصل في بنية الأسلوب العربي منذ القدم، فقد عرفت القصائد تعدد الموضوعات فيها، وشهدت الكتب تنوع الفنون التي تحتويها، ودرس البلاغيون العرب هذا التنوع في كتبهم في أبواب شتى لم تصنف في الغالب - تحت باب التناسب، إنما تطرقوا إليها في تحليلاتهم لبعض النصوص الشعرية والقرءانية، وكثير من المفاهيم التي بحثوا فيها تصلح لأن تكون نواة تأسيسية لأصول علم التناسب، كحديثهم عن المعاني الذهنية، وخزانة الصور، ورؤية النقاد المحدثين لأثر البيئة العربية الصحراوية على التكوين النفسي والذهني للعرب، وهي أمور على شدة أهميتها، ضاق البحث عن التطرق إليها، لأنها ربما تكون في نفسها موضوعا مستقلا، وتحتاج في تطبيقها النظر في قراءة البلاغيون القدماء للشعر والنثر والقرءان، في حين وقف بحثنا عند دراسة التناسب في سور القرءان الكريم.

وبالباغيون العرب حين عرفوا التناسب ركزوا على مكوناته الأساسية المتمثلة في العلاقات الرابطة بين موضوعات النص، وجمع النص لهذه موضوعات على اختلافها، وتباينها أحيانا، وترتيب هذه الموضوعات والعناصر وفق العلاقات القائم عليها النص.

ولم يختلف مفهوم علم مناسبات القرءان الكريم عن مفهوم المناسبات عند البلاغيين، فقد سعى علماء القرءان الكريم لمعرفة روابط النص القرءاني، والتوصل إلى البنية الدلالية الكبرى للقرءان، محاولين الوصول بلحمة النص القرءاني إلى ما أطلقوا عليه (الكلمة الواحدة).

وكي يتضح مفهوم التناسب بشكل أكثر تكاملاً، فقد قمنا بتطبيق المفاهيم السابقة والعديد من الأساليب اللغوية والفنية المعنية بروابط النص على مجموعة من السور المتتالية، والتي اشتهرت في كتب علوم القرآن الكريم بسور العتاق الأول وهي (الإسراء، الكهف، مريم)، والتي تتسم بخصائص مشتركة في زمن النزول، وأسبابه، وفي تماثل البنى فيها، وكان أساس تحليل هذه السور الانطلاق من البنى الجزئية للسورة والانتفاء بالبنى المشتركة بين السور، مروراً بالعلاقات الرابطة بين المستويين، أعنى التناسب في السورة و التناسب بين السور.

وتبين لنا في هذا الصدد مدى تشابك النص القرآني، عبر تداخل الموضوع الواحد في السور الثلاث، ومعالجتها إياه بصور شتى، تتطور فيها المعالجة ابتداءً بطرح فكرة الموضوع، ثم التوسع فيه، وعرض البراهين المؤيدة له، وكان لتكرار الأنفاظ والآيات والموضوعات أثر كبير في استحضار الموضوعات بين السور.

وجلي لنا أن البنية الأساس في السور هي البنية السردية، فجميع السور تضمنت أكثر من قصة، ولذا كان حرياً بنا أن ندرس موقع السرد باعتباره أداة فنية استخدمها القرآن لتحقيق أغراض عقدية وتشريعية وتربوية ترتبط بمقاصد السورة. وكان أن اتفقت البنى السردية في بناها العميقة وفي الأغراض والمقاصد التي سيقى لأجلها، وكشف السرد في هذه السور عن وأساليب فنية عالية التقنية كان لها دور في ربط وشائج القصص الواردة في السور من جهة، والسور وموضوعات السور من جانب آخر، حيث سبكت كل أجزاء السورة في التعالقات التي أوجدتها البنى السردية متعددة المستويات.

ولم نغفل دور السياق في تعزيز التناسب بين موضوعات السور، فقد كان أكثر الوسائل حضوراً في ربط الموضوعات في السورة، حيث اتخذ مستويين الأول: تناسب في السياق بين الموضوعات في السورة، كتناسب سياق القصص مع الآيات المحيطة بها، أو السياقات الموضوعية الرابطة لمجموعة من الآيات، والمستوى

الثاني سياق خارجي تناسب فيه المضمون والخطاب مع أسباب النزول، أو مع المتلقي المباشر للنص القرءاني حال نزول الآيات.

وبهذا نكون قد رصدنا بعض وسائل التناسب في سور العتاق الأول (الإسراء، الكهف، مريم)، وليس هذا إلا بعض كثير، وغيض من فيض ما يمكن للبحث أن يتسع له، وإن القرءان الكريم ليزخر بأساليب عديدة يمكن تقصى التناسب من خلالها، وكلما تقدمت الدراسات الأدبية واللغوية كلما أمكن للباحث في تحليل النص القرءاني الإفادة منها، واكتشاف مكنونات الإعجاز التي يفيض بها كلام الله تعالى.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع

١. أباطة، ثروت ، السرد القصصي في القرآن ، ١٦ - ١٧ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ب.ت.
٢. إبراهيم ،زكريا ، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، ب.ت.
٣. إبراهيم ،عبدالله، السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط٢، ٢٠٠٠م.
٤. ابن أبي الإصبع المصري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٥م.
٥. ابن الأثير، ضياء الدين بن نصرالله ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٩٠م.
٦. ابن الجوزي، جمال الدين ، صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، محمد رواس قلعه جي، دار الوعي، حلب، ط ١، ١٩٦٩م.
٧. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ، الحسنه والسيئة ، دار الكتب العلمية، بيروت، ب.ت.
٨. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ، النبوات ، المطبعة السلفية، القاهرة، ب.ت.
٩. ابن حجة الحموي، علي بن عبد الله، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق كوكب دياب، دار صادر ، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٠. ابن خلكان، شمس الدين بي أحمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ب.ت.
١١. ابن شرف، يحيى ، محي الدين النووي، صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ب.ت.
١٢. ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد ، ادار الكتاب العربي، لبنان، ب.ت.
١٣. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين ، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق عماد عمار، دار الحديث ، القاهرة، ٢٠٠٣م.
١٤. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي ، لسان العرب ، ١ / ٧٥٥، دار صادر بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٠م.
١٥. ابن نبي، مالك ، الظاهرة القرآنية ، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.
١٦. أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار الفكر، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ب.ت.
١٧. أبو زهرة، محمد ، المعجزة الكبرى القرآنية ، دار الفكر العربي ، ب.ت.
١٨. أبو موسى، محمد ، خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، مكتبة وهبة، ط٥ ، ٢٠٠٠م.
١٩. أبو موسى، محمد ، التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان، مكتبة وهبة، مصر، ط٣ ، ١٩٩٣م.
٢٠. أرحيلة، عباس ، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٩م.
٢١. أركون ، محمد ، القرءان من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة ، بيروت، ط١ ، ٢٠٠١م.

٢٢. إسماعيل، عز الدين ، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي ، ٢٠٠٠م.
٢٣. الأصفهاني ، الراغب ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت.
٢٤. الأنصاري ، عبد الله بن يوسف، بن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، تحقيق: إميل بديع يعقوب، حسن حمد، دار الكتب العلمية، ط١ ، ١٩٩٨م.
٢٥. أنيس، إبراهيم ، من أسرار اللغة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٨ ، ٢٠٠٣م.
٢٦. الباقلائي، محمد بن الطيب ، إعجاز القرآن ، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٤ ، ب ت.
٢٧. البحتري ، الوليد بن عبد الله بن يحيى ، ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف ١٩٦٣م.
٢٨. بحراوي ، حسن ، بنية الشكل الروائي الفضاء، الزمن ، الشخصية ، المركز الثقافي العربي ، ط١ . ١٩٩٠م.
٢٩. البغدادي، عبد القاهر ، الفرق بين الفرق، دار المعرفة ، بيروت، ب ت.
٣٠. البقاعي، برهان الدين ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرازق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط١ ، ١٩٩٥م.
٣١. البهي، محمد ، نحو القرآن ، مكتبة وهبة، مصر، ط١ ، ١٩٨٦م.
٣٢. بيرك ، جاك ، القرآن إعادة قراءة، مقدمة منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري، ط٢ ، ٢٠٠٥م.
٣٣. تقي الدين ، السيد ، من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن ، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٥م.
٣٤. التنوخي، زين الدين أبي عبد الله محمد بن محمد ، الأقصى القريب في علم البيان ، مطبعة السعادة ، مصر ب ت

٣٥. التهانوي، محمد على ، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مراجعة رفيق العجم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦م.
٣٦. الجاحظ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين، تحقيق:عبد السلام هارون، دار الجيل، ب ت.
٣٧. الجرجاني، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، قراءة محمود شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني جدة، ط ٣، ١٩٩٢ م .
٣٨. الجرجاني، علي بن محمد ، التعريفات ، دار الكتب المصرية، دار الكتب اللبنانية، ط١، ١٩٩١م.
٣٩. الجطلالوي، الهادي ، قضايا اللغة في كتب التفسير:المنهج، التأويل ، الإعجاز، دار محمد علي الحامي، تونس، ط١، ١٩٩٨م.
٤٠. جينيت، جيرار ، خطاب الحكاية بحث المنهج ، ترجمة محمد معتصم ، عمر حلمي ، عبد الجليل الازدي ، مطبعة النحاح الجديدة الدار البيضاء ط ١، ١٩٩٦م.
٤١. حسان ، تمام ، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط ٤، ٢٠٠٤م.
٤٢. حسان ، تمام ، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م.
٤٣. حسان، تمام ، البيان في روائع القراءان: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرءاني، عالم الكتب، ٢٠٠٠م.
٤٤. حسن ، حمود السيد ، التعبير اللغوي في أمثال القراءان ، المكتب الجامعي الحديث، مصر، ط١، ٢٠٠١م.
٤٥. الحسنائي، محمد ، دراسة جمالية بيانية في أربع سور :الإسراء الكهف مريم طه دار عمار، ط ١ ، ٢٠٠٦م.
٤٦. الحلبي ، أحمد بن يوسف، السمين ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، ٧ / ٤٧٠ - ٤٧١ ، تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩١م.

٤٧. الحلبي، شهاب الدين محمود حسن، التوصل إلى صناعة التوصل، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م.
٤٨. حلمي، مصطفى، الإسلام والمذاهب الفلسفية نحو منهج لدراسة الفلسفة، ص ١٤٣-١٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ١، ٢٠٠٥م.
٤٩. الحميداني، حميد، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي، ط ٣، ٢٠٠٠م.
٥٠. حميدة، مصطفى، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، القاهرة، مصر، ط ١، ١٩٩٧م.
٥١. الخبو، محمد، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، حامد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.
٥٢. خضر، محمد شرف، بلاغة السرد القصصي في القرآن، دار العواصم للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٤م.
٥٣. خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩١م.
٥٤. الخطيب، محمد، الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية، دار علاء الدين، ط ١، ٢٠٠٤م.
٥٥. خلف الله، محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن الكريم، مع شرح وتعليق خليل عبد الكريم، مؤسسة الانتشار العربي، ط ٤، ١٩٩٩م.
٥٦. الداهي، محمد، سيميائية الكلام الروائي، شركة النشر ولتوزيع المدرسي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٦م.
٥٧. دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، ص ١٨٩، ١٩٠، دار طيبة، الرياض، ط ٢، ٢٠٠٢م.
٥٨. دراز، مصباح عبيد، في البلاغة القرآنية، أسرار الفصل والوصل، مطبعة الأمانة ط ١ / ١٩٩٦م.

٥٩. ديك، فان، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، ، ترجمة: عبدالقادر قينيني ، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٠م.
٦٠. الرازي، فخر الدين محمد ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق: نصر حاجي مفتي أوغلي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م.
٦١. الرازي، فخر الدين محمد، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران، ط ٢، ب ت.
٦٢. الرافعي، مصطفى صادق ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٣م.
٦٣. الرماني، علي بن عيسى ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، النكت في إعجاز القرآن الكريم، مطبعة دار المعارف، مصر، ب ت.
٦٤. زرزور، عدنان محمد ، في الفكر والثقافة لإسلامية المدخل والأساس العقائدي ، المكتب الإسلامي، ط ٤ ، ١٩٩١م.
٦٥. زرزور، عدنان محمد ، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، در الأعلام، ط ١، ٢٠٠٥م.
٦٦. الزرقاني، محمد عبدالعظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ب ت.
٦٧. الزركشي، بدرالدين محمد ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الفكر بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.
٦٨. الزركلي، خير الدين ، الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين، ط ١٤ ، ١٩٩٩م.
٦٩. الزمخشري، جار الله محود بن عمر ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٣م.
٧٠. الزمخشري، جار الله محود بن عمر ، أساس البلاغة ، دار إحياء التراث، ط ١، ٢٠٠١م.

٧١. الزناد ، الأزهر ، نسيج النص: بحث فيما يكون فيه الملفوظ نصا المركز الثقافى العربى، ط١ ، ١٩٩٣م.
٧٢. السبكى، تاج الدين ، طبقات الشافعية ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، ب ت.
٧٣. سليم ، عبد الإله ، بنيات المشابهة في اللغة العربية مقارنة معرفية، دار توبقال للنشر ، ط١ ، ٢٠٠١م.
٧٤. سليمان ، خالد ، المفارقة والأدب ، دراسة في النظرية والتطبيق ، دار الشروق، ط١ ، ١٩٩٩م.
٧٥. السيوطي، جلال الدين ، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ، ١٩٨٨م.
٧٦. السيوطي، جلال الدين ، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٤م.
٧٧. السيوطي، جلال الدين ، لباب النقول في أسباب النزول ، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، المكتب الثقافى في القاهرة، ط٦ ، ٢٠٠٢م.
٧٨. السيوطي، جلال الدين ، تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م.
٧٩. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، مصر، ط٢ ، ١٩٩٧م.
٨٠. صحراوي، مسعود ، التداولية عند علماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة بيروت، ط١ ، ٢٠٠٥م.
٨١. طبل ، حسن ، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م.

٨٢. الطريطر، حميد ، قضية الزمن من خلال القراء ن ، دار وحي القلم، ط١ ، ٢٠٠٤م.
٨٣. عباس، إحسان ، تاريخ النقد عند العرب، نعد الشعر من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري، دار الشروق، ط٤ ، ٢٠٠٦م.
٨٤. عباس، فضل حسن ، قصص القراء الكريم ، دار الفرقان، ط١ ، ٢٠٠٠م.
٨٥. عبد الباقي، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لألفاظ القراء الكريم ، دار الحديث ، القاهرة، ٢٠٠١م.
٨٦. عبد الجليل، محمد بدري ، براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٨٤م، بيروت.
٨٧. عبد الرحمن، طه ، روح الحداثة ، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية ، المركز الثقافي العربي، ط١ ، ٢٠٠٦م.
٨٨. عبد الرحمن، عائشة ، الإعجاز البياني للقراء ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية لغوية بيانية. ، دار المعارف، ط٢ ، ب ت.
٨٩. عبد العزيز، جمعة أمين ، منهج القراء في عرض عقيدة الإسلام، دار الدعوة ، مصر، ط٢ ، ١٩٩٢م.
٩٠. عبد العظيم، زكي الدين ، مختصر صحيح مسلم، تحقيق عصام الدين الصباطي.
٩١. عبدالرازق، مصطفى ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، مكتبة الثقافة الدينية، ط١ ، ٢٠٠٥م.
٩٢. عبد الرحمن، طه ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط١ ، ١٩٩٨م.
٩٣. العسقلاني، أحمد بن علي، بن حجر ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تحقيق عبدالعزيز عبدالله الباز، محمد فؤاد عبد الباقي، دار التقوى، مكتبة العلم ، مصر، ب ت.

٩٤. عشير، عبدالسلام ، عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق ٢٠٠٦م.
٩٥. عصفور، جابر ، الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ٢٠٠٣م.
٩٦. عكاوي، إنعام فوّال ، المعجم المفصل في علوم البلاغة، البديع والبيان، والمعاني، ط ١، ١٩٩٣م.
٩٧. العلوي، محمد بن أحمد ابن طباطبا ، عيار الشعر، تحقيق وتعليق: طه الحاجري، محمد زعلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٦م.
٩٨. العوفي، نجيب ، مقارنة الواقع في القصة القصيرة المغربية من التأسيس إلى التجنيس ، المركز الثقافي العربي ، ط ١ ١٩٨٧م.
٩٩. عياشي منذر ، دراسات في الأسلوبية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
١٠٠. الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ، في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل ، تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٨٣م.
١٠١. الغزالي، محمد ، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، ط ٨، ٢٠٠٥م
١٠٢. الغزالي، محمد ، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٨٩م.
١٠٣. الغزالي، محمد بن محمد، أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، تحقيق: سيد عمران، دار الحديث، ٢٠٠٤م.
١٠٤. الغزالي، محمد بن محمد، أبو حامد ، تهافت الفلاسفة ، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٣م.
١٠٥. فاخوري، عادل ، تيارات في السيمياء ، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.

١٠٦. الفراهيدي ، الخليل بن أحمد ، كتاب العين ، تحقيق مهدي الخزومي ،
إبراهيم السامرائي ، دار الشؤون الثقافية والنشر ، الجمهورية
العراقية ، ١٩٨٤م.
١٠٧. فضل ، صلاح ، علم الأسلوب ، مبادئه وإجراءاته ، ص ١٠٥ ، دار
الشروق ، ط ١ ، ١٩٩٨م.
١٠٨. الفقي ، صبحي إبراهيم ، عالم اللغة النصي ، دار قباء للطباعة
والنشر ، ط ١ ، ٢٠٠٠م.
١٠٩. فولفجانج هاينه مان وديتر ، مدخل إلى علم لغة النص ، ترجمة
سعيد
١١٠. قدامة ، بن جعفر ، نقد الشعر ، ضبطه وشرحه محمد عيسى منون ،
المطبعة المليجية ، ط ١ ، ١٩٣٤م.
١١١. القرطاجني ، حازم ، منهاج البلغاء وسراج البلغاء ، تحقيق محمد الحبيب
الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، ب ت ..
١١٢. القزويني ، الخطيب ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق محمد السعدي
فرهود ، محمد عبد المنعم خفاجي ، عبدالعزيز شرف ، دار الكتب
المصري ، اللبناني ، ٢٠٠٤م.
١١٣. قطب ، سيد ، التصوير الفني في القرآن ١٣٠ ، دار
الشروق ، ط ١٧ ، ٢٠٠٤م.
١١٤. قطب ، سيد ، في ظلال القرآن ، دار العلم للطباعة والنشر ،
الرياض ، ط ١٢ ، ١٩٨٦م.
١١٥. الكواز ، محمد ، أسلوب التعقيب في القرآن الكريم ، منشورات
جامعة السابع من إبريل ، الزاوية ، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية
الاشتراكية العظمى ، ط ١ ، ١٤٢٥هـ
١١٦. مسلم ، مصطفى ، مباحث في التفسير الموضوعي ، دار القلم ، دمشق ،
ط ٤ ، ٢٠٠٤م.

١١٧. مصطفى، محمود السيد حسن ، الإعجاز اللغوي في القرآن في القصة
القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، ط ١ ، ١٩٨١م.
١١٨. المطعني، عبدالعظيم إبراهيم محمد ، دراسات جديدة في إعجاز القرآن
، مناهج تطبيقية، مكتبة وهبة، ط ١ ، ١٩٩٦م.
١١٩. مطلوب، أحمد ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة
لبنان ناشرون، ط ٢ ، ١٩٩٦م.
١٢٠. المعافري، عبدالملك ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق جمال ثابت
وآخرون، دار الحديث القاهرة، ٢٠٠٤م.
١٢١. مفتاح، محمد ، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص،
المركز الثقافي العربي، ط ٤ ، ٢٠٠٥م.
١٢٢. مفتاح، محمد ، مجهول البيان ، دار توبقال للنشر، المغرب، ط ١ ،
١٩٩٠م.
١٢٣. مفتاح، محمد ، التلقي والتأويل ، مقارنة نسقية، المركز الثقافي
العربي ، ط ٢ ، ٢٠٠١م.
١٢٤. منسج، أي. وينسك وي ب.. ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي،
مطبعة بريل في مدينة ليدن، ب ت.
١٢٥. النشار، علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعارف،
ط ١ ، ب ت.
١٢٦. نفرة، التهامي، سيكيولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية
للتوزيع، ب ت.
١٢٧. النقراط، عبدالله محمد ، بلاغة تصريف القول في القرآن، دار
قتيبة، ط ١ ، ٢٠٠٢م.
١٢٨. النويري، شهاب الدين أحمد ، نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر
السابع ص ١٦٠ ، خزانة الأدب، ب ت

١٢٩. النيسابوري، أحمد بن الحسين البيهقي ، كتاب الأسماء والصفات، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ب ت.

١٣٠. الواد، حسين ، تدور على غير

أسمائها ، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٣م.

١٣١. هنداوي، عبدالحميد أحمد يوسف ، الإعجاز الصرفي في القرآن، دراسة

نظرية تطبيقية ، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة

العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠١م.

١٣٢. اليازجي، ناصيف ، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، دار الأرقم

للطباعة والنشر، ب ت.

ثانيا الرسائل الجامعية والدوريات

١. حسين، جمال نصار ، الخطاب القرآني ولغة العصر، الحداثة، العدد

٢٧، ٢٨، س ٤، ١٩٩٧م.

٢. عبد المطلب ، رفعت فوزي ، الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، رسالة

التربية ، كلية التربية ، المدينة المنورة، س ٢٠، ع ٢، مايو ١٩٨٨

٣. خداده، سالم عباس ، النقد والسياق، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة

البحرين، ع ٢، ١٩٩٩م

٤. حجازي، سامي عفيفي ، الاستدلال القرآني، منهجه ومميزاته، مجلة

الجامعة الإسلامية، تصدر عن الجامعة الإسلامية للعلوم، س ١٩٩٥م.

٥. الخضير، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز ، فواتح السور

وخواتيمها أنواعها، دلالاتها، مناسباتها، رسالة مقدمة لنيل درجة

الدكتوراه، إشراف د. مصطفى مسلم الأستاذ بكلية أصول الدين

بالرياض ١٤١٧هـ

٦. العشي، عبدالله ، بنية الدعاء، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة البحرين، ع٣، ٢٠٠٠م
٧. تدمري، عمر عبدالسلام ، برهان الدين البقاعي الإمام الموسوعي، مجلة تاريخ العرب والعالم ، السنة ٢٠٠٠م، مجلد ٢٠، العدد ١٧٨
٨. الحسن، محمد على ، ترتيب نزول القرآن، مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم ، ع٢٧، س ٢٥، يونيو ١٩٩٦م.
٩. عوجان، وليد ، السيوطي وكتابه تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور، دراسة وتحليل، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد ١٣، ع ١٥، ١٩٨٨م.

فهرست موضوعات

إهداء

المقدمة

أ - ح

٥٠ - ٣

الفصل الأول : مفهوم التناسب

المبحث الأول : التناسب عند البلاغيين

أولا : مرحلة ما قبل التناسب

١ - التشاكل

٨

٢ - الائتلاف

١٢

٣ - ائتلاف المعاني

١٢

ثانيا : ما بعد تشكّل المصطلح

أولا تناسب المعاني

١٧

الأول : العلاقة بين أجزاء الكلام ، وخصوصا بدايته وخاتمته

١٧

الثاني : الجمع بين المعاني

١٩

الثالث : ترتيب المعاني

٢٠

ثانيا : المناسبة اللفظية

٢٢

المناسبة التامة (الترصيع)

٢٣

المناسبة اللفظية غير التامة (التوازن)

٢٣

تشابه الأطراف (التسبيغ)

٢٤

المبحث الثاني علم مناسبات القرآن الكريم

أولا : تعريف علم مناسبات القرآن الكريم

٢٨

ثانيا : آراء العلماء الرافضين لوجود المناسبات في القرآن الكريم

٣٢

١ - التكلف في ربط الآيات والسور بعضها ببعض

٣٢

٢ - تعدد موضوعات القرآن الكريم

٣٥

٣ - نزول القرآن منجما

٣٥

٤٣	ثالثا: كيفية الاهتداء إلى مناسبات الآيات والسور
٤٣	١- تناسب آيات القرآن الكريم
٤٤	أ- الآيات المعطوفة
٤٥	ب- الآيات التي لا تكون معطوفة
٤٥	٢- تناسب السورة الواحدة في القرآن
٤٧	٣- التناسب في السور (تشابك النص القرآني)
١٥١ - ٥٧	الفصل الثاني: تناسب بنى سور العتاق الأول وموضوعاتها
	المبحث الأول : تناسب بنى سور العتاق الأول
	سورة الإسراء
٥٧	أولا بنية السورة
٥٨	ثانيا: قضايا السورة وموضوعاتها
٥٩	١- قضية المعجزة
٦١	أ- الموازنة الثلاثية ومفهوم المعجزة
٦٤	ب- موازنة المواقف
٦٧	٢- التوحيد
٦٨	أ- نفي الشريك
٦٩	ب- التوكل على الله
٧٢	٣- هلاك الأمم
٧٤	ثالثا: وسائل ربط موضوعات السورة
٧٥	١- الجامع العقلي
٧٦	٢- فصل الموضوعات ووصلها
٧٧	٣- التكرار
٧٨	٤- روابط تشعبية

	سورة الكهف
٨٣	أولاً: بنية السورة
٨٦	ثانياً: محاور السورة
٨٦	المحور الأول: حقيقة العلم
٨٩	المحور الثاني: زوال زينة الدنيا
٩٠	ثالثاً: وسائل الربط بين موضوعات السورة
٩٠	١- الخطاب
٩٢	٢- التصوير
٩٢	٣- التعقيب
	سورة مريم
٩٦	أولاً: بنية السورة
٩٦	١- قدرة الله سبحانه وتعالى في بسط رحمته
١٠٠	٢- قدرة الله سبحانه وتعالى على إهلاك المعاندين
١٠٣	ثالثاً: وسائل الربط في السورة
١٠٣	١- التكرار
١٠٥	٢- الإحالة بالعودة
	المبحث الثاني: تناسب موضوعات العتاق الأول
١٠٩	تمهيد: مستويات التناسب في السور
١١١	الموضوعات المشتركة في السور
١١١	١- التوحيد
١١٤	٢- القرآن
١١٥	٣- النبي
١١٥	٤- البعث

١٤٣	أ- الحروف المقطعة
١٤٥	ب- قصة زكريا
١٤٦	٢- الخاتمة
١٤٧	٣- العلاقة بين الفاتحة والخاتمة
١٤٧	٤- علاقة الفاتحة والخاتمة بمضمون السورة
١٤٨	ثانيا: دور الفواتح والخواتيم في ربط السورة
١٤٩	١- الله
١٥٠	٢- القرءان
١٥٠	٣- النبي
٢٢٥ - ١٥٣	الفصل الثالث: تناسب السرد في العتاق الأول
١٥٣	تمهيد
١٥٧	المبحث الأول: التناسب بين مقاصد السور والبنى السردية
	سورة الإسراء
١٦٢	ثانيا: تناسب البنى السردية في السورة
١٦٢	أ- البنية الدائرية
١٦٥	ب- البنية المكانية الزمانية
	سورة الكهف
١٦٨	أولا: تناسب مقاصد السورة مع مقاصد القصص
١٧٠	ثانيا: تناسب البنى السردية
١٧٠	١- الشخصية المبهمة
١٧٢	٢- البنية الحوارية
١٧٤	٣- الرحلة
١٧٦	٤- المفارقة

	سورة مريم
١٨٠	أولاً: تناسب مقاصد السورة مع مقاصد القصص
١٨١	ثانياً: تناسب البنى السردية في السورة
١٨٢	١- الخلوة
١٨٣	٢- التعجب
١٨٤	٣- وحدة الإجابة
١٨٥	٤- الابن
	المبحث الثاني: تناسب سياق سور العتاق الأول
١٨٩	تمهيد
١٩٣	سورة الإسراء
١٩٣	أولاً: سياق الهلاك
١٩٤	١- سياق الأنبياء
١٩٨	٢- سياق الترف
٢٠٠	٣- سياق الكبر
٢٠٦	سورة الكهف
٢٠٦	أولاً: سياق العلم
٢١١	ثانياً: سياق البعث
٢١١	١- سياق الهلاك
٢١٣	٢- سياق الزينة
٢١٦	سورة مريم
٢١٦	أولاً: سياق الرحمة
٢١٧	١- أسماء الجلالة
٢١٩	٢- سياق البنوة
٢٢١	٣- سياق النبوة
٢٢٢	ثانياً: سياق العذاب

٢٢٧

٢٣١

٢٤٥

خاتمة

قائمة المصادر والمراجع

فهرست الموضوعات